

المشروع القومي للترجمة

رحلة لاستكشاف أفريقيا

تأليف: الميجور/ دنهام والكابتن/ كلابرتون والرحالة/ أودني

الجزء الثاني

ترجمة

عبدالله عبدالرازق إبراهيم

مراجعة

شوقي عطا الله الجمل

471

اهداءات ٢٠٠٤

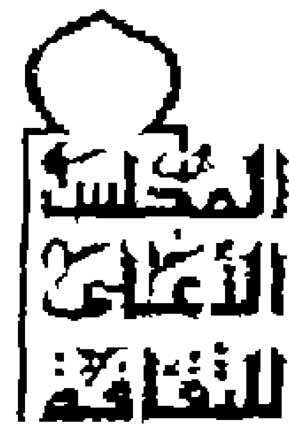
مجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

رحلة لاستكشاف أفريقيا

(الجزء الثانى)

تأليف : الميجور دنهام والكابتن كلابرتون
والرحالة أودنى
ترجمة : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
مراجعة : شوقى عطا الله الجمل



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٧١
- رحلة لاستكشاف أفريقيا (الجزء الثانى)
- الميجور دنهام والكابتن كلابرتون والرحالة أودنى
- عبدالله عبد الرازق إبراهيم
- شوقى عطا الله الجمل
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

Narrative of Travels and Discoveries
in
Northern and Central Africa
in the years 1822, 1823, and 1824
By
Major Denham F.R.S., Captain Clapperton
And the late Doctor Oudney
Second Edition
In two volumes
Vol. II
London
John Murray, Alberarle - Street
Printed by Thomas Davidson, white friars

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة الجزء الثانى

لقد مرت عمليات كشف القارة الأفريقية بمراحل عديدة، وكان اكتشاف كل نهر والوصول إلى منابعه من العمليات الصعبة التى دارت حولها قصص وحكايات وبطولات ومغامرات، ولعل كشف نهر النيجر ومعرفة مجراه ومنبعه ثم مصبه من القصص الطريفة التى رواها الرحالة والمستكشفون أمثال رحلات منجوبارك ١٧٩٥ – ١٧٩٧ – ١٨٠٥ – ١٨٠٦ وهو الذى قام برحلات للكشف عن المنطقة المجاورة لنهر جامبيا وتحرك على شواطئ النيجر، ثم أكمل فى رحلته الثانية ١٨٠٥ حيث مسح النيجر، ووصل إلى مدينة سانساندنج فى سبتمبر ١٨٠٥، بل ووصل إلى مدينة بوسا على النيجر ثم انقطعت أخباره عن العالم.

تابع رحلات الكشف الرحالة كلابرتون وأودنى ١٨٢٣ – ١٨٢٥ والمعروف أن كلابرتون اسكتلندى يحب الرحلات والمغامرات وقد بدأ الرحلة من شمال أفريقيا حيث وصل إلى طرابلس عام ١٨٢٢ مع الدكتور أودنى والميجور ديكسون دينهام واتجهوا إلى بحيرة تشاد، وانفصل دنهام الذى اتجه لكشف نهر شارى بينما اتجه كلابرتون وأودنى جنوب النيجر عبر بلاد الهوسا حيث وصلا إلى مدينة كوكا غرب بحيرة تشاد، ثم وصلوا إلى كانو فى عام ١٨٢٤، وتوفى أودنى قبل الوصول لكانو ثم اتجه كلابرتون إلى سوكوتو عاصمة الخلافة الإسلامية ولم يسمح محمد بلو له باستكمال رحلته للنيجر، فعاد إلى طرابلس وإنجلترا عام ١٨٢٥، ثم قام كلابرتون برحلة ثانية إلى سوكوتو بقصد توقيع معاهدة مع سلطانها محمد بلو وكان معه لاندر ووصلا إلى مدينة كانو فى ٢٥ مايو ١٨٢٦، وسافر إلى سوكوتو لكن السلطان كان مشغولاً بحروبه ضد بورنو وفى سوكوتو مرض كلابرتون وتوفى فى ١٣ أبريل ١٨٢٧ ودفن هناك.

كانت رحلة لاندر برفقة كلابرتون مشجعة للطامعين فى الوصول إلى قلب القارة الأفريقية لاستغلال ثرواتها البشرية والطبيعية بعد الثورة الصناعية فى أوروبا، وفتح هذا بابًا للنشاط خارج القارة الأوروبية.

جاء ت أيضًا رحلة بارث الألمانى الذى وصل إلى تونس عام ١٨٤٩ لتنشيط التجارة عبر الصحراء وللقضاء على تجارة الرقيق ووصل أيضًا إلى كانو وكانم وباجرمى واتجه نحو تمبكتو ونشر مؤلفاته فى خمس مجلدات.

وهكذا أدت جهود الإنجليز إلى كشف وسط القارة ونهر النيجر وبحيرة تشاد، لتبدأ بعد ذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مرحلة من التكالب على هذه المناطق بعد أن درس الإنجليز أحوالها ومناخها وثرواتها ومسالكها ودروبها لتتحول هذه المناطق إلى سوق لإنجلترا وموردًا للحصول على المواد الخام ، وكأن هذه الرحلات كانت المقدمة الطبيعية للتوسع والسيطرة والاستعمار. وسوف نحكى قصة هذا الكشف من خلال هؤلاء الرحالة.

وفى الجزء الأول من رحلة استكشاف أفريقيا استعرض الرحالة وصفًا لمدينة مرزوق حتى الوصول إلى كوكا فى دولة بورنو، ثم دراسة كاملة لمدينة كوكا، ووصف كامل للرحلة إلى ماندارا، ثم الوصف التفصيلى للرحلة إلى مونجا وجمبارو وأخيراً عرض طويل لفصل مطير فى مدينة كوكا.

أما الجزء الثانى فإنه يعالج من خلال الفصل السادس الرحلة إلى منطقة لوجون وموت السيد تول ثم يتابع فى الفصل السابع الرحلة إلى الشواطئ الشرقية لبحيرة تشاد مع فصل تكميلى عن بورنو.

ويناقش الكتاب أيضًا فى الجزء الثانى الرحلة من كوكا إلى مرمور حيث وفاة الدكتور أودنى، ثم يتطرق الحديث عن الرحلة من مرمور إلى إمارة كانو وأخيراً الرحلة من كانو إلى سوكوتو والإقامة هناك ، وينتهى الجزء الثانى بعدة خطابات ووثائق بين الرحالة والشيخ الكانيمى وسلطان الهوسا، والكتاب دراسة شيقة لرحلة من أهم الرحلات الكشفية لغرب القارة ووسطها والتى خلفت الكثير من الآثار التى نحددها على النحو التالى:

أولاً: تعد هذه الرحلة فى بداية القرن التاسع عشر بداية احتكاك الأوروبيين بالمناطق الداخلية من القارة، ولذا فإنها من الرحلات الكشفية المهمة التى ساهمت بنصيب وافر فى كشف بعض الأجزاء من وسط القارة وغربها.

ثانياً: إن هذه الرحلة الكشفية فى حقيقة الأمر لم تكن مجرد رحلة كشفية قام بها مجموعة من المغامرين الذين لاقوا الأهوال والمشاق والأمراض الفتاكة، بل إنها كانت رحلة علمية مهمة تسعى إلى ارتياد هذه المناطق لمعرفة طبيعة السكان وعاداتهم وتقاليدهم ومواردهم المعدنية وغيرها أى أنها كانت مقدمة للتجارة المشروعة مع هذه الجهات.

ثالثاً: تحفل الرحلة بالكثير من المعلومات الدقيقة والواقعية عن أحوال هذه الشعوب وعن وجود الرقيق لدى الحكام ولدى الدول المختلفة خاصة فى المناطق الوثنية وأن هذا الرقيق نتيجة الحروب بين الدول، وأن تحرير العبيد صار شيئاً مشروعاً، وأنه لا توجد تجارة رقيق بالمعنى المفهوم عبر الأطلسى والتى امتدت لثلاث قرون أو أكثر، أى أن الرق فى هذه المناطق كان للاستخدام المنزلى والعمل فى المزارع والخدمة فى الجيوش.

رابعًا: تعد هذه الرحلة مجالاً خصباً ومصدراً أساسياً للدراسات الأنثربولوجية لجماعات لم يعرف عنها الكثير حيث تتناول الكثير من عادات الزواج والطلاق، والعادات الاجتماعية وطريقة إعداد الجيوش للحرب، والعادات الإسلامية فى الأعياد الثلاث العيد الصغير والكبير ومولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وطريقة النظام فى المحاكم الإسلامية، وطريقة التقاضى أمام محكمة الشيخ التى تطبق الشريعة بشكل صارم. وبالتالى فإن هذه الرحلة تعد أساساً ومرجعاً لا غنى له لطلاب الدراسات الأنثربولوجية لهذه الشعوب التى وصفها الرحالة بشكل مطول أثناء الرحلة وأماكن تواجدها. ووصف تفصيلى لمدنها وقراها والأكواخ وما تحتوى عليه، وحفلات الزواج بالتفصيل.

خامسًا: اتضح من عرض هذه الرحلة فى مطلع القرن التاسع عشر أثر الدعوة الإصلاحية الكبرى التى أعلنها الشيخ عثمان بن فودى فى مطلع القرن التاسع عشر وحتى وفاته عام ١٨١٧ وتولى ابنه محمد بلو الذى أعلن قيام خلافة إسلامية فى دولة

سوكوتو التى استطاع هؤلاء الرحالة الوصول إليها فى الجزء الثانى ومشاهدة نظام الحكم ونظام تشكيل الجيش والدور الذى يقوم به محمد بلو الذى كان مشغولاً أثناء قدومهم فى حملاته ضد الوثنيين من الدول المجاورة. وبالتالى فإن الرحلة دراسة تاريخية وسياسية للصراع بين الكانيمى والشيخ محمد بلو الذى استفاض فى هذه العلاقة فى كتابه "إنفاق الميسور" وبالتالى فهى مصدر أوروبى إلى جانب المصدر الأفريقى وكلاهما يكمل الأخر ولا تناقض بينهما.

سادساً: توضح هذه الرحلة مدى المعاناة التى لقيها الرحالة فى هذه الرحلة عبر الصحراء الشاسعة وسط أجواء حارة ورطبة مليئة بالحشرات والذباب والناموس والأفاعى والأسود، ووسط الغابة وما فيها والمغامرات التى خاضها الرحالة على أمل تحقيق أهدافهم وهى: الكشف عن المجهول واكتشاف مناطق جديدة، ومعرفة الأنهار التى تتفرع من النيجر مثل نهر بيوى وبنوى، ووصف بحيرة تشاد والشعوب التى تقطن حولها، والثروات الموجودة سواء فى التلال أو الجبال حتى تكون الصورة واضحة أمام بريطانيا عند محاولة التوسع وبسط نفوذها وكانت هذه الرحلة وغيرها مؤشرات لتحرك بريطانيا فى النصف الثانى للسيطرة على هذه المناطق أى إن الرحلة كانت مقدمة لاستعمار هذه المناطق من القارة وكأن آلام الرحالة كانت لخدمة مصلحة بلادهم حتى وإن ماتوا فى سبيلها.

سابعاً : أوضحت هذه الرحلة الأماكن التى يتواجد فيها المسلمون بشكل مكثف أثر حركة الجهاد والإصلاح التى قادها الشيخ عثمان وخلفاؤه من بعده، ولاحظوا تطبيق الشريعة فى أماكن هذا الجهاد ودولة سوكوتو، وتطبيق نظام إسلامى قوى يصعب تغييره أو حتى تعديله ولذا فإن الرحلة كشفت عن هذه الأنظمة فى القرن التاسع عشر ١٨٢٢ ولما احتلت بريطانيا هذه المناطق فى عام ١٩٠٣ لم تستطع تغيير هذه النظم الإسلامية واضطرت إلى تطبيق نظام الإدارة غير المباشرة فى مناطق المسلمين فى الشمال وحافظت على الإدارة الوطنية الإسلامية التى طبقت الشريعة حتى يومنا هذا وكأن الرحلة كانت مؤشراً قوياً أمام بريطانيا على وجود نظم إسلامية قوية يصعب تغييرها.

ثامناً: لقد لعب الرحالة دوراً كبيراً في تغيير هياكل نظم الحكم في بعض المناطق، بل وخضوع بعض المناطق لسلطان دولة بورنو والتي كانت تعاني كثيراً من جيرانها ولم تحقق انتصارات عليهم إلا بعد وصول هؤلاء الرحالة واستخدام البنادق والأسلحة النارية والصواريخ التي كانوا يصنعونها أمام الشيخ والتي كان يطلب منها المزيد لأنها تحقق له الانتصار والغلبة على أعدائه خاصة الفولاني الذين ينتشرون في هذه المناطق، وكان إدخال الأسلحة النارية في هذه المناطق بداية لتطور خطير في العلاقات، والقضاء على كيانات وضعف الأخرى لأن هذه الصواريخ كانت تدمر المدن المسورة وتحطم الهياكل التقليدية التي كانت سائدة. أي أن الرحلة كانت بداية تطور تكنولوجي وتقني في استخدام أسلحة حديثة متطورة غيرت سير الأحداث.

تاسعاً: يكشف هذا الكتاب عن جانب اقتصادي مهم وهو العملة التي كانت سائدة في هذه الجهات قبل قدوم الأوروبيين، ويكشف عن الودع الذي كان يستورد من الهند. فضلاً عن قطع من الأقمشة التي كانت تستخدم فضلاً عن استخدام نظام التبادل بين التجار، وفي السلع ذات القيمة الكبيرة كانت العملة المستخدمة هي الرقيق، أي أن الرحلة كشفت عن استخدام الرق في السلع الكبرى والتي كشف عنها هنري بارث عام ١٨٤٩ بشكل مكثف بل وقدم وصفا تفصيليا عن الودع والعملة المستخدمة في غرب القارة ووسطها.

وباختصار فإن هذه الرحلة تضم الكثير من الحقائق التاريخية والجغرافية الأنثربولوجية والكشفية لمنطقة مهمة من داخل القارة الأفريقية.

والله الموفق

المترجم

اكتشافات حديثة فى أفريقيا

الفصل السادس

الرحلة إلى لوجون وموت الدكتور تول

يناير ١٨٢٤ :

قضينا ليلة الرابع والعشرين من يناير فى مدينة أرنجورنو وتقدمنا إلى الأمام دون أن نبتعد مسافة كبيرة عن البحيرة وبعد يومين وصلنا إلى أنجالا وهى إحدى الحكومات القديمة التابعة لبورنو وكان السلطان الحالى أول صديق مؤيد للكانيمى، ومنذ خمسة وعشرين عامًا وكان مجرد تاجر زوَّج ابنته ميرام بمهر كبير من العبيد والماشية، واستقبلنا السلطان بكل حفاوة وكرم، وكان رجلا طيب القلب، وكبير السن، أسود اللون، وما إن وصلنا إلى منزله حتى أحضر إلينا رئيس الوزراء أوانى من اللبن والأرز والدقيق والعسل مع كمية كبيرة من الطعام أرسلها فى المساء، وفى صباح اليوم التالى أرسل خروفًا ضخمًا.

وتعتبر ميرام الزوجة المطلقة للشيخ الكانيمي وتقطن فى أنجالا، وطلبت زيارتها، وكان أبوها قد بنى لها منزلاً عاشت فيه بصفة مستمرة، وكانت جماعتها تضم ستين شخصًا، كانت جميلة، زنجية رشيقة القوام تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا ، وكانت قد تشربت الكثير من الرقة والتى تميز بها الشيخ بشكل جذاب .

كانت تجلس على عرش أرضى مغطى بسجاد تركى ، يحيط به عشرون من أفضل عبيدها ، وقد ارتدوا قمصانًا بيضاء جميلة تصل إلى الأقدام ، وكانت الآذان والأنوف والرقاب مزينة بشكل كثيف من المرجان ، وكانت تجذب المستمعين بكل رشاقة بينما يحرس أربعة من الأقزام ، وقزم زنجى يحتفظ بالمفاتيح ولا يزيد طوله عن ثلاث

بوصات ، ويجلس أمامها وعليه علامات المنصب ويرتدى ثوبا من قماش السودان غالى الثمن ، وفتح لنا هذا الشخص الصغير مجالاً للحديث ومزيداً من الضحك وتساءلت ميرام عما إذا كان فى دولتنا مثل هؤلاء الأشخاص الصغار ، وعندما أجبت بالإثبات قالت "عجيب!"

ما فائدة هؤلاء الصغار ؟ هل ينجبون أطفالاً ؟ وأجبت أيضا "نعم" ، وأنهم صاروا آباء لأبناء طوال القامة، ورجالاً عاديين ،... وكان ردها " عجيب .. إننى أعتقد أنهم أفضل من كلبى لأننى أعطيته ثمانية من أفضل عبيدى وأجملهن دون فائدة "وسوف أقدم مائة ثور وعشرين عبداً لتلك المرأة التى تتحمل هذا الطفل البائس . (إنه بائس وقبيح) وقد هز رأسه الكبير، وسال لعابه من فمه الواسع بسبب هذا المدح من سيدته بشكل متحيز.

فى اليوم التالى غادرنا أنجالا ، وكان رئيس الوزراء الذى استضافنا لمدة أسبوع حزينا، وكانت إحدى زوجاته قد أنجبت طفلاً فى الوقت الذى مر فيه الدكتور أودنى أثناء زيارته إلى شـووى (showy) وقد سمى ابنه "طبيب" اعترافًا بفضل الدكتور أودنى والذى حمل هذا الاسم أثناء رحلته وحقًا كان هناك مشاعر حب وتسامح عند مضيفنا الذى يستحق أن نذكره بكل احترام ، وأثناء عودتى من لوجون منهكًا من التعب والقلق، كنت فى أشد الحاجة إلى التمريض، فقام بتقديم أخته إلى هذه المهمة وكانت فتاة رشيقة قامت بدورها مع إحدى خادماتها بشكل آمن ، وعندما عبرت لها عن امتنانى إلى رئيس الوزراء لهذا الاهتمام أجاب" إنه يحزننا جميعًا أن نرى رجلاً عظيمًا مثلك ، بعيداً عن وطنه، غريبًا ودون امرأة معه، وقد ابيض شعره .

وفى اليوم الثالث والعشرين وصلنا إلى شووى على شاطئ نهر شارى، وكانت عظمة المجرى حوالى نصف ميل ، ويجرى بسرعة ثلاثة أميال فى الساعة فى اتجاه الشمال تقريبًا ، وتقع جزيرة جميلة وسط النهر يبلغ طولها نحو ميل وتوجد أمام المدينة وتشكل مدينة شووى إحدى أحياء مافاتيا (Maffatia) ويحكمها قاض عاملنا بكل احترام، وقد أوصى بأن نتقدم مع مجرى النهر إلى تشاد حسب تعليمات الشيخ .

وفى الثانى من فبراير توقفنا ويصحبتنا القاضى ومعه ثمانية قوارب يحمل كل واحد عشرة أو أحد عشر رجلاً ، يجدفون القوارب عبر النهر لمدة ثمان ساعات ، وعند غروب الشمس وصلنا إلى نقطة تسمى جوجابه (Joggabah) (أو الجزيرة فى لغة ميكارى) والتى تقع على بعد ثلاثين ميل من شووى ، وكان منظر النهر جميلاً وهو ممتلئ بالماء فى هذا الموسم من العام ، وتتواصل الأمواج الواحدة تلو الأخرى فى مجرى ويصل بعضها ثلاثة أو أربعة أميال ، وكانت شواطئ النهر حافلة بالأشجار المتفرقة الغنية ، وكلها تتدلى على الماء حاملة الأزهار بمختلف الألوان الزاهية ، وأما التماسيح العديدة التى يصل طولها ما بين ثمانية أو خمسة عشر قدمًا فكانت تتمايل وتسبح على الشواطئ ، وعندما نقترب منها تندفع إلى داخل المياه ، وتختفى فى الحال وكان الناس يخافون منها لكنهم كانوا يسبحون قليلاً فى المياه الضحلة وبكل جرأة خلف البط الذى نصطاده ، كما اصطدنا أغوانه (آكلة عشب ضخمة) كانت نائمة على شجرة تمر هندى والتى سقطت رأسًا فى الماء . إن جوجابه جميلة المنظر ونراها على بعد ستة أميال تقريبًا ونحن نتقدم نحو مكان جميل يسمى بيلوفور يتش Belle-vue Reach وعرض النهر هنا مثل نهر شووى ولكن هنا أوسع جزء منه.

وتعد هذه الجزيرة أرضًا مرتفعة ذات شواطئ عمودية منحدرة ويصل عمقها إلى عشرة أقدام بالقرب من الحافة ، وتصل القوارب إلى الشاطئ ومجرى الماء قوى وصافى اللون ولطيف ، والمرسى شاطئ رملى جاف ولطيف ، ويمتد إلى تشاد شمالاً لمسافة اثنى عشر أو خمسة عشر ميلاً وله مجريان يمتدان ناحية الشمال الشرقى والشمال الغربى ، ومنها يأخذ نهر شارى نحو هذه البحيرة الضخمة ، التى تحتوى على أسماك وفيرة والبط البرى ولحم الجاموس الذى نشوى لحمة للعشاء على قطع من الخشب.

نصبنا خيمتنا على رأس بارزة حيث كانت توجد مدينة زنجية منذ بضع سنوات ، وكان سكانها مع هذا شديدى المراس ويعملون جواسيس على شعب شووى وعلى هذا صمم الشيخ على القضاء عليهم ، وكانوا فى حلف مع بيدوما الذين يحتفظون بجزيرتهم الخاصة بهم ووجدنا جودويا خالية من السكان تغطيها الغابة والأعشاب

الشوكية فى ذلك الجزء الذى مررنا عليه بالليل ، وحيث شهدنا ثلاثين حيواناً من القوارض وقتلنا اثنين من أربع وأربعين فضلاً عن عقرب كان يختفى تحت الحصر، وكان لدينا حارسان للحراسة طوال الليل بسبب الخوف من شعب بيدوما، وفى الصباح بدأنا الرحيل من جديد وتقدمنا من الفرع الشمالى الغربى لمسافة أكثر من ساعتين فى نفس الاتجاه ، ومررنا على العديد من الجزر والمستنقعات الطافية التى تغطيها الحشائش وأوراق البردى التى تقسم المياه فى عدة اتجاهات ، وأخيراً وجدنا أنفسنا فى المياه العذبة لبحيرة تشاد والتى أطلقنا عليها بحيرة ووترلو (Watrerloo) والتى يصب فيها نهر شارى .

وكانت نيتى أن أتقدم ناحية الشرق ، وأعود من الفرع الأخير ، ولكن بعد الإبحار لمدة ساعتين فى البحيرة المكشوفة اندفعت موجة عنيفة من الشمال الشرقى جعلت المياه تدخل فى القوارب ، وبذلنا جهداً ضخماً لنتخلص منها ، ولذا تخلينا عن الفكرة، وبعد أن عدنا إلى الجانب الجانبى للجزيرة سرنا مع الفرع الشمالى الشرقى، ووجدنا أنه يختلف قليلاً فى شكله .

وأثناء مرورنا فى المياه العميقة، كنا نتجنب تقلبات المياه ، ولم نجد أى عوائق، ولم يزد عمق المياه عن ثلاثة أقدام ، ومررنا على عدد من الجزر الصغيرة وكلها بالقرب من المصب لكنها خالية من الأشجار ومغطاة بالغاب الذى يضم ورق البردى والبوص، والأعشاب العالية .

وكانت أقرب جزيرة لبيدوما تبعد مسيرة ثلاثة أيام على البحيرة المكشوفة من مصب النهر فى الشمال الشرقى ، أى تسعين ميلاً ، وفقدت اثنتان من السفن أى اتصال بالأرض ، ومن خلال تلسكوب ضخم يمكن فقط رؤية مياه واسعة فى اتجاه الشمال أو الشرق .. وشعب بيدوما أناس مستقلون متوحشون يشنون حرباً ضد كل جيرانهم ، ويرسلون أساطيل من ستين أو مائة قارب ، ويقال إنهم كفار مرعبون .

والآن بدأنا رحلة العودة التى كانت مهمة شاقة حيث كنا نجدف ضد التيار ، وكنا نعتمد على المجداف من حين لآخر وكنا نحتمى فى إحدى الأراضى البارزة من الرياح والتيار ، وكان رجال شووى شديدى الحرص حتى أننا هبطنا عند منتصف الليل فى

مكان يسمى (بافالو بانك) Buffalo Bank أو شاطئ الجاموس ، وتحملنا يومين من الحر الحارق مع التعرض للشمس كما قاسينا ليلة من العذاب ورقابة الحشرات ، فضلاً على أننا عشنا فقط على القمح الهندى المغلى (المسلوق) فى القوارب أثناء النهار ، كما كنا نغوص بأقدامنا فى المياه لسحب القوارب .

وكانت الشواطئ هنا ولعدة أميال مغطاة بأشجار تحيط بها شجيرات مستقلة مكتملة الزهور بينما كانت الأبقار الوحشية والجاموس قد أقامت عرينها وسط الأشجار الكثيفة. وقد اقتحمنا جماعات من الجاموس عندما كنا نشق طريقنا للشاطئ ، بل واقترب فرس النهر منا لدرجة أنه كان يضرب فى المجاديف عند التقاء فرعى النهر ، وحيث كانت المياه عميقه جداً .

لقد كان الطريق المناسب لنا للذهاب إلى لوجون هو ذلك الطريق النهرى لكن مدينة جولفى تقع فى طريقنا وكان هذا مستحيلاً ، وسرنا بالقرب منه وذلك بالتحرك فى خط موازٍ لشواطئه.

وكما حدث من قبل رسينا ثانية وقمنا بزيارة منطقة تسمى دوجهيا (Dogheia) التى تبعد مسيرة يوم عن جولفى . وتعد هذه المنطقة قلعة يمر عليها الشيخ ورجاله فى حملاتهم ضد شعب باجرمى وهى فى موقع فريد بين جبلين كل منهما منحنى الشكل ، وعندما يكون النهر فى أقصى ارتفاع فيضانه تصل المياه إلى أقصاها والتى لا تزيد عن رقبة الرجل ولكنها الآن لاتزيد عن إبط الرجل العادى . وقد عبر المشاة بكل سهولة بعد أن وضعوا الحراب والدروع وأكياس القمح على رء وسهم . أما الفرسان فقد عبروا فى قوارب بينما سبحت الخيول فى الماء ، ويشبه النهر نهر شووى باستثناء وجود بعض الجزر الصغيرة ذات المناظر الجميلة والتى قضينا فى إحداها الليل وأسميناها رد هورن إيسل (جزيرة القرن الأحمر) (Red Horn Isle) وحيث اصطاد صديقى المسكين طائرا من هذا النوع .

وعدنا فى الثامن من فبراير إلى شووى ، وفى اليوم التالى واصلنا طريقنا عبر عدد من المدن المسورة القوية التى يمر عليها أهل باجرمى فى حملاتهم للسلب والنهب ، وارتفاع الأسوار حوالى خمسين قدماً وعليها أبراج مراقبة فى الزاويا المهمة حيث توجد حراسة دائمة .

ويعيش السلطان أيضا في قلعة ذات أسوار مزدوجة ، وثلاث بوابات ثقيلة في كل سور وكلها مدعمة بالحديد . ويقوم السلطان الحالي (بورجومند) (Borgomand) بإرسال هدايا إلى الماى دولدلما (Duldelmah) وسلطان وليجى (Willighi) وقد قام بأداء فريضة الحج ، ويكن لشيخ بورنو كل تقدير واحترام.

وقبل أن نصل إلى وليجى التى تبعد مسيرة يوم عن جولفى ، عبرنا مجرى جورديا Gurdya مرة ثانية وهو مجرى من شارى إلى البحيرة العظمى.

١٠ فبراير:

غادرنا وليجى بعد أن قدمنا للسلطان هدية عبارة عن سكينتين ومقصين وعمامة وقبعة حمراء ، وبعد ساعتين وصلنا إلى قلعة أخرى هى مافاتيا (Maffatia) ويعرف السكان المحليون هذه القلاع والتى يتم تأجيرها كمناطق إرشاد . وارتفاع المياه يصل إلى جسم الحصان ، وعبرنا فى هذا اليوم ثلاث مستنقعات فضلاً عن النهر حيث أخبرنا المرشد من وليجى بأنها تمتد إلى النهر ، وقد توقفنا ساعة تقريباً قبل أن نجد طريقاً لأن المياه وصلت إلى سروج الخيول.

وتصل القوارب من شووى إلى المناطق المجاورة ، وليجى بعد الفصل المطير ، وحيث توجد غابة وفيرة بالأخشاب التى يبنون منها القوارب والمجاديف.

ويجمع الأهالى فاكهة تسمى كاديلابو وهو نوع من أشجار الخروب ، وجلسنا تحت ظل شجرة جميلة الألوان ، وذات رائحة طيبة من الياسمين الأصفر الذى ينمو ويزحف حولها ، ومع هذا فإن الممرات عبر هذه الغابات رغم أنها مليئة بالزهور إلا أنها أيضاً مليئة بالأشجار الشوكية التى تمزق القمصان فضلاً عن جر الأحمال من على ظهر الجمال ، وقضينا اثنتى عشرة ساعة فى قطع مسافة لا تزيد عن اثنين وعشرين ميلاً .

وعندما وصلنا إلى قرية أفاديا كان رجالنا منهكين لدرجة أنهم لم يتمكنوا من طهى الأرز الذى معنا ، وأرسل القاضى إلينا الدقيق والعجين واللبن الرايب ، ووعد

بذبح شاة فى اليوم التالى إذا مكثنا عنده . ومع هذا غادرنا مبكرًا فى صباح اليوم التالى ، ووصلنا عند المساء إلى مكان يدعى كالا (Kala) وهى مجموعة من الأكواخ الصغيرة رغم أنها محاطة بسور وبها بوابات قوية .

فى اليوم الثانى عشر تحرك الركب ، وبعد أن عبرنا مستنقعًا طويلاً وعميقًا توقفنا عند الظهيرة فى مدينة تدعى ألف (Alph) وذلك لمدة ساعة أو ساعتين ، وهى تقع على قطعة من الأرض الصناعية المرتفعة وسط مستنقع يمتد أميالاً فى كل اتجاه ، وقمنا بصيد عدد من طيور الغرنوق وكانت إحداها بيضاء جميلة ذات منقار أصفر وعيون سوداء براقة ، والآن اقتربنا من كوسيرى (Kussery) ومرة ثانية وصلنا إلى شواطئ نهر شارى تاركين جولفى ناحية الشرق ، ومن النادر عبور هذا الطريق لأنه سلسلة متصلة من المستنقعات والبرك والمياه الراكدة التى تضم نباتات غير مفيدة فضلاً عن الذباب والنحل والباعوض والضفادع السوداء .

ولعدة أيام وأنا حزين لأننى وجدت عند صديقى أعراض الألم فى معدته والتى جعلته يرفض طعامنا المعتاد من الأسماك والفطائر ، ولكنه كان يتألم قليلاً ، وتمنيت أن يسترد عافيته بعد يومين فى كوسيرى التى تعد آخر مكان يختاره الإنسان للراحة والهدوء ، وخلال عدة ساعات بالنهار لم يتحرك السكان بسبب الذباب والنحل . آثار دهشتى تشكيل المنازل والتى تتكون من عدة خلايا تصل إلى خمس أو ست الواحدة داخل الآخرى ، وقد تم البناء بهذا الشكل كنوع من الوقاية من الحشرات ، لكننى لم أصدق كل هذا حتى وجدت أحد رجالنا المهمين وقد خرج وعاد وهو يعانى من المرض لمدة ثلاثة أيام .

إن كوسيرى مدينة ذات أسوار قوية يحكمها سلطان مستقل يدعى زرماوها (Zarmawha) والذى ثار على الشيخ مرتين . واضطر بلال أن يخلع قبعته الحمراء وعمامته ويدخل فى حضرة السلطان وهو عارى الرأس والقدمين ، وهو احتفال تم الاستغناء عنه فى رحلتنا السابقة ونظر السلطان إلينا فقط من خلال تعريشة من البامبو وتساءل على وجه الخصوص عن سبب الالتفات إليه عندما جلست . وأجبت بالطبع أن لف ظهرى تعد فى بلدى تحديًا جسيمًا ، وهذا ماجعله يضحك من أعماق

قلبه وكان معنا خطاب مفصل من الشيخ لهذا الأمير. لكنه لم يهتم به كثيراً وربما لم يحترم حامله بلال كثيراً ، أما بالنسبة لى فقد كنت منتبهًا ، وحصلنا على عشرة أطباق من السمك والخبز التى أدخلت السرور على الخدم ، وأقام أحد رجاله بين خيامنا .

وكان السمك سيء المذاق وغير محبب لأحاسيسنا رغم أن الأهالى يفضلونه، ومع ذلك فإن مسئولاً وجد أننى لم ألمس هذه الوجبة ، فأسرع وأحضر كمية من السمك الطازج مع إناء من اللبن، ونادراً ما يعرفون الملح وبالتالى لم يستخدمونه فى أى من أكلاتهم وكان السكان يطلبون بعضا من الكمية القليلة التى كنت قد أحضرتها ، وكانوا يضعونها فى أفواههم ويمتصونها بكل سرور مثل السكر .

فى الصباح قدمت للسلطان لفة من الخرز ومقصين وسكينًا وعمامة وقال " كنا شعبًا عظيمًا من سلالة السلاطين ، وكنا نحقق الثروات لكل مناطق نفوذنا " ولا أستطيع أن أحذف الإشارة إلى زيارة تلقيتها من أخت السلطان وكانت مطلقة لفترة من الزمان من زوجها الذى كان قد ذهب إلى بجهارمس (Begharmis) ، وفى الساعة العاشرة مساء أعلن المسئول عن حضورها ، وكان يرافقها ثلاثة من الرجال الذين انتظروها عند المدخل، بينما دخلت وجلست بالقرب من الحصير الذى أرقد عليه وكانت تتحدث بلهجة سريعة فى شكل همس ، كانت تشير إلى صديقى الذى يرقد فى الطرف الآخر من الكوخ ، ولم تكن ترغب فى أى رد عليها. وبعد أن مكثت معنا حوالى نصف ساعة ، كانت تدلك يدى بشكل متكرر بعد أن خلعت قبعتى وعمامتى ثم غادرت وكنا سعداء بزيارتها .

والنهر هنا واسع والمجرى جميل والأسوار تمتد إلى الشواطئ ، وتوجد بوابتان على الماء ومررت من إحدى هاتين البوابتين عند غروب الشمس وقد هالنى جمال المناظر الطبيعية، وأحد قوارب الصيد العائد نحو لوجون ، وينساب التيار نحو الجنوب الغربى ثم إلى الجنوب ، ويقال إن لوجون تبعد ثلاثين ميلاً من النهر ، وأعلن صديقى أنه من المستحيل أن نبقى هنا ، وبالتالى تحركنا فى صباح اليوم التالى إلى لوجون ، وتقدمنا أميالاً قليلة ، وازدادت آلام السيد تول (Tool) وأغمى عليه مرتين ورفعناه من على ظهر حصانه مثل الطفل ، وصار عاجزاً تمامًا . ومما زاد الطين بلة أنه منذ ذلك الوقت

وحتى السادس عشر رفض العرب « الشوا » الذين يحتلون منطقة لوجون السماح لنا بالمرور إلا بعد استشارة السلطان، التى تدور حول الغرض من زيارتنا .

إننا قرب النهر الآن ، ورغم الحرارة الشديدة فإن الوسيلة الوحيدة لحماية أنفسنا من هذه الحشرات التى بلغت الملايين والتى تؤلمنا وتضايقنا جداً هو إشعال النيران فى مدخل الخيام مع تزويدها دائمًا بالأعشاب والقش المبتل ، وكان الدخان الكثيف المتصاعد من هذه النيران يعطينا راحة مؤقتة من هذه الحشرات ، وركبت سائراً مع مجرى النهر الذى ينساب برقة وجمال ومررت على الأسوار العالية للعاصمة لوجون ، وكان التيار يندفع مباشرة من الجنوب الغربى بسرعة فائقة ، ودخلنا المدينة من البوابة الغربية التى أوصلتنا إلى الشارع الرئيسى الذى يشبه فى عرضه شارع بول مال Pall Mall ويضم مساكن واسعة على جانبيه بنيت بتنسيق عظيم ، ولكل مبنى حوش وفناء أمامه يحيط به أسوار ، ومدخل جميل له بوابة من الحديد القوى ، وكان عدد من السكان قد جلسوا أمام الأبواب ليشاهدوننا عند الدخول وحولهم الرقيق وفى البداية لم يهتموا بنا كثيراً لأن منظرنا لم يكن مؤثراً حيث كان أحدنا يرقد على جمل والآخر يستند على حصانه ومعه شخصان يعاونانه من الجانبين بينما نعانى بشدة من عنف الحمى ، وأخيراً تقدم شخص مهم نحو حصانى وانحنى إلى أسفل ، وضم يديه (وهذه أول تحية أجدها على هذا النحو) وخلفه العبيد الذين انحنوا بدرجة أكثر منه .

وبعد أن شرح لنا أنه مندوب السلطان للترحيب بالرجل الأبيض ، وكرر مراراً أنه صديق لى ، تقدم أمامنا وتحركنا خلفه ، وكلما مررنا على تجمع من الناس قاموا واقفين وتقدموا نحونا وأدوا التحية بنفس الطريقة التى وصفتها من قبل ، وأخيراً وصلنا إلى مقر سكنه الذى تكون من أربعة أكواخ منفصلة ، جيدة البناء داخل سور خارجى مع مدخل واسع ، وصالة كبرى للخدم ، وفى هذا المكان الهادئ فرشت الحصير والوسادة للمريض الذى كان فى حالة سيئة من القلق والتعب .

وفى صباح اليوم التالى أرسلوا إلىَّ للمثول أمام السلطان ، وتقدم أمامى عشرة من الزنوج الضخام الجسم من أصل رفيع معظمهم ذو لحية بيضاء ورؤوسهم عارية حاملين صولجانات طويلة وسرنا فى الشوارع وتم استقبالى بحفاوة بالغة وبعد أن

مررنا عبر عدة حجرات مظلمة وصلت إلى فناء واسع تجمع فيه بعض المئات من الأشخاص وقد جلس الجميع على الأرض وتركوا مكانًا خاليًا فى الوسط حيث أشاروا على بهذا المكان وطلبوا أيضا الجلوس وكان هناك شخصان يرتديان أثوابًا قطنية ذات خطوط مستقيمة ويحملون مراوح يلوحون بها فى الهواء حيث يجلس السلطان ، وبعد صدور إشارة أزاحوا هذا الظل وظهر شيء حي على السجادة ملفوف بأثواب من الحرير والرأس مغطاة بالشال ولم يظهر شيء سوى العينين ، وقام كل الحاضرين بصب الرمل على رؤوسهم، وعزف ثمانية منهم على النفير وبصوت عالٍ للتحية.

لقد كانت هديتى عبارة عن برنس أحمر، وقفطان من القطن المشجر وسكينتين وزوجين من المقصات وبنطلون أحمر اللون، وقمت بوضع كل هذا أمامه ، ومرة ثانية همس بعبارة الترحيب لأنه حسب التقاليد فى لوجون فإن من يتحدث بصوت مرتفع يكون عديم التربية لدرجة أنك تفهم ما يقولون بصعوبة بالغة.

وقام بفحص شامل لى عندما اختفى الظل مرة ثانية وطلبت منه السماح للإبحار فى نهر شارى ، وقال إنه سوف يدرس الأمر، وسأل بشكل خاص عما إذا كنت أرغب فى شراء الرقيق من النساء الجميلات، وأكدت له أننى لا أرغب فى ذلك، وقال " لأنك إذا أرت الشراء فلا داعي للذهاب لأبعد من ذلك، إننى أمتلك المئات منهن وسوف أبيع لك بأرخص سعر " .

وتعتبر لوجون عاصمة هذه الدولة (كيرنوك) وهى تقع على شواطئ نهر شارى وتقع على خط عرض ١١,٧ شمال خط الاستواء وهى مدينة كثيفة السكان، وتضم دولة كيرنوك خمسة عشر ألف نسمة على الأقل، يتحدث سكانها لغة تشبه لغة الباجرمى. ويحيط الشوا بها من كل جانب وهم الذين يزودون الدولة بالكثير من اللبن والثيران والدهون التى تعج بها الأسواق ويتم شراء هذه السلع بعملة من القماش وشرائح من القطن الأزرق والتى يصنعها شعب لوجون ويصبغونها بألوان زاهية، كما أن لديهم أيضًا عملة معدنية وهى أول عملة أشهدها فى أرض الزنوج، وتتكون من شرائح رفيعة من المعدن بشكل يشبه حدوة الحصان وهذه تصنع فى مجموعات عشرة أو اثنتى عشرة قطعة حسب الوزن، وتساوى الثلاثون منها قيمة عشرة أرطال أو دولارًا واحدًا .

ومع كل هذا فإن سوق المال فى لوجون يخضع للتقلبات حسب هذه الوسيلة للتداول ويتم ذلك بإعلان فى بداية السوق أسبوعيا كل يوم أربعاء، ويتم المضاربات التجارية بالثيران والدبية حسب ارتفاع سعرها أو انخفاضه، وقبل أن يتسلم السلطان الجزية أو الضرائب والرسوم على الثيران أو النيلة يقوم رئيس وزرائه عمومًا بإعلان أدنى سعر للباره بينما يكون العكس عندما يحتاج سلعة لمنزله وقبل الأعياد تزداد أسعار العملة بشكل مختلف، كما أن إعلان قيمة العملة يحدث إضرابًا عامًا حيث يخسر البعض ويكسب البعض الآخر بسبب هذه الفروق.

وشعب لوجون ألطف من شعب بورنو ، بل وأكثر ذكاء خاصة النساء منهم، وهم يتمتعون بحسن الخلق أكثر من أى دولة زنجية شاهدتها، وقد زارنى نساء الشخصيات الهامة فى الدولة وكل واحدة يصحبها واحدة أو أكثر من الجوارى، وكانت النساء تفحص حتى جيوب بنطلونى .

وكن من أكثر النساء حبا للاستطلاع من أى دولة أخرى وكن يشحذن كل شيء بل وحاولن سرقة أى شيء وعندما يتم اكتشاف ذلك كن يضحكن من أعماق قلوبهن ويقمن بضم أيديهن سويا ويتعجبن " إنه رجل قاسٍ .. فظ، لماذا أمسك بنا " وإذا قلت لهن إنهن يتفوقن على أصدقائى من بورنو كن يشعرن بالتواضع ، وهن مغرمات بالقرنفل الذى يخلط بالدهون ، ويحككن ويدهن به شعورهن وجلدهن ، إنهن أذكى جنس قابلته فى بلاد السودان فضلا عن أخلاقهن .

وفى اليوم التالى لم أكن أكثر دهشة عندما سمعت بوجود سلطانين : الأب والابن وكل منهما على رأس مجموعة قوية ، وكلاهما يخشى الآخر ويكرهه لدرجة أننى رأيت أنه من الضرورى تمامًا أن أقدم للأكبر نفس ما قدمته للأصغر واعترضت لكن بلال أكد لى أن عبيده من أمهر اللصوص فى المملكة وأكثرهم خبرة ، ولا يوجد سور يقف أمامهم إذا أعطاهم السلطان أمرًا بالنهب ولم أجد بديلاً سوى أن وضعت الدولارات العشرة التى معى فى الجوارب وربطتها فى منديل من الحرير الفرنسى مع عقدين من المرجان وبعض القرنفل مع الزراير التى قدمتها إليه، وكنت سعيداً لسماع أنه مسرور بهذه الهدية ... ومن الأمور السيئة بين هذين السلطانين رغم تقاربهما أننى عندى أدلة كافية على طلب كل منهما السم سراً وليس هذا كذباً إذا استخدمت تعبيراتهما .

أرسل السلطان الصغير ، كما يسمونه ، ثلاث جوارٍ تحت سن الخامسة عشرة كنوع من الإغراء لي لكنني أعدتهن شارحًا له شروطي اللطيفة بأننا نكره هذه الإجراءات وأن كل الناس من بني وطني يعتبرون هذه حماقة مئات المرات إذا فعلنا ذلك .

في اليوم التاسع عشر أصبح زميلي أحسن حالاً حيث نام وشعر بالهدوء مما جعلني أتركه في الصباح حتى أستطيع التقدم إلى أعلى النهر على أن أعود في اليوم التالي أو اليوم الذي يليه . وينحدر نهر شارى ناحية الجنوب بعد أن يمر على مدينة كوسيرى ، وعلى قمته تقع العاصمة لوجون ولم يزد عرض النهر عن ٤٠٠ ياردة ، وتختلف القوارب هنا عما هو موجود في شووى ويبلغ طولها حوالي خمسين قدمًا وتستطيع حمل مابين عشرين و خمسة وعشرين شخصًا وهي مصنوعة من نوعين من الخشب الجيد تسمى كاجام (Kagam) وبيرجام (Birgam) والتي تنمو بشكل وفير على طول شواطئ النهر من مدينة وليجى حتى لوجون، وكان عرض الألواح ما بين اثنين وثلاثة أقدام .

وعند الظهر كنا قد صعدنا عدة أميال لكن وجدنا أحد القوارب يتعقب طريقنا بسرعة تدل على أن شيئًا غير عادى قد حدث ، وعندما وصل إلينا أفاد أنه بسبب هذه السرعة حدث ارتباك بين مجموعتنا لدرجة أنه لم يبق معنا أى قارب من السبعة حيث اتجه الجميع إلى الشاطئ، وبصعوبة بالغة أمكن شق طريق عودتنا إلى لوجون .

وعندما علم السلطان بعودتنا أرسل إلينا ، وطلب من رجال الشيخ أن يغادروا مناطق نفوذه فوراً ، وأخبرته بأننى أتيت لكى أظل لبعض الوقت ، وأنه يمكن لبلال أن يعود ، وأما بالنسبة لى فإننى أحد رعاياه ، ويجب أن أظل تحت حمايته، إضافة إلى أن معي صديق مريض، وخادم مريض أيضا وأننى لا أستطيع أن أتحرك . لكنه لم يسمح بذلك ، وطلب من بلال أن يغادر متجها إلى لوجون وأن يأخذنا جميعا معه، وقال السلطان "إن أكثر من نصف شعبى من الباجرمى " وليس عندى أيه حماية أعطيها اذهبوا... اذهبوا بقدر ما تستطيعون" وحيث إننى مضطر إلى طاعة الأوامر، فقد حملت صديقى المريض العاجز عن القيام بأى شيء بنفسه ، ووضعناه على الحصان

وبدون أى مؤن سوى كيس من القمح المطحون الذى أعطاه السلطان إلينا، وفى الساعة الرابعة من نفس اليوم تركنا الأسوار وأغلقوا البوابات الثلاث خلفنا الواحدة تلو الأخرى وهم فى غاية الارتياح من هذه المجموعة المختلفة من الناس.

وفى فترة متأخرة من الليل توقفنا بالقرب من بعض حظائر الماشية المهجورة التى تخص عرب الشوا الذين تركوها وهربوا، وفى إحدى هذه الحظائر وضعنا رفيقنا المريض بينما واصلت الحراسة من الخارج . ومنذ هذا الوقت وحتى ليلة الحادى والعشرين وصلنا إلى قرية صغيرة تسمى تيلى (Tilley) والتى تقع على شواطئ نهر جمبالاروم (Gambalarum) وحتى تلك اللحظة لم نذق طعم الراحة سوى القليل من الطعام . وازداد قلق بلال ورفاقه ، وركبت معه وكان هو فى المقدمة بقصد أن يظل هو فى مدى البصر بينما تركت السيد تول تحت مسؤلية كولبس والذى كان قد شفى تماما لكى يتولى تلبية طلباته. ومع ذلك فإنه من حين لآخر .كنت أذهب بنفسى إلى الخلف لأحثهم على السير بأقصى سرعة ممكنة لقد حل الظلام لمدة أربع ساعات، وكان الطريق ملتويًا كثيف الأشجار ومعقداً ، وتقدم بلال للبحث عن الطعام استعداداً لعبور المجرى ، ولكننى اعترضت على هذا حتى يصل رفاقنا وأمتعتنا لأننى أعلم أن القيام بذلك يتوقف على حالة المريض ، واعترض كثيراً لكنى نزلت من على الحصان وبدأت جمع الخشب لإشعال النار لإعطاء إشارة وعندئذ تخلى عن رأيه وردوا فى الحال على النار المتوهجة والدخان المتصاعد وذلك بإطلاق (الرصاص) من البندقية ، وتقدمت فى اتجاة الصوت وذلك لإرشادهم إلى النقطة التى استرحنا فيها ، وكان من الضرورى إطلاق طلقتين أو ثلاث قبل أن نلتقى لأن الممرات كانت ملتوية ووجدت السيد تول فاقد الوعى تماما فوضعناه على سرير من نبات النيلة غير ناضج بالقرب من النار التى أوقدناها، وقمنا بلفه فى البطانية، وأعددنا له كوبًا من الشاى الدافئ ، وبعدها راح فى نوم عميق ، واقترح بلال البحث عن مكان يسهل الخوض منه، وسمحت له بالقيام بذلك ، وصممت على عدم إزعاج رفيقى حتى الصباح إلا إذا زاد خطر موقفنا ، ولكنه عاد بسرعة بعد منتصف الليل وأعلن أن النهر ليس سهل الخوض سواء قبل المدينة أو بعدها ، وعلى هذا كنا مضطرين أن نحمل أمتعتنا ونتقدم إلى طريق ناحية الشمال حيث يشتد الخطر ضدنا.

أحسّ رفيقي بنفسه بفارغ الصبر ، وزرف بلال الدموع عندما لاحظ التغير الحزين الذى تركه المرض على رفيقي البسيط والأكثر حيويه لأن بلال رجل شجاع وطيب القلب كما دلت الكثير من المواقف على ذلك وأعلن أن قلقه علينا أكثرمن نفسه لأنه لن يشهد وجه الشيخ ولا حتى مدينة كوكا إذا أصابنا أى شيء . وعبرنا أسوار أفـــاديا (Affadia) بعد طول النهار وهناك كان الناس يتفرقون فى كل الاتجاهات ، واسترحنا الليله فى مدينة يورن Yrun بعد أن أمنًا جانب النهر عند سولون Solon وهنا قرر السكان بناء موقع ، وتم بناء ثلاثة بوابات بينما تركنا للرابعة مساحة تسمح بمرور رجل واحد من خلالها ، وأرسل القاضى إلينا لكى يدعونا للبقاء ، وزودنا باللبن واللحم الطازج ، وقمح لكى تأكل الحيوانات الجائعة جدا .

ونصبنا خيمة فوق السيد تول حيث رقد على الأرض، وقدمنا إليه الشاى والأرز مرتين بالليل ولدهشتى التى لاتوصف راح فى نوم عميق.

وصلنا إلى أنجالا (Angala) فى اليوم التالى وهى مكان أكثر أمانًا وحيث تأكدنا من وجود حماية لنا، وأثناء عبورنا على السهل الذى يوصل إلى هناك شاهدنا نوعًا من الظباء له قرون طويلة مثل الغزال الأحمر ، وفى أنجالا اتخذنا مقرنا القديم فى منزل رئيس الوزراء ، وعندما أخبرناه عن مكان السيد تول صاح متعجبًا "شكرا لله، وعندئذ لن أموت" وتحسنت حالته طوال يومين بعد ذلك لدرجة أن آمالاً كبيرة فى شفائه قد ظهرت، وعند الساعة الرابعة رغم هذا فى صباح السادس والعشرين من فبراير تحطمت كل هذه الآمال حيث أصيب برعشة برد وصارت أطرافه مثل الثلج ، وقدمت له الشاى وماء الأرز لكن لم يحدث سوى تحسن طفيف حتى قبيل الظهر عندما انتهى دون مقاومة، وفارق الحياة . وفى نفس اليوم التالى بعد الظهيرة وقبل غروب الشمس ، جمعت جثته وكل متعلقاته إلى آخر مكان راحته حيث مقبرة عميقة أعدها ستة من عبيد السلطان تحت إشرافى فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة وعلقنا عليه مجموعة من الأشجار مكتملة الزهور ، وحضر رئيس الوزراء مراسم الدفن مع مجموعة من رجاله ، الذين صلوا بصمت على روح صديقى الراحل وهى جنازة لم أشهد مثلها من قبل ، وبعد أن وضعنا مجموعة من الأشواك والفروع على المقبرة فى هذه المناطق ، عدت بعد ذلك إلى المدينة .

وطوال حياتي شاهدت الكثير من أصدقائي الذين يدينون كثيراً للطبيعة وكان موتهم بسبب المعارك والجروح التي يصابون بها لكن حالة صديقي العزيز الذي عانى كثيراً ، تركت ذكريات تفوق موت كل زملائي السابقين ولم أكن أنا الوحيد الذي واسيته ، بل كانت معارفه كثيرة وأخلاقه حميدة لدرجة أن أقاربه حزنوا عليه كثيراً.

إن السيد تول يمتلك خصالاً جعلته نافعا في مهمة مثل هذه ، لقد كان شخصية جذابة ومرحه وطيب القلب ولم يعلن سوى مرة واحدة رفضه للتقدم إلى الأمام ورفض ربطه على الجمل ، لكن عندما جلست على الأرض بجواره ، واستعد بلال ورجال الشيخ للرحيل صاح قائلاً "لا....لا.. تتركوني .. اربطوني مرة ثانية لكن ادعوا لي بلطف ، لن تتركوني وحدي ، وسوف أكون أنا سبب الوقوع في خطر غير ضروري.

ولو كان استعداده لتقديم خدماته لحكومة مالطه (Malta) وليلتحق بي في بورنو فإن هذا يعطيه حق المدح ، كما أن طريقته في القيام بالرحلة من طرابلس أعطته أيضا قدرا من العظمة ، وإذا أضفنا تأخيره مرات عديدة ، فقد وصل إلى كوكا في مائة يوم وثمانية ، وإذا وضعنا في الاعتبار الناس الذين يتعامل معهم فإن هذا يتطلب جهوداً خارقة ومزاجاً كبيراً وقوة إرادة ، ورغم الرحلة التي قام بها عدا الإبل التي ماتت في هذه الرحلة الطويلة التي كانت منذ بدايتها قاسية جدا ، ورغم أنه قوي البنية لكنه لم يستطع مقاومة المتاعب التي تعرض لها .

إن السيد تول لم يكمل بعد عامه الثاني والعشرين ، وكان ضابطًا محبوبًا وشابًا واعدا بكل معنى الكلمة ، وقد استسلم لمصيره ، وفي اليوم السابق لوفاته عندما ذكرت له رحلته إلى كوكا ، ابتسم ، وهز رأسه وقال "لا..لا، لقد انتهى كل شيء " وكانت كلماته الأخيرة معبرة عن آمال ، حسب توصيات السيد تورست ، فإن أخاه سوف يحققها ، وما إن عرض هذا الطلب حتى وجد استجابة فورية.

لقد كانت العودة إلى كوكا بعد وفاة رفيقي الخطوة الأكثر إلحاحًا ، وفي مساء اليوم التالي غادرت أنجالا بصحبة بلال ، لقد كان شعب باجرمي يتجول في المكان في كل اتجاه ورغم هذا فقد وصلنا إلى أنجورنو في الأول من مارس بعد فقدان اثنين من الإبل ، وهنا قابلت الشيخ بقوة ضخمة كان قد جمعها بسرعة لأجل مهاجمة هؤلاء

الغزاة ، وكعادته كان رحيماً ، وأرسل توصية إلى الشخص الذى تركه ليتولى مسؤليتنا فى كوكا لكى يقدم إلينا كل مانطلبه ، وكان الشعب كله فى حالة من الذعر ، ويشك فى نتيجة الاشتباك القادم .

وفى الثانى من مارس عدت إلى كوكا ، وفى اليوم التالى أصبت بالحمى ورغم أنها كانت بسيطة إلا أنها أقعدتنى عشرة أيام على الحصير. وكان مرضى نتيجة للمناخ وقلة الراحة والتعب والحرارة ، واضطراب الذهن الذى نجم عن المرض الذى شفيت منه بسرعة ، وكان الألم الأكبر فى عيونى .

رغم أن النجاح لم يحالف محاولاتى فى هذه الحالة إلا أن الرحلة كانت لها فوائدها ، وازدادت معلوماتنا عن الدولة وشعبها بشكل معقول ، كما أن الحى الذى اخترقناه لم تعبره أى قافلة ولم يحضره التجار المغاربة المتجولون ، وفى الحقيقة كانت الخيانة سمة هذا الشعب ، وكان فشل محاولة الصعود مع المجرى من لوجوم عملية أندم عليها ، لكن أكد التقرير الذى سمعت عنه من قبل عن الفرع الجنوبى لنهر شارى وامتداده نحو منطقة جبلية شرقًا الكثير من الحقائق فى ذهنى ولو لم تكن الأحداث تفوق طاقة الإقامة البشرية لفترة قصيرة فى لوجون ، فإننى وجدت أن هذا المجرى يمتد إلى أدماوا (Admawa) ومنها إلى بحيرة فيتر (Fittre).

وتعد لوجون نفسها مكانًا صحيًا أكثر من أى جزء على شواطئ نهر شارى ، وتوجد أشجار المانجو وجوز الهند والبصل بكثرة إضافة إلى العسل والزبد اللبن واللحوم المجففة وينعقد السوق كل مساء حيث يتم شراء السمك واللحم بكميات كبيرة ، والملح نادر جدا ولا حاجة للطلب عليه ، وأحيانًا يستخدمون الشطه كبديل رغم أنها شديدة الحرارة وذات رائحة كريهة ، وتتعدد الأشجار وهى أضخم من الأشجار فى بورنو رغم أن معظمها من أشجار الأكاسيا كما أن أشجار الخروب بثمارها الحمراء أكثر وفرة إذا استثنيا الكوكا التى لم أشهد ثمارها.

وسكان لوجون من الرجال والنساء أذكياء ويعملون بهمة ونشاط أكثر من أى سكان فى مناطق نفوذ الشيخ ويضم كل بيت آلته الخاصة فى النسيج حيث يتم صنع أدق وأنقى الخيوط من الصوف ، ويختلف العرض بسيطًا عن قماش بورنو ولا يزيد عن

ست أو سبع بوصات ، وشاهدت خمسة أنوال تعمل فى أحد المنازل، ويقوم بالعمل الرجال الأحرار بينما تجهز البنات الجوارى القطن ، وتصبغه باللون الأزرق الغامق وهم يقدرونه تماما لأنه مصبوغ بالنيله كما أن صناعة الزجاج تعد من أهم الصناعات عندهم ، كما أن الصوف قبل صباغته يصنع أثوابًا أو قمصانًا واسعة أو فى قماش يبلغ طوله حوالى خمسة عشر ياردة ، ويوضع على جنوع الأشجار الضخمة ، ويتم طرقه بقطعة خشبية يطرقه بها العمال طوال اليوم .

لقد اعتمدت سياسة لوجون على الحيادية خلال كل سنوات الحرب التى خلفت الدمار فى بورنو ، وقد ضحت لوجون كثيراً للحفاظ على كيانها ، وكان السلام هو المكسب ، ولو أن الشيخ الكانيمى حقق الهدوء والثقة فى هذه المناطق التى توجد على حدود طرق القوافل ، فإن لوجون تصبح مكانًا مفيداً وملاذا للتجار ويصبح الناس تابعين لمن يستطع كسب السيطرة عليهم ، وفى هذه الحالة يحافظون على الدين الإسلامى كما يحافظ عليه ، وتتوافر الماشية والحيوانات البرية من كل نوع فى هذه الأقاليم المحيطة أكثر من أى مكان فى القارة الأفريقية. وهم جنس لطيف ، حسن المظهر ويتمتعون بصحة جيدة وفى المناطق المجاورة للنهر العظيم تتمتع بعض المدن بجو صحى خاصة فى شووى ، حيث نجد ضفاف النهر مرتفعة ومن النادر أن تفيض المياه ، ويسير المجرى بقوة عظيمة فى الجوانب العمودية فيما أسميته بافالوبنك (Buffalo Bank) (شاطئ الجاموس) حيث المياه العميقة والقاع من الرمل الثابت.

وعند مدينة كوسيرى يقال إن الجو غير صحى بسبب طبيعة المستنقعات فى المناطق المحيطة بها ، والتواء النهر الذى يسبب تياراً ضحلاً وأرضا ذات مستنقعات منخفضة ، وأيضاً فإن فيضان المجارى الصغيرة يجعل البحيرات راكدة لعدة أميال وهذا مايجعلها تمتلئ بالأعشاب غير المفيدة ، والغابات لاتزال دون إزالة وهذا يجعل قوة الرياح ذات قوة محدودة، كما أن جماعات الحشرات والذباب تجعل السكان على شواطئ النهر يشكون أكثر من أى مكان آخر من الحرارة والمناخ ، وأحيانًا تتأثر الدواجن بهذا الجو ويموت الدجاج والكتاكيت فور خروجها من قشرة البيض ، كما يقول أحد الرؤساء بالقرب من كوسيرى إنه فقد اثنين من أبنائه نتيجة اللدغ من الحشرات التى أدت إلى الوفاة ، كما أن ملاحظاتنا وآلامنا لا تعد مبالغة .

الفصل السابع

رحلة إلى الشواطئ الشرقية لبحيرة تشاد

٧ مارس ١٨٤٢ :

عادالرسول الذى أرسلته إلى كانو ومعه كمية من الأشياء الضرورية إلى بنى وطنى ، وعند وصول السيد أودنى عاد إلى كوكا حاملاً تقريراً كان قد وصل لى من قبل عن موت الدكتور تول فى مكان يسمى ميرمور (Murmur) بالقرب من كاتاجم فى الثانى عشر من يناير .

وتركت الشيخ وهو فى كامل الاستعداد لطرد أهل باجرمى ، كان قد اتخذ مركزاً له فى (أنجالا) على بعد خمسة أميال من العدو الذى بدأ نهب المؤخرة ، كان يحمل كل شىء يمكن جمعه إلى الجانب الجنوبى من النهر ويقال إن قواتهم تزداد يوميًا ، وكان الخوف من الناس هنا وفى (أنجورنو) خشية أن ينتصرالعدو . وفى المساء عاد رجل كنا قد تركناه واعتبرناه فى عداد الأموات فى الحملة السابقة ولكنه عاد إلى موسجو، وهذا ماجعل زوجاته وخدمه فى حالة من الصراخ ، بل وصلوا إلى حالة من الجنون ، بل وكانت كل المدينة فى حالة الفوضى فضلاً عن صرخات العدو والتى كان يرددها ألف صوت.

وعند الغسق تمامًا سقطت من أيدى الزنجى كمية الأرز واللحم الذى كنا ننوى تناوله لوجبة العشاء ، وقد عاد مهرولا ومعه بندقيتة ، وكنا جميعًا ولمدة دقائق فى حالة سيئة وعندما تأكدنا من أسباب هذه الفوضى ، وهدأت الأعصاب قليلاً ، بدأنا

نفكر فى الأرز والقرود والطاوس ، وكلاب الصيد ، ووسط هذه الفوضى أوينا إلى الفراش دون تناول العشاء.

وتمكنا من تجهيز سبعة بنادق وثلاثة أزواج من المسدسات بالبارود ، وحيث إن أكواخنا كانت داخل منطقة مسورة ، لذا قررنا الدفاع عن أنفسنا حتى الرمق الأخير ، وما أن عرف الناس نوايانا وإصرارنا حتى أرسلت كل زوجات رؤساء الشيوخ واللاتى ارتبطت بهن بصداقة حميمة وقلن إنهن سوف يلجأن لى لحمايتهن إذا قدم سكان باجرمى لأننى أمتلك البنادق والبارود الذى يتوافر عندى بكثرة خاصة أن الشيخ يمتلك جيشًا من الجنسين فضلاً عن النساء فهن يحاربن مثل أزواجهن تمامًا داخل جيش قوى .

وجاء العدو عدة مرات وحاول إدخال الشيخ إلى ساحة المعركة لكنه نظرًا لأنه لا يستطيع مواجهة الموقف فقد رفض الدخول فى مواجهة ما .

ومع ذلك ففى الثامن والعشرين بدأت الحرب ، وأظهر الباجرميون شجاعة فائقة إذا ما وضعنا فى الاعتبار عدم استعداد الشيخ للحرب ، وأخيرًا خاطروا بالهجوم فى السهل الذى يقع فى الجنوب الشرقى لمدينة أنجالا وعلى الحافة التى كان قد استقر عندها وقد حرمت القافلة المتجهة إلى السودان الشيخ من الاستفادة من ثلاثين من رجاله العرب على الأقل ، وأما البقية التى ظلت معه مع حوالى أربعين من العبيد فكان تدريبهم على إطلاق النار وهم القوة التى يعتمد عليها ، ولذا فإنه وضعهم مع صفوفه ، وما أن أزال سكان باجرمى الغابة حتى رفع الشيخ علمه الأخضر فى الوسط وأحاطه برجال الحراب من الكانمبو وتحرك إلى هذا المكان بسرعة وتقدم (هيلمان) ومعه بندقيته وعلى يمينه العرب ، وجاء أهل باجرمى بأعداد ضخمة وصلت إلى خمسة آلاف من الرجال الأقوياء ومعهم مائتين من الرؤساء فى المقدمة ، وتوجه الجميع إلى وسط المعركة حيث رفع الشيخ شعار الدعوة المحمدية لكن لقى هجومًا من مدفعية العدو الذى هجم على جماعة (باركاجانا) بكل شجاعة واستسلم الجميع عدا فرقته المختارة، وهنا سقط صديقى (مارامى) أثناء عملية سحب حربته من جسد أحد رؤسائهم، ولقى ضربة اخترقت جسدة ، أما حصان البورنبين الذى ينشط فى مثل هذه المناسبات

عندما يجد الطريق مفتوحًا أمامه فقد واصل المقاومة ضد أهل باجرمى، وامتطى العرب جيادهم. وانضموا إليهم ولم ينجو من مائتى رئيس من باجرمى سوى رئيس واحد هرب حيًا، وقد مات سبعة من أبناء السلطان فضلاً عن ألف وسبعمائة من الرجال بينما تعرض للموت أعداد كبيرة من سكان المدن الذين هربوا وصاروا جميعًا من أتباع الشيخ المخلصين ، على أن مياه مجرى نهر جمبالاروم Gambalarum أسدت للشيخ خدمة فى هذه المعركة حيث غرق الكثيرون عند محاولة عبور النهر . وترك الرؤساء الفرسان ودروعهم عند وصولهم للنهر ، واندفعوا داخل المياه ، وهنا كانت كل حراب الكانمبو مدمرة ، حيث تابعوا العدو عن قرب وهم عرايا وبكل نشاط وهمة ويقال إن هذا المجرى قد صار أحمر اللون من كثرة الدماء . "حقًا إن...البنادق...مدهشة حقًا " كانت هذه الصيحة فى فم كل شخص ومع ذلك فإن صديقى الشيخ اعتقد أن هناك الكثير من الواجب القيام به فى اليوم التالى وقال " حقًا إن البنادق مدهشة حقًا " ولكنى رفعت يداى وقلت سيدى أبو سالم ، سيدى عبد القادر ومن هذه اللحظة صار النصر حليفنا، ويقال إنه فى يوم المعركة ظهر الشيخ على أبواب خيمته ومعه البندقية الإنجليزية ذات الماسورتين وسيفه الإنجليزى الذى تدلى من كتفيه ، وقد ارتدى ثيابًا من القماش البسيط ، وتقدم على رأس جيشه من الكانمبو وتوقع أن يسير خلفه كل العرب ، وشجع العبيد الذين لازالو حديثى العهد فى استخدام الأسلحة النارية وإذا سمح الله للعدو بأن ينتصر فإنه لامجال للهرب وليس أمامهم أى شىء سوى الموت أمام أطفالهم وزوجاتهم، ومن ثم يصبح الهرب أمرًا مخزيًا .

٤ أبريل :

لا شىء يفوق متعة وسرور الناس عند تحقيق النصر حيث تجول الرجال طوال اليوم وهم يرتدون أفضل الثياب ورقصت النساء ، وهن يغنين بعد قرع الطبول طوال الليل احتشد الناس فى كوخى وازداد الزوار كل على طريقته وكانوا يصافحون أصدقاءهم ويطلبون الهدايا عند عودتهم ويهنئون أهل باجرمى والكل ينطق بنفس الأسلوب وأجريت لقاءً خاصًا مع الشيخ ، وقدمت إليه خالص التهانى، وكالعادة كان

كريماً وودوداً ، وتحدث كثيرا عن طريقة تسليم الكفار إليه ، وقدم مواساته ومشاعره الحزينة لموت صديقى السيد تول الذى كان يكن له كل التقدير ، وسأل عما إذا كان أبوه وأمه على قيد الحياة ، ثم التفت إلى تيراب Tirab الذى كان بالقرب منه وقال كيف يمكن إرساله بعيداً جداً ويقال إن السلب وصل إلى أربعمائة وثمانين حصانًا وحوالى مائتى امرأه واثنين من الأقزام، فضلا عن أمتعه الأمراء التى تم حملها على ظهور الثيران والحمير ، وتم أخذ خمسين امرأة كأسرى حرب وكن غاية فى الجمال ويتبعن أبناء السلطان ، وتم تسليم كل هؤلاء للشيخ .

ولكن بينما كانت الأفراح تتواصل كان الجو حاراً جداً وأصيب عمر بالحمى وهو أحد العرب الذين عاشوا سنين عديدة فى خدمة القنصل فى طرابلس وكان شخصًا طيب القلب ويتمتع بالحيوية ، وفى خلال سبعة أيام بعد الحمى الشديدة وارايناه التراب ، كما أن كولبس الذى استمر مريضًا منذ إصابته بالحمى مع السيد تول لزم الفراش أيضًا وتغير لونه كثيراً .

١٤ أبريل :

وبدأت الأفراح تخف تدريجيًا وازدحم السوق بالعبيد الذين تم أسرهم من باجرمى ، وكان السعر رخيصًا إذا ماقيس بأعدادهم ، ووجدنا أولاد وبنات يباع الواحد منهم باثنين أو ثلاثة من الثيران أى مايعادل عشرة دولارات وكان أحد الشوا شغوفًا بخلع القبعة الحمراء من على رأسه وقدم لى بنتًا جميلة جداً فى سن الرابعة عشرة بعد أن أعطيته عمامة قديمة.

وفى كل أنحاء بورنو تعد الثيران هى وسيلة التبادل التجارى حيث يمكن الحصول على حصان مقابل مائة وخمسين ثوراً ، ويمكن الحصول على إحدى الرقيقات الجميلات مقابل أربعين ثوراً .

١٥ أبريل :

رغم أن أرصدتى لم تكن تزيد عن ثمانية دولارات إلا أننى قررت الحديث مع الشيخ حول موضوع الرحلة الشرقية وقال " ليس فى مقدورى أن أرسلك إلى ناحية الشرق ويجب ألا تطلب منى مساعدتك لقد شاهدت بنفسك الكثير عن أحوال السكان فى الدول وسلطاتهم وهذا شىء حقيقى . لقد منحنا الله نصراً سوف يؤدى إلى فترة هدوء وحتى الحجاج لم يسافروا عن طريق بحيرة فيتر Fittre إلى هادج Hadge إننى شغوف مثلك ولأسباب كثيرة أن أفتح طريقًا مع مصر ، ولا أستطيع أنا وشعبى الذهاب إلى مكة الآن دون المرور على مناطق نفوذ باشا طرابلس وهناك أسباب كثيره تجعل هذا الطريق غير مناسب "ولماذا لانحاول عن طريق مصر حيث يوجد أصدقاء كثيرون ويعودون من هذا الطريق عبر فزان ؟ وهذا سوف يكون أسهل وكان لدى الشيخ وسيلة وحيدة للخلاص ، ولم أقابل أى شخص غيره بكل وضوح وبكلمات قليلة مثل الشيخ ، وكان ردى أنه إذا لم أشق الطريق الذى أرغب السير فيه ، فسوف أعود ، وإما أن أستشيره عن مصر أو أنتظر حتى أجد وقتًا أفضل . كما أن ملك إنجلترا عند سماعه عن عطفه سوف يرسل رجالاً آخرين من إنجلترا ومعهم أدلة على حسن النية وسوف يقدمون المساعدة له للوصول إلى سنار ورد " الله يحفظك من الشيطان" .

إن أفضل معلومات حصلت عليها عن الطريق شرقًا كان من الحاج العجوز المسمى (الرشيد) ، وهو أحد أهالى مدينة ميدنا (Medina) وكان فى وادای وسنار فى فترات مختلفة من حياته ، وذكر لى بين أمور كثيرة أن شعب شرق الوادى يعتمد كثيراً على اللحوم الخام التى تقطع من الحيوان وهو ساخن وممتلئ بالدماء ، وحاول مرتين العودة إلى وطنه لكن كان يسرق منه كل شىء ، ومع ذلك فإنه الشخص الوحيد الذى لديه استعداد للمحاولة مرة ثانية.

" ولكن أبلغ ملككم العظيم بأن يرسلك مرة ثانية " أنت هنا معروف والشعب يحبك ويعرفك "إننا جميعًا نرغب فى رؤيتك ثانية . وماذا سنفعل مع غريب؟ " .

وفى هذا اليوم استدعى الشيخ كولبس وقال "لقد عشت مكرمًا بين المسلمين، لماذا لم تقل "لا إله إلا الله" وستجد الجنة مفتوحة أمامك ، وأما كولبس الذى يعرف الأتراك

تمامًا فقد أجاب " لو كان مكتوبًا فسوف يكون " ورد الشيخ قائلاً " حقا لكن الموت قريب ومع ذلك فإنني أعتقد أنك تحب المسلمين والإيمان فى قلبك " حقًا إن الموت لا يعود ثانيه ادعو الله أن يعود ويكون سريعًا بالنسبة لك ولشهاب خليل (ويقصدنى) لقد أرسلت طالبا التحدث إليك وأعتقد أنك تقول الحقيقة ، ماهى رغبة خليل فى الذهاب إلى مصر ؟ أعتقد أنه صديقى كما أعتقد أن الإنجليز أصدقائى لكن رأس الإنسان هى أفضل صديق له ، وأخشى أن يؤثروا على قوة الإسلام كلية ، وكان رد كولبس " على حد علمى " أنهم لا يريدون فعل نفس الشىء وهم يرغبون فى رؤية ووصف المنطقة مع سكانها ، وإذا كان الإنجليز هم أول من يقوم بهذه المهمة فإنهم سيشعرون بالفخار والإعزاز ورد الشيخ قائلاً " هل هذا كل شىء ؟ ياعجب لا أحد يصدق هذا ولا أحد هنا سواى لأنهم يقولون هكذا وهم صادقون وليسوا كذابين ".

٣٠ أبريل :

لقد كان كل شىء على أتم استعداد لغزوة جديدة على نطاق واسع ، وكان مكان اتجاهها سريًا ولكنى استفسرت من الشيخ وأضفت أننى أتمنى السماح لى بمرافقته وقد وافق على ذلك ، وفى المساء أرسل لى ما يفيد أنهم سوف يعبرون النهر عند شووى ثم التقدم ناحية الشمال الشرقى نحو فيتر وذلك من أجل سحق الشوا لاسالا أمانوك Amanook بقدر ما يمكن ، وهم يقطنون هذه الجهات ويخضعون وحلفائهم لسلطان باجرمى ، ويعد لاسالا أمانوك من المحاربين الشجعان فضلاً عن أنه فقيه مخيف ، وأثناء هروبه بعد المعركه الأخيرة سقط حصانه معه مع الأتباع من مدينة مافاتيا Maffatia الذين انضموا إليه ، كانوا على وشك القضاء عليه عندما اكتشف بنفسه وجود ألف ثور هربت معه ، وأعطاه أحد الرجال حصانًا لكنه هو الآخر سقط قبل أن يصل إلى النهر ، وأنقذ أمانوك نفسه بالزحف مع بعض الخنازير (وهو عار لأى مؤمن) ، وبعد أن مكث يومًا وليلة خرج هاربًا عن طريق السباحة عبر النهر.

وصلت القصة إلى مسامع الشيخ الذى أرسل إلى سلطان مافاتيا ، وقد تشاجر الفرقاء على تقسيم الأسلاب حيث خان أحدهم الآخرين ، وتم إعدام بعضهم حتى الذى

أخبره بذلك ، وظل السلطان فى حالة من الفزع لعدة أيام ، وأخيراً أطلق سراحه بعد أن دفع للشيخ حمولة عشرين ثوراً من القماش بما قيمته حوالي ألف دولار على أن يظل هذا الشعب فى مملكته.

ووقعت حادثة سررت بها كثيراً هذا الأسبوع ، وأوضحت لى إلى مدى كنت مديناً لسماحة الشيخ وحمايته لنا. فلقد كنت جالساً خارج باب مكان إقامتى كما هى عادتى فى المساء وذلك عندما مرت على ثلاث نساء من زوجات رؤساء الشوا أثناء عودتهن من حفل زفاف أثناء البكاء والصراخ حول جثة لأنهن لا يخرجن إلا فى هذه المناسبات وبعد عدة مداولات قررن الاقتراب منى وقالت أكبرهن سنًا " ماذا تفعل هنا ؟ " أنت لا تبيع أو تشترى " هل حقًا أنك لا تمتلك أى من الجوارى ؟ ألا يوجد أحد يعتنى بك بعد رياح الجنوب ؟" وقلت " هذا صادق تماماً ، لأننى رجل غريب وبعيد جداً عن وطنى ولذا فأنا وحيد ".

وقالت المرأة " أنت كافر ياخليل " وأنتم أيها المسيحيون ذوى العيون الزرقاء مثل الظباء تأكلون السود الذين تحصلون عليهم عندما يبتعدون تمامًا عن أوطانهم ، وقالت فتاة شابة انضمت إليهن " الحمدلله الذى خلصنى من نظرته الشريرة ". هل هذا صحيح ؟ ...... ولماذا يحضرون إلى هنا الآن لبعض الوقت ، وليسوا متوحشين كما يبدو أليس من الأفضل تقديم زوجة أو زوجتين له ، تعلمانه كيف يصلى مثل المسلم ، وإلا يعود إلى وطنه أو جنسه السيء . وقالت الكبرى " الله يحرم ذلك " ودارت محادثة بينهن لم أفهم معناها تمامًا وأخيراً فرغ صبر أكبرهن والتى دافعت عنى بشدة وصاحت بصوت مرتفع " ماهذا التذبذب لماذا ، لماذا أخبركم مرة ومرة ثانية أنه كافر ولا يتوضأ أو يصلى " ويأكل الخنزير وسوف يذهب إلى ...ياه ...ياه الله يحفظنا من هذا الشيطان "

وصاحت كل النساء ياهوه ..... وهربن جميعهن فى حالة من الذعر.

وفى الرابع من مايو غادرنا كوكا متجهين إلى أنجورنو بقصد مواصلة الحملة (الغزوة) وبدأ شهر رمضان منذ يومين ، وعارض الكانمبو والشوا عملية التقدم حيث إنهم كانوا فى الميدان لمدة شهرين تقريبًا ، وكانوا مشتاقين للاستعداد لموسم

بذر البذور الذى أوشك على الاقتراب ، ومع ذلك كانت هناك مشكلة الصيام من شروق الشمس حتى غروبها ، بينما نجد أن حملة فى مثل هذا الموسم حيث نجد الحرارة ما بين ١٠٢ و ١٠٤ كل يوم ، وخطبة الصيام فى رمضان جعلت هناك معارضة وكان لهم تأثيرهم على الشيخ، وفى الثامن عدنا جميعا، وتأجلت الحملة لمدة شهر.

ومنذ ذلك الوقت حتى التاسع عشر من الشهر أصبحنا فى حالة من الهدوء التام، وكان الجميع يعانى من قسوة رمضان الذى كان شديداً هذا العام، وكانت فترة الصيام ثلاث عشرة ساعة فى اليوم مع الحرارة الشديدة جداً.

وفى التاسع عشر من الشهر وصلتنى أخبار عن وصول السيد تيرويت Tyrwhitt إلى نهر يوو Yeou، وفى اليوم العشرين ذهبت لمقابلته فى مكان إقامته فى دورجو Dowergoo. وكانت حكومة جلالته قد أرسلته لتقوية وتدعيم جماعتنا دون أن يعرف أن المناخ القاتل قد أضعف قوانا، وكان يحمل هدايا للشيخ اعترافًا بالحفاوة البالغة والاستقبال العظيم الذى توقعناه. وكان برفقته أطفال الشيخ الذين كانوا محجوزين فى مبروك نتيجة مؤامرات وخدع الباى السابق مصطفى سلطان فزان .

وفى اليوم الثانى والعشرين سلمنا هدايا جلالته فى شكلها التام وهى عبارة عن سيفين وزوجين من المسدسات وخنجر، وساعتين ذهبيتين. وكانت بهجة اختيار هذه النوعيات الممتازة ذات الصنعة الجيدة والتى تلقاها الشيخ الكانيمى وقد وضح هذا بشكل ملموس على ملامحه وفى نظراته السريعة التى برزت من عيونه البراقة. وكان الخنجر والساعة أكثر ما أثار دهشته، وعندما قدمت إليه لفة من الصواريخ صاح قائلاً.. ما هذا.. إلى جانب كل هذه الثروات، لا يوجد أصدقاء مثل هؤلاء إنهم جميعًا صادقون وأقسم بكتاب الله لو أن الرسول عاش فترة أطول فإنهم كانوا جميعًا صاروا مسلمين.

أول يونيه :

انتهى شهر الصيام، وحل محل الصيام والمعاناة الاحتفالات بالعيد والفرحة ، وفى الغالب يستطيع الرجل أن يأكل اللحوم على مدى الأربع والعشرين ساعة. لكن الحرارة كانت شديدة ويعانى الناس كثيراً لأن الشيخ لم يقبل أى عذر للإفطار فى رمضان، وأن من يتم ضبطه وهو يشرب الماء أو يزور زوجاته منذ الصباح حتى المساء يجلد بالكرباج المصنوع من فرس النهر أربعمائة جلدة، وهى عقوبة قاسية. وقبل غروب الشمس بساعة أو ساعتين يعانى الناس المحرومون من الشرب ويرقدون بجانب أحد الآبار ويصبون جرادل من الماء على أجسامهم وهذا ما يخفف كثيراً من معاناتهم حتى ولو أصيبوا بالإغماء نتيجة العطش، ومع احتفالات العيد زالت المعاناة وبدأت حلبة المصارعة أمام منزل الشيخ كما كانت من قبل، وفى المساء يتجمع الناس فى حفلات الرقص فى مجموعات مختلفة ، وأثناء الصيام كان الشيخ يدعونى عدة مرات بعد غروب الشمس وهو الوقت الوحيد الذى يظهر فيه فى هذا الموسم وكانت اجتماعاتنا فى حديقة المنزل ، وكانت أحاديثنا أساسًا عن الحرب مع تونس التى كانت ذات أهمية كبرى ، وإضافة على ذلك فإننا كأصدقاء للمسلمين لم نجد مبرراً لهذه العداوة، وحاولت أن أشرح له أننا أعداء لكل أنواع القسوة وإراقة الدماء، ونحن حاولنا مراراً منع الإغريق من ذبح الأتراك، وكنا نحاول دائمًا إطلاق سراح الأسرى من الجانبين عندما كانت سفننا تجدهم فى سفن الأعداء.

ولم أعرف أننى قد نجحت فى إقناعه كلية لعدم ارتياحنا لسلوكه، لو لم يكن الأمر مع الشريف هشاشى Sherif Hashashy وهو من المغاربة المحترمين الذين سرق منهم كل شيء فى الطريق من السودان، وقد خفف من مصيبته كرم الشيخ الذى يواسى دائماً المنكوبين، وكان حاضراً وساعدنى كثيراً، وقال "هل يسمح لى سيدى بالإنصات لى– ما قالة الريس حالاً لسيدى صادق تماماً. إن سيدى يعرف أن شقيقى الأصغر عابدين يتاجر بين سميرنا Smyrana والسويس، ووقع فى أيدى هؤلاء الكفرة ومعه عشرون مسلمًا آخرين تم أخذهم من قارب يونانى، وأيديهم مكبلة استعداداً لتنفيذ الحكم أمام قبطان إنجليزى والذى قام بإطعامهم وكسوتهم، كما قام بإنزالهم فى سميرنا.

وباختصار فإن الإنجليزى كما سمعت ، وأعتقد أنه شن حربًا لمدة عشرين عامًا وليس أمامه من هدف سوى تحقيق السلام" وقال الشيخ "مدهش". ولكن ما فائدة كل هذا إن سيدى سوف يحاربهم ولن تحقق هذه الحروب أية فائدة بل على العكس لابد وأنها كلفتهم الكثير من الأموال، "ولكن ماذا سيفعلون مع تونس؟" قالها الشيخ وهو يتجه إلى. "إن لديهم الكثير من البنادق والبارود، وتستطيع ثلاثة أو أربعة سفن أن تجبرهم على القيام بكل ما يرغبون، ولن تؤثر أعمال السحر ، صدقنى لأن عندهم فقيه على قدر واسع من العلم والمعرفة والقوة". وقلت "ربما لهذا إننا نادراً ما نحارب بمثل هذه الأسلحه - حقًا ربما لا تحدث حربًا مطلقًا - ولو أن هذه السفن الأربع منعت كل المباحثات بينها وبين الدول الأخرى التى تتاجر معها - ألا تكون سعيدة لسماع صوت العقل من أجل الوصول إلى السلام، وتجديد تجارتها وتبادلها الحر-" وقال الشيخ "حقًا .. حقًا إنكم شعب مفكر".

٤ يونيه :

بعد الظهر استدعونى للقصر على وجه السرعة لأن أحد الأمراء الصغار بلع عظمة سمكة أو قطعة من الخشب وكان مختنقًا. وأسرعت مرتديًا (البورنس)، ورغم أن المسافة لم تزد عن خمسمائة ياردة والرمل يملؤ الشارع بارتفاع يصل إلى الكعب مما يعوق الحركة بسرعة، وكان يسبقنى اثنان من خدم الشيخ وهما آجاجانا Aga Gana ومادى سالا Mady Sala وكانا يقومان بعمل إشارات ويناديان علىّ وكان العرق يتصبب من خدىّ "بلطف .. بلطف" لكن هذه الإجابة لم تهدئ قلقهم الذى لا يختلف عن قلق سيدهم الذى أرسلهم إلىّ ، وعلى هذا وبدون كلمة واحدة أسرعا نحوى، وأمسكانى بين أذرعهما وفى خلال ثلاث دقائق وضعونى على السلالم المؤدية إلى مدخل قصر الشيخ.

وجدت الأمير الصغير وهناك شيء ما فى حلقه، وفى أول الأمر فكرت فى تغطية ماسورة المسدس بقطعة من القماش وإدخالها فى حلقه، لكن قررت بعد ذلك استخدام قطعة برشام من الشمع الكبير التى كنت قد اضطررت إلى بلعها بنفسى من قبل، وأخيراً قررت مزجها بالعسل ووضعها فى فم الطفل، ولفرحتى العظيمة تم إزالة هذا

الشيء الذى كان يعرقل التنفس، وكان الشيخ فى غاية السرور، وحصلت بالفعل على لقب طبيب، وقد زادت هذه العملية من شهرتي.

وبينما كنت أنتظر فى القصر بعد هذا الحادث، وقعت عقوبة أخرى حيث أدت عملية الجلد إلى موت المجرم وهى عقوبة تشبه فى قسوتها ما يحدث فى روسيا. وفى هذه الحالة فإن المسكين قد وجده جواسيس القاضى نائمًا أثناء الحراسة وبالتالى وقعت عليه العقوبة بسبب إهماله.

وفى منتصف النهار أثناء شهر رمضان وجدوه نائمًا فى كوخه وبجواره زوجة رجل آخر (تاجر) كان غائبًا لبعض الوقت فى السودان، وعلى هذا وجهت إليهما تهمة خرق القانون فى رمضان وحكم عليهما بأربعمائة جلدة، وحكم على شريكته بنصف العقوبة أى مائتى جلدة. وتم حلق شعرها وخلع ملابسها وقرطها وأحذيتها، وقيام أربعة رجال بربط قطعة قماش حول وسطها بتعليقها بطريقة لا يمكن وصفها ويقوم زنجى قوى بضربها بالسوط. ويحدث كل هذا داخل حوش قصر الشيخ، وبعدها تعود إلى منزلها فاقدة الوعى، ويتلقى الرجل عقابة وسط ميدان ويعلق بنفس الطريقة ولكن يحمله عشرة رجال ويضرب بسوط قوى من جلد فرس النهر، ويقوم بتقبيل السوط ويعترف بعدالة المحاكمة. وبعد قراءة الفاتحة يقوم اثنان من رجال الشيخ الأقوياء بجلده، ويبدل أحدهما مع الأخر كل ثلاثين أو أربعين جلدة على ظهره ، بينما نجد أن أطراف السوط تحتوى على عقد تضرب على الصدر أو أعلى المعدة ، وهذا ما يجعل العقوبة مميتة.

وبعد أن يضرب مائتى جلدة ينساب الدم من كل جسمه وبعد عدة ساعات يضرب الأربعمائة جلدة فيصبح جثة هامدة. ويحضر القضاة والحكام هذه المناسبات وأكدوا لى بأن الرجل لم ينطق بأى صوت مسموع. وبعد ذلك بدأت عقوبة أخرى لمتهم بسرقة عشرة إبل وبيعها وهذه تهمة تافهة عقابها مائة جلدة وبسلاح أقل خطورة.

١٦ يونيه :

لقد تم إعداد كل شيء للحملة إلى الجانب الشرقى من بحيرة تشاد، وصمم السيد تيـــــراوت (Tyrwhitt) على مرافقتى. وفى اليوم السابع عشرمن يونيه وصلنا مدينة

(أنجورنو) ومن هناك أرسل الشيخ الحملة برئاسة باركاجانا الرجل الثانى وتيراب الرجل الثالث فى القيادة، وفى مقابلة أجريت هذا الصباح استدعاهم الشيخ جميعًا نحوه وقال " إن هذا واجبكم جميعًا، اهتموا بهؤلاء الغرباء إنهم يريدون التجول عبر كانم ويجب القيام بهذا إن أمكن ، دعوهم يحصلون على عشرين فارسًا أو أكثر إذا تطلب الأمر.

وعندما دخلنا مدينة أنجالا Angala فى التاسع عشر من الشهر قام بلال الذى كان قد رافقنا مع السيد تول فى رحلة إلى لوجون بتحديد المكان الذى دفنت فيه صديقى العزيز، وذهبت إلى المكان لكى أشهد أنه لم يحدث به اضطراب وفعلاً وجدت المكان هادئًا ويحتوى على بقايا جسده، وكل شىء على ما كان عليه عندما غادرته حتى فروع الأشجار التى غطت المقبرة، وكنت أخشى من إزعاجهم وكانت أفكارى حزينة، وقلت حقًا مثل البخار أو ندى الصباح هكذا تكون حياتنا. وكنا سويًا فى الأيام الأخيرة ننام معًا فى خيمة واحدة، نشرب من كأس واحد، ولكن حدث الفراق وصار هو فى القبر رغم أنه كان شابًا وفى صحة جيدة، وصار كل شىء مظلمًا وساكنًا للأبد.

وصلنا إلى مافاتيا فى اليوم العشرين، واتخذت مرة ثانية محل إقامتى فى منزل برهام (Birham) وكان مضيفى يقوم بزراعة أرضه، وقامت زوجته بتقديم كل فروض الاستقبال، ورحبت بى أكثر من المرة السابقة وقالت لى إنها تقوم بأشياء كثيرة الآن وأنها لا تستطيع فعل شىء فى وجود زوجها فى البيت. وحقًا لا أجد شيئًا يفوق مضيفتى وكرمها وهى تدعى إيتاه (Ittah) وقد بذلت ما فى وسعها للترحيب بى، وقالت برهام يجب أن يحضر القمح وتمنت ألا أغادر دون أن أراه.

وخلال اليوم الأول كانت تكرر الزيارة لى مع أختها فونها (Funha) وهى زنجية لها ملامح معبرة أكثر مما رأيتها من قبل وتبلغ ثمانية عشر عامًا، وكما تقول إيتاه إنها كانت فى شوق لرؤيتى، ومن حسن الحظ أن فونها قد طلقت من زوجها منذ يومين وإلا لم يكن لها مثل هذا الحظ فى اللقاء بى. وحيث إن إيتاه رفيقة وصديقة قديمة لى كشفت يدى وذراعى وصدرى لكى تعرض لأختها بياضى غير العادى، ويبدو أن هذا أدهشها كثيرًا ومع هذا كنت سعيدًا عندما لاحظت أن هذا لايثير الخوف أو الإزعاج

أو الاشمئزاز. وكانت الدهشة الكبرى عندما لمستا رأسى التى كنت قد حلقتها تواً، وكانت كل منهما تتحسسها مع إبداء بعض الملاحظات ومرت بعض الدقائق قبل أن أتمكن من ارتداء العمامة.

وعندما تركونى أخيراً قالت إيتاه بعد أن ضمت يدى بكلتا يديها إننى أصلح أن أكون سلطاناً وأن فوتها سوف تعد المكان لى للاستحمام قبل أن أستعد للنوم لأننى مرهق ومتعب من حرارة الشمس. ولم يكن هذا كل شىء، فعند المساء حضرت أكثر من اثنتى عشرة سيدة من صديقات إيتاه بسبب الحرية التى وجدتها عندى وكن من أهم نساء المدينة، والكل يسعى لإلقاء نظرة على الرجل الأبيض، وكل واحدة تحضر شيئاً ما مثل بعض البصل والأرز أو أوانى من اللبن والعسل مع الخبز الذى يشبه الكعك وكل هذا على سبيل الهدايا وبدأت حقاً أفكر مثل إيتاه نفسها بأننى أستحق أن أكون سلطاناً ، بل إننى بدأت فعلاً فترة حكمى.

تحركنا إلى شووى وعبرنا جورديا من مكان منحدر يمكن الخوض فيه ووصلنا إلى الشرق أكثر من قبل عن طريق أقرب، وكنت مسروراً عند رؤية مجموعة من البنات يلعبن على جبل مثلما كنا نفعل فى إنجلترا ولولا الخوف على كرامتى لكنت انضممت إليهن وشاركتهن، وكان الأداء طيباً وكن يرتدين ملابس من مقاسات مختلفة وكن فى عمر الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.

وشعب شووى من الناس الأكثر سعادة، وقضينا نصف الليل فى صيد السمك الذى يعد سندهم الوحيد وعند المساء من كل يوم كانت أصوات الطبول تستدعيهم إلى مكان واسع وسط أكواخهم عندما يكون الرجال حلقات ويرقصون بطريقة مرحة. وتتجمع النساء فى جزء من الدائرة وهن يجلسن على الأرض، ومعظم وجوههن مغطاة، يحيين النشطين منهم وسط التهليل والصرخات.

٢٤ يونيه :

عبرنا نهر شارى وكانت المياه أقل مما كانت عليه منذ ستة أشهر من قبل وقضينا اليوم على الشاطئ الشرقى ، وتحركنا مرة ثانية فى المساء وشاهدنا اثنى عشر

تمساحا يسبحون فى المياه ويصلون إلى الشواطئ ، وكانت مجموعة كبيرة من الشوا يعبرون النهر على قطع من الخشب الطافية على سطح الماء ، ويسبحون مع أغنامهم وثيرانهم التي قادوها فى جماعات بل وأجبروها على عبور النهر وتقوم النساء فى الغالب بهذه العملية وهن يبدين قوة واضحة فى السباحة دافعات الحيوانات أمامهن، وقطعنا تسعة أميال ومررنا على كميات كبيرة من أشجار الخروع وعند الظهر وصلنا إلى بحيرة هاميس Hamese وهى جزء من بحيرة تشاد ، وتوقفنا عند بعض أكواخ الشوا من قبيلة بنى حسان ، فى مكان يسمى زيبرا (Zeabra).

وبعد الظهر توقفنا فى الطريق وتقدمنا عن رأس بحيرة هاميس (Hamese) حيث توجد مجموعة غريبة من الصخور الجرانيتية الحمراء وسط سهل واسع ، وعلى بعد مسافة كبيرة من أيه جبال من نفس المستوى ، وكان أحدها مخروطى الشكل ويبعد ثلاثمائة ياردة عن الآخرين الذين يتصل بعضهم ببعض ، وكانت المنطقة بين كو عبدالله (Kou Abdalla) وهو اسم المجموعة الأولى والآخرين مغطاة ببقايا صخور متفرقة من أحجام مختلفة، ومن الطبيعى أن نقول إن هذه المجموعات كانت واحدة من قبل ويسميها (أهل بورنو) سلاسل هاجرتويس Hager Teous بينما يسميها الشوا بيت النبى محمد(Bet Nibbe Mohammed) وكانت هذه أول مره أسمع فيها من أى دولة ذكر القصة العربية بورنو (بير نوح أى أرض نوح) وهو اسم مشتق من مناسبة لمس نوح للأرض هنا بعد أن رست السفينة بعد الطوفان (Ark).

وأخبرنى أحد رجال الدوجانه (Dugganahs) أن أعلى هذه الصخور هى المكان الذى رست فيه سفينة نوح وسمى بمقر إقامته ، ونزلت من على حصانى لأجل معاينة قاعدة هذه الصخرة الوحيدة والتى تحيط بها هذه البقايا ولكى أحصل على بعض العينات وقد صرخ سكان هذه السهول " أسد ...أسد ..أسد"وبدأت النظر حولى بشغف وقلق كبير وشاهدت أنثى ضخمة للأسد تخرج من بين بقايا الصخور أمامى ، وهى تجرى أعلى الصخور خائفة من صراخ الزنوج ، وكانت هذه أخطر الحيوانات التى وجدناها رغم أنها لا تهاجم إذا تواجد عدد من الأشخاص معًا ، ونظرًا لأننى كنت فى المقدمة فقد انزعج كل الآخرين ، ومع ذلك مر الحيوان بسرعة أمامنا .

٢٦ يونيه :

لا زلنا نسير بالقرب من المستنقعات التى تحيط ببحيرة تشاد ، وكالعادة كنا نتوقف لمدة ساعتين بسبب حرارة النهار ومع غروب الشمس كنا قد قطعنا تسعة عشر ميلاً ، وكنا نلف وندور حتى وصلنا إلى أكواخ الشوا البيدوماس حيث عسكر باركا جانا.

٢٧ يونيه :

تقدمنا خمسة عشر ميلاً ووجدنا الشوا الدوجانه على بعد ثلاثة أميال أمامنا ومعهم المعلم شاذلى ومجموعة صغيرة من شعب الشيخ الذين سبقونا ، وعبرنا فى هذا اليوم من عدة أماكن فى فروع البحيرة ، وكانت بعض هذه المناطق ضحلة لايزيد عمقها عن جسم حصان بينما سلكت الأبل طريقًا جافًا فيما وراء المياه وسط أرض جافة تمامًا ، ووجدنا أن شعب أمانوك قد هرب .

٢٨ يونيه :

وعندما وصلنا إلى المعسكر فى دوجانه تجمع عدد كبير وسأل الشيخ حامد عدة أسئلة عن أعداد الأمانوك وأماكن اختفائهم إلا أن الهدف الأول للحملة لم يظهر حتى قبيل طلوع نهار هذا الصباح عندما ركب الكل وفى مدى خمس عشرة دقيقة كنا نتحرك نحو مندو كانم (Kanem Mendo) التى تبعد مسيرة يوم عن ماو (Maou) العاصمة والتى طرد منها سكان واداى أصدقاء الشيخ ، وكانت مندو قد طردت حكومة الشيخ ، كما أن إدريس جبير (Edirshe Gebere) ابن أخو فوجبو الذى قد حكم عليه بالأعدام طبقا لأوامر مصطفى الأسمر سلطان فزان كان يحكم كخليفة وكان هدف الشيخ القبض عليه على غرة ولهذا السبب فإن أمانوك ولاسالا (La sala) كانا دائمًا مكان الوصول الوحيد للجيش ، وبالليل أرسل باركا جانا إلى بلال ، وطلب منه

أن يخبره عما في نيته ، وأن عليه أن يتوقف لكي يصلى ويسقى الحصان ، ومنذ وصوله حتى يصير ارتفاع الشمس ثلاثة فراسخ في اليوم التالى عندئذ عليه أن يحاصر مندو Mendoo وأن الشيخ يرغب في أن يظل مكاني حتى عودته وذلك خلال أربعة أيام ، وكان يثق في قدرتي على التقدم بأمان.

وكنت أفضل مواصلة السير وأن أترك مندو له على أن أسير حول بحيرة تشاد لكنه لم يسمح بمثل هذه الترتيبات ، وحيث إنني لم أعرف عن هذه اللحظة إلا بعد أن صار كل الجيش على أتم استعداد ، ولم يعد أمامى أى بديل ، ولم يرافقهم أى جمل ، وتركنا كل الأمتعة في المعسكر . وصار بلال هو الرئيس وبمساعدة الشوا والعرب اتخذ المعسكر موقفًا دفاعيًا وتم إزالة الأشجار ، وبسرعة أقمنا سياجًا من أجل حمايتنا ، ومع هذا فقد كان موقعنا في مكان خطر وغير ملائم ، ولم ينقذنا من هجوم شعب أمانوك إلا جهلهم بتحركاتنا حيث نكون فريسة سهلة ويحصلون على غنائم كثيرة منا . ونظرًا لقرب موقعنا من بحيرة تشاد فإن جماعات الذباب بالنهار والناموس بالليل كانت كثيرة جدًا لدرجة أننا كنا نلجأ إلى العلاج القديم بإشعال النيران والعيش وسط الدخان حتى نحصل على قدر من الراحة والهدوء.

٢٩ يونيه :

وصل إلى خيمتى اليوم الطاهر رئيس الدوجانه ومعه عشرون رجلاً حلوا جميعًا خلفه وهم عراة الرأس بينما كان هو يرتدى قبعة قطنية زرقاء غامقة ، وكانت ملامحه رقيقة ولحيته طويلة كثيفة ، وهذه هى سمات هؤلاء الشوا الذين يختلفون عن الشوا فى الغرب والذين اختلطوا مع الوطنيين ، وجلس الطاهر وكأنه يأخذ صورة لأحد البطاركة، ويستطيع أى مصور ماهر إخراج صورة رأس جميلة. وكانت طريقة التحية هى إقفال أيديهم بلطف عدة مرات كما نصفق نحن ثم يمدون أيديهم مبسوطة نحوك وهم يهللون " هل أنت بصحة جيدة و سعيدة ".

أما الطاهر وأتباعه بعد أن نظروا إلىّ بشكل يعنى لبعض الوقت أنه قد استعاد ثقته أخيرًا وأخذ يسأل بعض الأسئلة، وابتدأ كالعادة بالسؤال ما الدافع لحضوركم

إلى هنا ؟ وقال "إن بلادكم تبعد كثيراً عن طرابلس" وكانت إجابتى "أن أشهد من يسكن هذا القطر، وهل عندكم بحيرات وأنهار وجبال مثلما يوجد عندنا وهل أنت بعيد عن وطنك منذ ثلاث سنوات؟ ألم تتجه عيناك دائمًا إلى الشمال حيث تكمن كل أفكارك؟ ياه أنتم رجال حقًا.. ولماذا أنا إذا لم تشهد عيونى زوجتى وأطفالى الأعزاء لمدة عشرة أيام فإن عيونى عندما تغمض فى النوم فإنها تنساب بالدموع".

لقد اشتريت خروفًا بمبلغ دولار واحد وهى عملة لم يألفها الناس هنا وسأل عما إذا كان حقًا أنهم جاءوا من الأرض؟ وقد أعجبه الشرح وقال "ألستم يهودًا ؟ " وكان ردى "لا" وكانت إجابتى "إننا مسيحيون" وقال "لقد قرأت عنكم وأنتم أفضل من اليهود" وهل اليهود بيض أمثالكم وكان ردى "لا بل يشبهونكم أكثر – هم سود–" وقال الشيخ "حقًا ولماذا لم يكونوا ذوى بشرة بيضاء إنهم شعب سيء".

وبعد قضاء ساعة معه أخذ يدى وقال "إنى أرى أنك سلطان. لم أر شخصًا مثلك، إن منظرك يسر عينى، كما تسر كلماتك أذانى، إن قلبى يقول إنك صديقى .. هل ستموت فى خيمتك وفى أيدى زوجاتك وعائلتك، وقلت "آمين" وغادر الجميع المكان.

٣٠ يونيه :

زارنى طاهر مرة ثانية فى هذا اليوم، ولقد كان الدوجانه سابقًا من سكان واداى، وكانوا أقوياء بشكل له تأثير كبير على السلطان، ولكن بسبب الحروب بينهما فقدوا نفوذهم، وصاروا تابعين لسلاطين واداى، وعمومًا فقد قضوا جزءًا من السنة فى بحر الغزال، والجزء الأخر بجوار بحيرة فيتر (Fittre) وفى هذين المكانين أقاموا معسكراتهم لعدة أجيال ووجدوا الرئيس الحالى هو الشيخ (حامد) ووالده الذى أنجب مائة طفل وجد أن قبيلة أخرى للدوجانه تتآمر مع سلطان واداى ضده، وأنه سيُسرق مع مشاركة أخيه فى الأسلوب.

وعندما علم بذلك هرب مع جماعته وزوجاته وسلم نفسه للشيخ الكانيمى، وعاش منذ ذلك التاريخ فى مناطق نفوذه، وأما التقرير الذى قدمه عن بحيرة تشاد فقد أشار

إلى أن البحيره صرفت مياهها فى بحر الغزال من خلال مجرى مائى، وظل القاع الجاف باقيًا وأصبحت الآن مليئة بالأشجار الضخمة والمراعي وتقع ما بين مدينتى نجوسوم وكانجارا وكلاهما يسكنها شعوب واداى و كانمبو، وقال "أستطيع أن أخذك إلى هناك خلال يوم لكن ليس الآن، والآن تلمع الحراب فى أيدى أبناء آدم، وكل رجل يخشى جاره".

وقد سمع جده وهو طفل صغير يقول : إن بحر الغزال قد ضاع تدريجيا فى مستنقع ضخم أو بحيرة، وكل هذا قد جف الآن. وقال "إنهم جميعا يعتقدون أن انسياب وفيضان بحيرة تشاد يتناقص وأن المسافة من هناك إلى بحيرة فيتر ولمسيرة أربعة أيام لم تعد فيها مياه ولم تعد سوى ميلين على الطريق .

وقال (فيتر) كانت كبيرة ولكن ليس مثل تشاد، وكانت قوات المشاه تمر على حدودها وقد سمع أن فيتر تسمى مياه دارفور والشلك، وهناك مجرى يخرج من فيتر لكنه ليس مثل تشاد التى يعرف كل واحد أنها الآن مياه راكدة (ساكنة)، كما أن نهرا يخرج من الجنوب الغربى حتى شكلت بحيرة فيتر وأنها هى والنيل مجرى واحد، وكان هذا هو الحال مع نهر شارى، لكنه لم يعرف شيئا ناحية الغرب. ومع ذلك فإنه ينبع من بلاد الكفار التى تسمى بوسو (Bosso) وكان الرقيق يجلبون إلى فيتر عن طريقها، وكانت آذانهم مقطوعة تمامًا بالقرب من رؤوسهم.

لقد كان طاهر يرغب فى شراء ملابس الاستحمام لأنه لا يستطيع شراء مثلها، وأنه سواء فى فيتر أو واداى كانوا يمرون ويبحثون عن بعض الآبار الجديدة. وكان البيدوما يقومون بزيارتهم أحيانًا، ورغم أنهم يعترفون بالصداقه إلا أنهم كانوا يسرقون ما يقع فى أيديهم، وفى آخر مرة باعوا لهم امرأه وصبيًا وتم إعادتهما دون دفع أى شيء.

وتكثر الضباع هنا بشكل كبير ولهذا هى جريئة وتكثر الأسوار المصنوعه من الشجيرات أثناء العاصفة الرعدية وسرقت خاروفا على بعد خمس ياردات من خيمتى. ووصلتنا أخبار بأن باركاجانا وجد مندو(Mendoo) وحيدا وقد خاب أمله فى اللحاق بالقافلة. ويعيش الشوا فى خيام مصنوعة من الجلد داخل أكواخ يتغير موقعها حسب

الضرورة عند اقتراب أى عدو أو عندما يقومون برعى ماشيتهم العديدة، وهم نادرا ما يحاربون إلا دفاعا عن أنفسهم، ولا يغادر الرؤساء بيوتهم ولكن يرسلون الثيران إلى أسواق ماقاتيا و ميكهارى ويحضرون عائدها عن طريق التبادل، وطعامهم الرئيسى هو لبن الجمال الموجود عندهم بكثرة فضلاً عن لبن الأبقار والماعز وهذا هو كل ما يشربونه، ولا يتعاطون شيئًا أخر لعدة شهور، ومعسكراتهم دائرية وتسمى دويرا (douera) وتعنى الدائرة. وبها مدخلان للماشية تدخل وتخرج منهما. وهم يكنون كل الكراهية والاحتقار لأمم الزنوج ومع ذلك فإنهم يتبعون دائمًا أحد السلاطين السود ولا توجد أمثلة توضح أنهم سكنوا مدينة أو أقاموا فى بيوت دائمة.

مكثنا عدة أيام ونحن فى قلق شديد حيث لم تصلنا أى أخبار من الجيش، وتنوعت التقارير، ويقال إن باركاجانا قد تقدم إلى ماوو (Maou) ووادای مرة ثانية وإنه قد ذهب إلى الجزر حيث عواصف رعدية وأمطار مع حرارة شديدة وكثرت أعداد الذباب والناموس الذى يؤلمنا كثيراً ورفض بلال أن يواصل السير، وكنا نستهلك كل يوم المخزون من الأرز وأمامنا ثمانية أيام قبل أن نصل إلى وادای وسط مناطق ليس بها أية مؤن أو طعام.

٦ يوليه :

فى مساء أمس عاد باركاجانا مع الرؤساء وحوالى نصف القوة بينما اضطر النصف الآخر إلى التوقف فى الطريق لتزويد الخيول بالماء ونيل قسط من الراحة، وكان قد تقدم إلى ماوو (Maou) بعد إدريس جبير وهو رئيس من الشوا فى كوراتا مندوبى (Mendooby) وكان فوجبو كوشامى كما يسميه القافلة الرابعة التى وضعها الشيخ فى مدينة ماوو وهو ابن عم إدريس الذى ادعى صداقته وفى أحد الليالى هاجمه فى عاصمته، وكانت ثلاث قوافل سابقة قد تعرضت للنهب من جانب شعب وادای.

وأظهر كوشامى قوة جريئة فى الدفاع وقتل تسعة منهم بالحراب لكن تغلبوا عليه فى النهاية ومات مع أحد عشر رجلاً من حلفاء الشيخ، وهرب أخوه فوجيو جامامى

وحده، وكان هدف باركاجانا هو مساعدة جامامى، وكانت لدى إدريس معلومات عن تحركاتهم رغم أنهم قطعوا حوالى خمسين ميلاً فى اليوم، وظهروا لأول مرة فى مندو Mendoo فى اليوم الأول الذى غادرنا فيه، وهرب إدريس مع كل ماشيته ونسائه، ووجدوهم على بعد عشرة أميال من ماوو (Maou) وقد اتخذوا موقعًا دفاعيًا داخل معسكر دائرى ومعهم كل ماشيتهم ونسائهم وأطفالهم فى مكان محصن بعيداً من البوص، ويوزع رجال الحراب بين هذه العيدان وأمام هذا الموقع الحصين، واستقبلوا أعدائهم بالصياح والصراخ عند الاقتراب ، وبعد أن نظر رجال الشيخ إليهم لمدة يوم وليلة وبدون أية مؤن للرجال أو الفرسان لم يستطيعوا مهاجمتهم، وعلى هذا أصيبوا بخيبة أمل فى النهب والانتقام، عاد الكل إلى المكان هناك، وكانت الخيول والرجال على وشك الموت جوعاً.

١٠ يوليه :

لقد كان الجميع قلقون فى هذا اليوم، حيث انضم إلى باركا جانا ألف رجل قوى وحوالى أربعمائة من الدوجانه (Dugganahs) فضلاً عن حوالى مائة حصان. وكان أمانوك (Amanook) من أكثر أعداء الشيخ شراسة حيث إنه عرقل طريقه فى مناسبات عديدة عندما انضم إلى أهل باجرمى فى هجومهم على بورنو، بل ودمر أكثر من نصف قوته، وكان المخطط هو سحق البقية الباقية، وضمان هذا العدو العنيد بقدر الإمكان والذى يثير مشاعر العداء سواء على جانب أهل باجرمى أو واداى. ومع ذلك فإنه لا يمكنه أخذ أمانوك على غرة وبشكل مفاجئ ، وقد أعطى ذلك لقوات الشيخ دليلاً على ما يمكن أن تقوم به حفنة من الرجال الشجعان، والذين يصرون على الدفاع عن موقع متميز بشكل لا يمكن أن يُنسَى.

وقبل غروب الشمس – عاد إلى المعسكر أحد أبناء فزان الذين انضموا مؤخراً إلى معسكر الشيخ، وقدم تقريراً عن هزيمة باركا جانا الكاملة، وفى الحال امتطيت أنا وبلال الخيول لنعرف تفاصيل الموقف. وتشكل بحيرة تشاد فى هذا الجزء مياه كثيرة

راكدة أو بحيرات ذات امتـدادات عـديـدة. ويترك بعد ذلك عدة مناطق من الأرض أو الجزر المنعزلة وهى التى تعطى ما يسمى لاسالا شوا وبيدوما وهى مناطق دفاع طبيعية والتى يجد العدو صعوبة فى غزوها[١] .

وفى أحد هذه المواقع استطاعت هذه اللاسالا Lasala وعلى رأسها أمانوك حجز سلطان فزان ومعه ألف من العرب وكل جيش الشيخ عدة أيام ، بل وقتلت ما بين ثلاثين أو أربعين من العرب قبل أن يستسلموا .

وفى هذه المناسبة استولت قوات أمانوك على إحدى هذه الجزر التى يمكن مهاجمتها بالفرسان فقط أمام جيش من الأعداء، ويعد هذا أعلى مراحل الصمود. ويوجد ممر ضيق بين بحيرتين ويؤدى إلى الثالثة وقد استقر فيه أمانوك مع كل ماشيته وشعبه من النساء والرجال ، وكانت البحيرة أمامه ولم تكن عميقة أو واسعة لكنها مليئة بالفجوات وقاعها من الطين الخداع فى الجانب الذى يبدأ منه الهجوم.

لقد كان منظر هذه القطعان، وصوت هذه الحيوانات مزعجًا لقوات الشيخ التى كانت مضطربة نتيجة خيبة أملها الأخيرة، وقد أعلن باركا جانا أنه يرغب فى التوقف على الجانب المقابل للمياه ويرسل رجال الحراب على الأقدام مع الدروع التى تقود الهجوم لكن صاح كل القواد الصغار "ما هذا؟ هل سنقترب منهم بهذا الشكل ولا نقضى عليهم لا ... لا دعنا نتقدم، وسوف تكون هذه القطعان والنساء من نصيبنا".

وبهذا النداء انضم الشوا التابعين للشيخ وبدأ الهجوم، وشق العرب البالغ عددهم حوالى الثمانين ومعهم الدوجانه Dugganahs الطريق وعندما وصلوا إلى وسط البحيرة هبطت الخيول وخرجت معظمها عن ممرها وغاصت الأخرى فى الطين وابتلت الذخيرة وصارت عديمة القيمة بل ولم يستطع الكثير منها إطلاق الرصاصة الأولى، وهنا ترجل الرجال من على الخيول.

(١) يوجد اعتقاد بين الشوا أن مجرى ينبع من شمال شرق وادای يسمى تاما وينساب بالقرب من دارفور ويشكل ما يطلقون عليه البحر الأبيض ، وأن هذه المياه هى بحيرة تشاد والتى تندفع من خلال دوامات وسط البحيرة إلى ممر فرعى ، ويعد مجرى لعدة أميال تحت الأرض تعترض طريقه صخور جرانيتية ، ويستمر جريانه بين تلين ، ويواصل طريقه نحو الشرق .

عندما اقتربوا من الشاطئ انقض عليهم جماعات السالا La Salal دون هـــدف محدد وأطلقوا قاذفات اللهب وهى أسلحة قوية، وأعقبها هجوم من أقوى وأحسن خيولهم وهى مدربة ومعتادة على خوض المياه، هذا فى الوقت الذى عبرت فيه مجموعة البحيرة وسط المياه من خلال ممر ضيق، وقطعوا طريق العودة على كل هؤلاء الذين كانوا قد تقدموا فى البحيرة. أما الشوا فإنهم عند بداية المقاومة وكعادتهم اتجهوا إلى الجانب الأيمن وتركوا الآخرين يقاتلون بأنفسهم، واستعدوا لجمع الأسلاب ولعمليات النهب، وهنا صار الذبح والقتل بين رجال الشيخ شيئًا محزنًا.

كان باركا جانا فى مقدمة المصابين حيث تلقى حربة قوية أحدثت جرحًا عميقًا فى ظهره رغم أنه كان ضد عملية الهجوم، وقد اخترقت هذه الحربة أربعة أثواب ودرعًا من الحديد، وكان يقاتل ضد خمسة من الرؤساء الذين صمموا على محاربته، وقد استطاع ضرب أحدهم بحربته الطويلة رغم التفافهم حوله، وقد استطاع استبدال حصانه بسرعة، وأنقذه رجاله بعد أن قتل منهم ثلاثين أو وقعوا أسرى فى أيدى السالا، وقد هرب عدد قليل من الذين جرحوا فى البحيرة أو الذين فشلت خيولهم فى عبورها إلا أنهم ظلوا يدافعون عن أنفسهم، واستمروا فى ضرب أعدائهم بأسلحتهم ذات الرؤوس الحديدية والتى وجهوها إلى أجساد أعدائهم، وزاد عدد أعدائهم من المصابين، وسقط عدد كبير من الجانبين وسط المذبوحين فى مقبرة المياه ، وقد وجدنا باركا جانا مع الرؤساء الآخرين جالسين بالقرب من المياه وكان يعانى من ألم شديد بسبب الجرح، كما كان كل الجيش فى حالة سيئة ولم يبق أكثر من أربعين من الأتباع، وانتظرنا دون جدوى حتى شروق الشمس على أمل أن يظهر المفقودون - لكن خاب أملنا وعدنا إلى المعسكر، وبهذا التفرق من جانب الشوا التابعين للشيخ ، عانى الدوجانه بشدة وهم يحاولون إظهار إخلاصهم للشيخ، وواصلوا المعركة حتى فاقت خسائرهم المائة، وفقد العرب ثمانية عشر محاربًا ، وبالتالى قضينا الليلة فى حالة من القلق خوفًا من أى هجوم على معسكرنا، وكان الإحساس بالموقف الحزين يتجدد نتيجة انتحاب وبكاء نساء الدوجانه على أزواجهن من الموتى، وكان الوضع يتطلب مواساتهم فى هذه الآلام - وفيما يلى ترجمة لإحدى هذه المعاناة:

اسمع صوت زوجتك العزيزة
الحزينة على جسمك الذى يَدمى
ياه ، بسرعة سوف تسلم حياتها
إن الموت الذى نعيشه جعل الكل يحب الموت

ابنى لا تحزن على أب مات
إنك تشعر بعظمته فى الموت
وسوف نتفاخر بالدموع وقوة النساء
إنك لن تستطيع ثنى الصلب

لقد انتهى اليوم وحل الليل المظلم
ومعه نشعر بهذا الثقل من الحزن
إن قلبى ينفطر نحو المقبرة
يُدمى حتى الموت ويسقط تحت الضربة

ونظراً لأن الدوجانه من أبسط الحلفاء وأقلهم تواضعاً فقد أصبحوا أكثر صرامة وقالوا للقائد بكل بساطة إنهم لا يستطيعون خوض المعارك بدونه ورفضوا تقديم الثيران والأغنام وقالوا لابد من الإبقاء عليها لدفع الفدية عن شعبهم.

أما أمانوك الذى لم تكن لديه فكرة عن مواصلة النصر بالهجوم على معسكرنا، والذى كان من الممكن القيام به بكل نجاح، فقد أرسل خطاباً هذا المساء بأنه لن يتعامل مع أى شخص إلا الشيخ نفسه، وأنه قد أعلن للقائد قبل أن يهاجمه أنه لا يخشى أى شخص إلا الله، والرسول والشيخ، وأنه يرغب فى السلام.

وقال "إنهم لم ينصتوا لى لكن حاولوا أن يأخذوا بالقوة ما كان لسيدهم من قبل لأن كل ما نملك هو ملك للشيخ وما زال. وبفضل الله نجح شعبى فى التغلب عليهم – لكن هذا لا يعنى شيئًا. أنا بالنسبة للشيخ مثل البيضة للحجر، وإذا كان يرغب فى السلام فإننى أرغب أيضًا وأتمناه، وسوف أتخلى عن رجاله، وخيوله وأسلحته التى وقعت فى يدى، وإذا لم يرغب فى السلام فسوف أبقى عليها، وربما أضيف إليها الكثير. إننا لا نهزم بسهولة، وبحق رسول الله إننى أستطيع إذا أجبرت، أن أتحول إلى سمكة وأطير وأقلب وادای ضده".

٨ يوليه:

رفض كل الرؤساء سحب قواتهم بناءً على طلب أمانوك وأرسلوا إليه ما يفيد أنه رجل لا يعتمد عليه، وكم من مرة سابقة ظهر خداعه، ولا شىء سوى عودة كل الأسلاب دون شروط. ومن خلال محادثة مطولة مع باركا جانا الذى كان جرحه يلتئم بسرعة نتيجة استخدام السلفا التى استخدمتها، أكد لى أنهم لن يقوموا بمحاولة ثانية ضد هذا الرئيس الشجاع ومع ذلك نصحنى بالعودة إلى كوكا وقال: "إن الرحلة التى تنوى القيام بها دائمًا محفوفة بالأخطار، وإنها ليست عملية الآن ويجب أن ننتظر ظهور الشيخ قبل أن نفعل أى شىء ، وأعتقد أن مع بداية الأمطار فى هذا الموسم فإن الشيخ لن يحضر الآن، وأننا سوف نعود جميعًا".

وحقًا ، فإنه بسبب فشل المحاولة الأولى لا أجد مبررًا لمحاولة أخرى، وكان شعار على جانا رغم أنه لم يكن القائد الأول لجيش الشيخ "لا محاولة ثانية – إنه من كانم وكل المحاولات السابقة كانت تحت قيادته عندما لا تكون القيادة للشيخ"[١] .

(١) قبل تقدم أهل باجرمى قام على جانا بجولة حول البحيرة بقوة من أربعمائة رجل قوى ، وكان فى منطقة (مدبا) (Medba) فى الوقت الذى تحرك فيه الباجرميون من عاصمتهم عندما اتجه إلى بحيرة هاميس .

وفى هذه الحالة تولى باركا جانا القيادة العليا وبالتالى دبت الغيرة بين الاثنين - أما تيراب رئيس الشوا الذى تبنى قضية على جانا فضلاً عن المعلم شاذلى رابعهم فرغم أنهم لا يستطيعون بداية تمرد إلا أنهم أهملوا الحرب من أجل الصالح العام.

وكان هذا الانفصال فى المصالح وعدم الرغبة فى الخضوع لقائد واحد ، كل هذا سهل من مهمة العدو، وكان واضحًا أنه فى النهاية لا يجد التأييد والدعم فى أرض المعركة.

لقد وجدت أن الفرصة ضئيلة إذا تقدمت سيرًا فى هذا الطريق خوفًا من الدخول فى مخاطر، وقررت العودة إلى كوكا، ومن هناك أتجه إلى واداى وأدخل الجزء الخاص بالشيخ فى كانم، وأصل إلى أقرب نقطة، وفى حالة أى ترتيبات مقبولة مع أمانوك أستطيع التقدم وأنضم مرة ثانية إلى باركا جانا- لكن الأمطار أفسدت كل هذه الترتيبات، لكنى تأقلمت مع الجو واقتربنا من تنجالا. وعسكرنا عشرة أيام بالقرب من الدوجانه الشوا وأصبحنا فى حالة أفضل لمشاهدة هذه الشعوب العجيبة، إنهم طبقة أسمى من كل الذين تقابلت معهم، كانوا أثرياء وثروتهم من الماشية والإبل، ويعيشون حياة رفاهية وبساطة. وكان الشيخ يشجع دائمًا اللجوء إليه عند اختلافهم مع سكان واداى، وقد وعدهم بالحماية، وإعفائهم من الجزية إذا ظلوا مخلصين له، وكان الرجال والنساء بسطاء وكانوا يقدمون لنا اللبن طالما أننا ندفع لهم المقابل بالكهرمان الخام وهذا ما يسمح بالحصول على وجبات الطعام.

إن هناك شيئًا غريبًا فى لغة الشوا وأخلاقهم لدرجة أننى لا أستطيع وصفها. تجلس الفتاة بجوار خيمتك ومعها إناء من اللبن وتربط حزامًا من القطن الأزرق الداكن حول وسطها، ومنديلاً من نفس القماش حول رقبتها لكى تخفى وجهها إلا أنها تترك كل جسمها عاريًا وتقول : "يوم سعيد لك. إن صديقك أحضر لك اللبن وإنك أعطيته شيئًا جميلاً بالأمس إنها لا تنسى ذلك. ياه. كيف تدمع عيناها وهى ترى كل ما فى هذا المنزل الخشبى" وتشير إلى جذع شجرة وتقول: "إننا لا نخاف الآن - إننا نعرف أنك حسن وعيوننا التى لم تنظر إليك من قبل ، دائمًا تبحث عنك إنها تظن فى البداية لأنك سيء ... سيء جدًا لكننا نعرف الأفضل الآن - إنه يؤلمنا جدًا أنك أبيض اللون".

وهناك فتاة أخرى تدعى عائشة ، ابنة أحد الرؤساء ، أحضرت اللبن وطلبت المرجان مقابل ذلك، وجاءت إلى خيمة أحد أصدقائى بعد المعركة والدموع تنساب من عينها على ملامحها المؤثرة وقالت: "يوم سعيد لك ، ماذا يفكر فى عائشة التى لم تره لمدة يومين، ولكن ماذا تفعل؟ إن ثمانية من منزل والدها قد سقطوا تحت حراب أمانوك، لقد كان عليها أن تنتظر وتواسيهم وتبكى عليهم من كل قلبها، إنهم يستحقون دموعها لأنهم شجعان ومفضلين لديها، والرجل الغريب وحيد ولا يجد من يحضر له اللبن. لا ... لا إنها مخطئة"

لقد قررت العودة بعد لقاء آخر مع باركا جانا نظراً لأن إمدادات الطعام معنا لا تكفى أكثر من أربعة أيام. وغادرنا تنجالا وعدنا إلى النقطة التى تركنا فيها البيدوماسى وما أن نصبنا خيامنا حتى هبت عاصفة استمرت حتى منتصف الليل ورغم أنها كانت سيئة إلا أنها أفضل من لدغ الناموس والذباب الذى جاء بعدها- رغم أننا أشعلنا النيران خارج الخيمة والذى كان يخنقنا لكن لم نذق طعم النوم .

وصلنا إلى شووى فى اليوم الحادى عشر بعد مسيرة شاقة وضللنا الطريق لمدة ثلاث ساعات حيث كانت الغابة ملتوية وصعبة الاختراق، وحيث إن الشوا كانوا يتحركون نحو باركا جانا - فإننا لم نحصل على مرشدين.

وشاهدنا اليوم خمس زرافات ، وقد سررنا لذلك حيث إنها ما شاهدت من الأحياء ورغم إرهاقى وحرارة الجو قمت أنا وبلال بمطاردتها لمدة ساعة، وكنا على مقربة عشرين ياردة منها. وكان شكلها غريباً وتسير بخوف ولم تكن مسرعة. وكان عبور نهر شارى صعباً حيث كان مجرى الماء سريعاً، وقد قفزت الخيول والإبل من القارب الذى يحملنا حيث كانت هذه الحيوانات تكره الماء وبعد أن عبرت المجرى أصابها المرض وانجرفت بعيداً لعدة ساعات.

١٢ يوليه :

تركنا شووى ومرة ثانية وجدنا أنفسنا فى مافاتيا، وكانت الراحة والسمك الطازج الذى استمتعنا بأكله مع الظل الواسع فى منزل بورما قد أعاد إلينا البهجة والانتعاش.

لقد تأثر جلدى بهذا الطقس ونمت طوال اليوم، وكانت الشمس والمطر والذباب والبعوض قد أرهقنى جداً أكثر من أى رحلة سابقة.

وكان السيد بورما فى البيت وغمرني بعطفه ونشاطه وعبر عن اهتمامه بي عندما مكثت فى بيته ثلاثة أيام أثناء غيابه وكان من الواجب أن تقدم لى زوجاته كل ما أطلب وهى أمور بسيطة، لكنهن يخفن الاقتراب مني ومن حجرتى كما سمع بذلك لكنهن شعرن بالخجل على تصرفهن السخيف هذا، وماذا كان يمكن أن يفعل، شكر الله أنه هنا بنفسه لكي يقدم لى كل ما أريده ، وكنت شاكراً له هذا المعروف.

لقد أحرقت الشمس جلدى، وضحيت ببعض الحيوانات، وأطرافي كانت تتألم من البرد الذى أصابنى وكنت أتمنى أن أستحم وأنظف جسدى بالشامبو لكن كان ذلك مستحيلاً. ورغم أن إيتاه Itah قامت بزيارة قصيرة لى للترحيب بى حسب رغبة زوجها إلا أننى وجدت نظام العائلة اختلف عن زيارتى السابقة، ومع ذلك حاولت فونها Funha الظهور فى صباح اليوم التالي قبل رحيلي، لقد عادت إلى زوجها من خلال وساطة بورما، وبعد أن قدمت لها هدية، وسألتها عما تريد كان جوابها "إنها لا تريد شيئاً سوى الدعاء لله أن أعود مرة ثانية إلى هذه المناطق".

وفى اليوم الخامس عشر تابعنا طريقنا نحو الوطن من مسار جديد وتوقفنا بالقرب من جمبالاروم Gambalarum على الأرض التى هرب الباجرمى منها بعد معركتهم مع الشيخ وكانت مليئة بالجثث والهياكل البشرية.

١٦ يوليه :

وبعد مسيرة طويلة ومرهقة وصلنا إلى بعض أكواخ الفرتا عند غروب الشمس وكل المياه بعد عبور مافاتيا كانت عبارة عن مادة طينية، وكلما اقتربنا من أنجورنو، ازدادت التربة سواداً وساءت الأمور أكثر. وعبرنا مولى Molee وهو مجرى صغير ينساب إلى تشاد، وكل الطريق بل كل المنطقة من أنجالا تميل إلى الانحدار نحو البحيرة العظيمة، وأثناء فصل الأمطار لا يمكن المرور، والناس يبذرون الحبوب فى كل مكان، وفى أماكن كثيرة يجمعون محصول القمح الهندى.

ومنذ أن غادرنا مافاتيا لم نتناول شيئًا إلا القليل من الأرز والذى أضفت إليه بطة أو بطتين ، كانت مهمتى البحث عن صيده.

١٧ يوليـه :

وصلنا فى هذا اليوم إلى أنجورنو، بعد الكثير من الإرهاق والتعب من رحلتنا، وكانت الليلة مطيرة وزحفنا داخل كوخ صديقنا عيدى النيب، وكنا فى منتهى السرور، وأسوأ ما فى هذه العواصف أنها تفسد الوجبة الوحيدة التى كنا نطبخها فى أربع وعشرين ساعة، كما أن خيامنا لم تستطع أن تقاوم العواصف ، ومع سقوطها تعرضت كل مؤننا بل وأنفسنا إلى هذه العاصفة العاتية.

وعندما وصلت مرة ثانية إلى (كوكا) وجدت أن الكابتن كلابرتون قد عاد من السودان مع قافلة صغيرة وكنا قد افترقنا منذ ثمانية أشهر تقريبًا، ورغم أننا كنا فى وقت الظهيرة إلا أننى توجهت مباشرة إلى الكوخ الذى كان يقطنه.

وكنت مقتنعًا أن الشمس قد أحرقت جلد هذا المسكين الذى رقد على الأرض، وكنت على وشك المغادرة على اعتبار أنه ليس صديقى، لكنه أقنعنى بأننى مخطئ ونادى علىّ باسمى وكان التأثير عليه مؤكداً. لقد كان لقاؤنا حزينًا حيث كان قد دفن صديقه ورفيقه كما قد أغلقت أنا عينى زميلى المخلص السيد تول Toole

ورغم حالة الضعف التى وجدت عليها الكابتن كلابرتون إلا أنه تحدث عن العودة إلى السودان بعد الأمطار.

٢٨ يوليـه :

وقررت الآن التقدم إلى كانم عن طريق واداى، واقتربنا من تنجاليا، وهى النقطة التى تركت فيها باركا عندما كنت أمر بالطرف الجنوبى للبحيرة.

وإذا نجحت وعدت قبل رحيل القافلة بعد العيد الكبير، كان عندى أمل أن أتم رحلتى عبر الصحراء، وبكل الرضا لرجل أنجز كل المسئوليات الملقاة عليه والتى كان من المقرر القيام بها.

جاءت لى ياجا ميناماه القزمة الرئيسية والمفضلة عند زوجة الشيخ بعد طلوع النهار، وقدمت لى هديتين من جلد الزراف، وقالت إنها أحرقت الملح عند رحيلى، ودعت بألا يتمكن الشيطان وأعوانه من القيام بأى خدع حزينة فى رحلتى. ووافق الشيخ على أن يظل السيد تيروت Tyrwhitt كقنصل، وعندما سألت عما إذا كان سيضفى الحماية على واحد أو اثنين من التجار الإنجليز إذا قدموا إلى وطنه. وقال: "بالتأكيد ولم لا، وسوف أساعدهم بكل طاقاتى لكن يجب أن يكونوا تجاراً صغاراً وإلا فإن الرحلة لن تفيدهم وأبدى رغبته فى الكتابة إلى الملك وأضاف "مهما يمكن عمله فى السودان تذكر أننى مستعد لذلك، إن لى تأثيراً هناك بكل تأكيد وربما يزداد هذا التأثير أو يمتد إلى نيـــفى Nyffe أما بالنسبة لك فسوف أكتب للملك لكى يرسلك هنا ثانية مع أى رجل بريطانى يرغب أن يزور بورنو. أنت الآن معروف وتستطيع أن تذهب إلى أى مكان فى بورنو دون خوف، وحتى الشوا على الحدود والدوجانه، الكل يعرف الريس خليل – ولكن هذا لا يتم بسهولة وسرعة. لقد كنت بيننا ثمانية عشر شهراً، ويجب أن تتذكر أنك لم تذهب إلى أنجورنو دون مضايقات، وأعتقد أنك لن تكون فى حرية تامة مثلما أنت الآن، ونشكرك ونشكر الوقت على هذا، ولست أنا الذى، مهما قدمت من أوامر، أجعل الناس يتعاملون معك بحرية، وكسب ثقتك رغم أنك مسيحى.

٣٠ يوليه :

فى هذا اليوم أرسل الشيخ هدايا إلى السيد كلابرتون والسيد هيلمان ولى شخصياً وكانت جملاً لطيفاً جداً، وحصاناً وقربتين للماء وجلد نمر وشنطتين من الجلد، وفى نفس اليوم وصلتنى حمولة أخرى مكونة من ثمانية من سن الفيل مع قرون ثلاثة

حيوانات أخرى، ويشبه أحد هذه القرون ما رأيته فى كابشارى، وكان الشيخ قد أحضرها فى رحلته الأخيرة إلى جولفى.

٦ أغسطس :

لقد كان هذا هو العيد الكبير والذى يعد أهم عيد للمسلمين طوال العام، وذلك لإحياء ذكرى سيدنا إبراهيم الذى فدى الله ابنه إسماعيل بكبش عندما كان على وشك ذبحه، وكل واحد يذبح شاة أو ماعزاً فى هذا اليوم بعد الصلاة، وكان الشيخ قد أرسل قبل هذا اليوم يسأل عما إذا كنا سنحتفل بالعيد وعندما قابلناه كرر سؤاله، وكان ردى إننا نؤمن بتدخل الإله لإنقاذ إسحاق (بقصد إسماعيل) ليكون دليلاً واضحًا على الرحمة الإلهية وحبه لكل مخلوقاته، وقلت له: "تذكر إنه إله الكل وليس إله المسلمين وحدهم، وأن أبانا إبراهيم وإيمانه القوى بوجود رحمة الله هو الذى جلب عليه كل النعم التى وعده الله بها".

وأرسل إلينا خروفين وقد ذبحناهما واحتفلنا بالعيد مع البقية ، ففى الصباح الباكر ركب الشيخ مع أبنائه وكل بلاطه حسب التقاليد للاحتفال بالعيد بالصلاة خارج المدينة مع إطلاق النار، ولم يكن الاحتفال كبيراً مثل المناسبات السابقة نتيجة غياب الرؤساء فى كانم، وفى الحقيقة كان كل شيء قد انتهى بسبب هزيمة شعب الشيخ.

وعلى عكس العرف لم يقدم الشيخ هدايا، ولم توزع أية ملابس على العبيد بدلاً من الأرواب الجديدة التى بجوار حصانه، والآن أصبحوا يرتدون ملابس بالية عديمة اللون، وكان كل شيء يحمل طابع الكآبة.

وكالعادة فى مثل هذه المناسبات تجمَّع النساء فى الشوارع وهن يرتدين أفضل ملابسهن، وهن يتجمعن أمام أبواب الأكواخ، ويهللن لتحية الرؤساء المارين وكان هذا أفضل جزء فى الاحتفال لكن هذه الفقرة أُلغيت واستخدم الشيخ، الذى كانت ميوله غير مرضية للجانب النسائى بين رعاياه كما لاحظت، منتهى القسوة معهن، وخلال فترة

غيابى، أعطى أمراً يشوه سمعة هذا الطاغية الذى يُعد أعنف من جلس على أى عرش، حيث كانت بوابات مدينته مغلقة مع طلوع النهار فى أحد الأيام، وأرسل مبعوثيه الذين أحضروا أمامه ستين امرأة من ذوات السمعة السيئة، وأصدر حكمًا بشنق خمسة منهن أمام الجمهور فى السوق كما أصدر أمراً بجلد أربعة منهن، وقد طبق الحكم بكل قسوة ، وأما اللاتى حكم عليهن بالإعدام بعد سحبهن وحلق شعورهن وجرهن بحبل حول الرقبة فقد تم إلقاء كل اثنين فى حفرة تم إعدادها من قبل وبشكل بربرى، وكان هذا العمل المشين لا يستحق أى وصف سوى أنه أثار كل الألسنة ضده.

ولقد تأثر أهل بورنو المعروفين بالطيبة والتسامح بهذا الإجراء الذى جعل الرجال يأخذون نساءهم ويغادرون كوكا باحثين عن مناطق إقامة فى مدن أخرى لا توجد فيها مثل هذه الإجراءات القاسية.

وفى كوكا أعلنوا أنه لا حياة حيث إن مجرد الشك يعرض الشخص إلى موت مخيف، وحيث إن الجواسيس يجعلون من أتفه الأمور شيئًا كبيراً، كما أن النساء اللاتى كنا من خدمه رفضن التعبير بالترحيب به، ومر الموكب عبر المدينة فى صمت تام.

٧ أغسطس:

كنت على وشك الرحيل إلى كانم، والوصول إلى شمال شرق البحيرة عبر واداى، وكان السيد كلابرتون مصاباً بالتهاب فى رجليه بالإضافة إلى إصابته بالدوسنتاريا لكنه تحسن، وجاء إلى كوخى السيد محمد بسوجاجى وهو أحد العرب الذين كانوا قد غادروا هذا المكان مع الدكتور أودنى والسيد كلابرتون، وكان قد ذهب إلى كانو مع أربعة أو خمسة من العرب وواصل السير إلى يورى ونيفى Nyffe واستقر بعض الوقت فى مكان يدعى جوسجارى على نهر كويلا الذى يبعد مسيرة يومين فى الجنوب الغربى من يورى، ويوصف نهر كويلا على أن عرضه مثل السوق خارج الأسوار والذى يبعد حوالى ميلين ، أهله من الوثنيين لكنهم ليسوا شعبًا سيئًا . وكان السلطان محمد قد

حصل على عدة مئات من البنادق والبارود التى جلبها من البحر الكبير (النهر العظيم) وعلى بعد مسيرة ثمانية أيام من يورى تأتى قوارب كبيرة إلى مكان يسمى يوربان Yearban لكنها ليست على البحر الكبير.

وتعد كاتنجا Katungah الميناء العظيم وهى تبعد مسافة بسيطة، ويأتى إلى هذه الأماكن من يقال إنهم (أمريكيون) وهم بيض الوجوه ويعتنقون الديانة المسيحية ودائمًا يطلبون الصمغ العربي والذكور من العبيد، ويدفعون أكثر من ستين أو سبعين دولارًا ثمناً للواحد منهم. ولقد أحضر السلطان محمود كتابين له وقال إنهما يشبهان كتابين عنده، وأخبر أن رجلاً له لحية بيضاء قد عاش لمدة ثلاث سنوات وأنه مات دون أن يترك أموالاً، وقال بوجساى إن السلطان قدم إليه الكتاب لكنه رفض لأنه لا يعرف ماذا يفعل به، وحيث إنه قد عاد فيجب أن يحضره.

وفى المساء ذهبنا لتقديم الشكر والتحية للشيخ بمناسبة حلول العيد واستقبلنا ببرود، وما إن جلست على الرمل حيث رأيت بالقرب منى شريفًا صغيراً من مراكش يدعى حسين والذى رغم أنه تصادق معنا مرة أو مرتين إلا أننى كنت دائمًا فى حالة خوف منه لأننى لست دهاءه ونفوذه.

وكانت أول أسئلة للشيخ عن المسافة بين بلادنا والهند وعندما أخبرناه أنها مسيرة أربعة أشهر بالبحر قال "ما الذى يغريك على أن تذهب بعيداً عن وطنك، لكى تستكشف وتحارب الناس؟" أجبنا بأننا نمتلك الكثير من السفن، ونحن مغرمون بالاستكشاف، وأن الفرنسيين والهولنديين كانوا قبلنا هناك وأننا دائمًا نحسد جيراننا على القيام بأشياء أكثر منا، وقال : "والآن كل شيء ملك لكم ونحكم حسب قوانينكم" وكان ردنا " إننا نمتلك فقط الجزء المجاور للبحر وهو الذى نطبق فيه القوانين الخاصة بنا بكل نصوصها، وحتى المسلمون فإنهم يفضلون تطبيق قوانيننا بدلاً من قوانينهم وقال "عجيب وأنتم تذهبون فى البداية بعدد قليل من السفن كأصدقاء" وقلت "نحن أصدقاء الآن" وعن طريق التجار استطعنا أن نكون ثروات وأيضًا صار الوطنيون مثلنا أغنياء.

وقال المراكشى "الله، لقد استولوا على كل الدولة ولم يعودوا أصدقاء، هذا هو الكلام الصادق ولنا ملاحظات بسيطة (لكنها ليست ذات طبيعة حسنة) عن حق

السيطرة على الجزائريين على أنهم غير صادقين فى وعودهم، وليسوا أفضل من القراصنة.

١١ أغسطس:

وبعد طلوع النهار مباشرة حضر إلى كوخنا كل من كرواش مع الحاج مصطفى رئيس الشوا واثنين من أبناء عم الشيخ وهما حسين وكانيمى. وكان الحاج مصطفى واحداً من الأربعمائة الأساسيين الذين بدأوا فى تحرير بورنو من الفلاتا وكان بصحبتهم أكثر من ستة عبيد حاملين الهدايا إلينا، وإلى الملك جورج وإلى القنصل فى طرابلس. وكنت قد طلبت ملابس الفرسان بعد أن شاهدتهم وهم يأخذونها من أهل باجرمى، وقد أرسل الشيخ رجلاً يحمل جاكت أصفر وقبعة حمراء، وامتطى أحد خيول باجرمى المختارة، وقال الحاج مصطفى كل شىء عدا الرجل سوف تأخذه إلى الملك العظيم، وأحضر لى اثنى عشر ثوباً جميلاً من أفضل مصنوعات نيفى، وأيضاً أربع بغبغانات ، وبالنسبة للقنصل فقد أحضروا إليه ستة أثواب وصندوقاً من زباد الهند واثنين من الببغاوات .

١٣ أغسطس:

وصلت القافلة التى كنا نتوقع وصولها من السودان، وهذه إشارة إلى رحيلنا حيث أمضى رجالها خمسين يوماً فى الطريق من كانو بسبب المياه، ولقد تأخروا كثيراً لأن الموسم كان متقدماً مما أخر رحيل كل التجار الذين يمتلكون الكثير من العبيد، وهم يسيرون شبه عراة، أناس مساكين لأن البرد شديد فى فزان وموسم الشتاء ساعد على قتل المئات منهم، ومع قافلة السودان جاء خليفة وفقيه من المغاربة وكان من سارالوSaralo أو كما سماها سيراليون، وكان يرغب فى اللقاء معى لأنه يعرف اللغة الإنجليزية، وحقاً إنه يعرف الكثير لكى يقنعنى بحقائقه عندما أكد أنه قد قابل رجالاً من وطنى "البندقية والقبعة والماء" كان دائماً يقرر هذا القول، ولم يكن أصدقائى فى بورنو مندهشين عندما أخبرتهم أنها لغة بلادى.

وتحدث بإعجاب عن شخص ما، أسماه الطبيب الذى شاهده فى باماكو وبنجالو، وكان رجلاً حسن المظهر وله لحية حمراء وأنف بارز طويل مع أسنان فى حالة سيئة.

لقد تخلى عن كثير من الأشياء وكان الناس يحبونه بشدة ، كان مع الطبيب شخصان اعتقد أنهما من الفرنسيين الذين جاءوا من أندر Ender ويدعى أحدهما الرجل المهذب والثانى يدعى فاسوتا أو فوستر Foster وقال الخليفة إنهما لم يتحدثا للناس مثل الطبيب، وكان رأساهما يتجهان إلى أسفل. وقال إن الطبيب كان يرغب فى الذهاب إلى سيجو Segu إلا أن السلطان لم يرغب فى حضوره إلى بلاده، بل ولم ينظر إلى الهدايا التى أرسلها وكان يخشى أن تكون بها أمور تقتله عند النظر إليها أو القيام بشمها.

ومع ذلك فقد أرسل إليه العبيد والخيول والتى قام الدكتور بردّها قائلاً : إنه لا يريد شيئًا سوى رؤية البلاد والأنهار، وكان رد سلطان سيجو أنه قد سمع أن ملك الطبيب عنده مياه تحيط بدولته من كل جانب، وأنه ربما يذهب وينظر إلى ذلك، وقال خليفة إن سكان سيجو من الكفار ولا يعرفون الله، ولهذا فإنهم يخافون من المسيحيين إلا أن المغاربة يعرفونهم بل ويحبونهم.

وعندما كان والد ملك سيجو الحالى حيًا كان الخليفة طفلاً ويتذكر أن المسيحيين كانوا يذهبون إلى جنى وتمبكتو، كما سمع أن الطوارق قد قاموا بقتلهما فى قاربهم قرب نيفى .Nyffe (١) .

وفى يوم الإثنين ، العشرون من ذى القعدة الموافق السادس عشر من أغسطس بدأنا رحيلنا الأخير من كوكا تحيط بنا الكثير من مشاعر الندم وهو شيء تعودنا عليه

(١) أخبرنى هذا الرجل أن امرأة تحكم تمبكتو وهى أميرة تسمى نانابرى ، وقد أكد هذا الكلام محمد دغبس بعد عودتى إلى طرابلس والذى أطلعنى على خطابين من تمبكتو ، كما أعطانى أيضا معلومات شيقة عن الوانجارا وهو اسم اندهشت أن أجد بين المغاربة من يعرفه ، والتقيت بشخصين آخرين إلى جانب الخليفة والذين تمكنا من شرح معنى هذه الكلمة ، واتفق الجميع أنه لا يوجد مثل هذا المكان ، وإننى أميل إلى الاعتقاد بأن هذا التقرير حقيقى فكل الأقطار التى تضم الذهب أو الناس القادمين من هذه الأقطار أو يحضرون الجوز يسمون وانجارا . ويطلق على البامبارا اسم الونجارا . كما تسمى كل التجار من جونجا وجونا بيرون والأشانتى والفوله والمونجانجا فى الهوسا وكل هذه تسمى أقطار الذهب .

خاصة أنا شخصيًا لمغادرة هذه الشعوب، وفي الصباح أخذت الإذن من الشيخ في حديقته وعندما سلمني خطابًا إلى الملك، وسلسلة من الطلبات، وكان مهتمًا جداً بنا وقال إن لدية رغبة واحدة هي أن أجد كل أصدقائي بصحة جيدة، وأن أعود إليهم مرة ثانية - وقدم يديه لي عند الرحيل وهذا ما أثار الأقزام الستة الذين كانوا حاضرين في هذا الوداع. وفضلت أن أسبق القافلة لهذا السبب حيث إنني منذ عودتي من تانجاليا عزمت على محاولة الاتجاه نحو الجانب الشرقي لتشاد عن طريق نهر لارى Lari قبل عودتي إلى الوطن، وكانت هناك معارضة كثيرة فضلاً عن كثير من المخاطر من شعب واداى وأمانوك Amanook الذين هاجروا البحيرة الآن بكل شجاعة، وعسكرت على مسافة ليست بعيدة عن باركا جانا الذى قام بزيارتي بالليل ولكنه عاد مرة ثانية، ومع ذلك أخبرت الشيخ أنني لا أستطيع أخذ أية هدايا ولا أعد بتنفيذ أي التزام إلا إذا أنجزت هذا أو على الأقل حتى أبذل كل ما في وسعي، وأنني سوف أبتعد عن مناطق الخطر.

تم تعيين بلال وهو صديقي القديم مرة ثانية ليكون مرافقي في الرحلة وتحركنا مع جملين بأحمال خفيفة لأن القطار دائمًا يشكل مصاريف ومتاعب أكثر. وقد ركب كل أصدقائي في كوكا للخروج من المدينة، كما تجمعت النساء خارج البوابة، وصحنَ وداعًا، وكانت لحظات الوداع والحزن متبادلة بيننا.

وحوالي منتصف الليل وبينما كنا نائمين في دوارجو، جاءت رسالة تقول إن الشيخ قد أحضر إلى كوكا جلد زرافة لي، وعلى هذا عاد كولمبيس لكي يتولى الحفاظ عليه بينما تحركنا جميعًا إلى نجورنو، وعاد إلينا في المساء وأفاد أنه رغم صغر حجمه إلا أنه من نوع جيد. واسترحنا يوم الأربعاء في كالنجوا وفي الثالث والعشرين وصلنا إلى يوو Yeou وهي مجرى معقول مليء بالماء ويتجه نحو بحيرة تشاد بسرعة ثلاثة أميال في الساعة.(١)

(١) وأخبرني أحد رجال المخابرات من مصر أن هذه المياه هي نفسها التي في النيل، وعندما سألته كيف يكون هذا، وعندما عرف أننا قد تتبعناه حتى بحيرة تشاد وأنه لا مخرج آخر له أجاب " نعم، لكن رغم ذلك فإن مياه النيل عذبة " وكانوا قد سألوني من قبل إذا لم يكن النيل في إنجلترا، وبالتالي عندما تحسنت اللغة العربية إلى حد ما أصبحت مقتنعا أن هذه القضايا لا أساس لها، وليس المقصود نيل مصر لكنها تعني فقط أنها مياه جارية - مياه عذبة ونظرا لندرتها بشكل واضح في الصحراء فإنها ذات قيمة كبرى للرحالة في الصحراء.

لقد اختلفت مشاعرى عند رؤية هذا النهر للمرة الثانية عندما نظرت إليه وإلى مياهه فى المرة الأولى ، وكان بصحبتنا مائة من الرجال إلا أننا لم نشعر بالأمان التام لمسافة تزيد عن مائة ياردة عن خيامنا والآن أصبح معى خادم واحد وكل من حولى من الأهالى ، وتجولت حول شواطئ النهر بكل حرية ، ونمت فى خيمتى والباب مفتوح وكنت آمنًا مثلما أفعل فى أى مكان فى إنجلترا إذا اضطررت للسفر.

لقد تداخلت مشاعر أخرى وأنا على وشك العودة إلى الوطن لأرى مرة ثانية أصدقائى الأعزاء ، ووطنى العزيز بعد غياب دام ثلاث سنوات فى مهمة محفوفة بالمخاطر والمصاعب، وسقط اثنان من رفاقنا الأربعة ضحية المناخ والمرض بينما يعانى الباقيان على قيد الحياة من أمراض من نفس النوع . وكنت بصحة جيدة رغم الكثير من المواقف الحرجة التى عشنا فيها جميعًا وكان البعض منها يدعو إلى الأسى والحزن لكننا نجحنا فى النهاية .

وفى فترة ما بعد الظهيرة اصطحبنى بلال فى اتجاه مجرى النهر حيث ازداد الاتساع إلى حوالى مائة ياردة حيث يصب فى بحيرة تشاد باندفاع عميق وقوى ، وعلى ضفافه تقع خمس قرى لشعب الكانمبو ، وتحمل أسماءً مثل بيلاجانا وإيتاكيو وأفادن ويوجانا ويوسو. وفى قرية بيلاجانا يمتلك الشيخ عددًا من الأكواخ داخل سور خاص حيث تضم عمومًا ما بين خمسمائة إلى ثلاثمائة عبد من الرجال والنساء تحت إشراف ومسئولية أربعة من أقزامه وهم يعملون فى زراعة القطن وغزل الكتان الذى تُصنع منه الأثواب .

إن طريقة الصيد فى نهر يووى تجعله مصدرًا معقولاً جدًا ومهمًا للسكان على شواطئه ويجب ألا نتجاهلها ، فالسمك المجفف من النهر ينقل إلى كل المدن فى الجنوب الغربى إلى أقصى حدود التلال ، وفى هذا الموسم يتم أخذها بكميات كبيرة ويقوم البرناويون بصناعة شباك جيدة من خيوط مزدوجة من نبات يدعى كالمبو Kalimboo كما أن وسائل الصيد صناعة وطنية رغم بساطتها ، ويبحر الصياد فى النهر ويسير مع التيار ويلقى بشباكه ، وتوجد مجاديف فى القوارب وأوزان ثقيلة من حقائب صغيرة من الجلد تحتوى على الرمل ، ويسحب الشبكة التى يضعها أمامه بعد أن يجلس عقب

خروجه من النهر ، وبعد أن يأخذ السمك من الشبكة يلقى به فى إناء مفتوح من أعلى يتلقى ما يصطاده. وبعد أن يملأ الأواني يتجه إلى الشاطئ حتي يفرغ حمولته ويعود ثانية إلى نفس اللعبة .

٢٥ أغسطس :

قابلت باركاجانا فى وودى وأيضاً على جانا وتيراب ومعهم قوتهم عند عودتهم من كانم. وكانوا جميعًا منهكين وبعضهم كان بعيداً لمدة خمسة أشهر فى جولات حول البحيرة ، وكانوا فى حالة سيئة ومعهم فقط ثلاثون حصانا بعد أن نجحوا فى شق طريقهم ، وكان أمانوك قد هاجمهم مرتين ، وأرسل كل جماعته إلى باجرمى لكن لم يذهب هو نفسه وكان نقص عددهم سبباً فى عدم قدرتهم على فعل أى شىء لمنعه .

وكانوا فى حالة سيئة لدرجة أنهم جاءوا إلى الكانم للحصول على الإمدادات – لكن الناس رفضوا تقديم الدعم لهم وبعد أن وصلوا إلى حالة من الجوع والدخول فى مرحلة الموت جوعًا كان عليهم أن يحاربوا من أجل البقاء أحياء والوصول إلى أوطانهم . وكان كل سكان كانم فى حالة من التمرد كما اتجه الدوجانه بعيداً نحو واداى . وهذه أخبار سيئة وكان بلال يريد العودة وقابلت باركا جانا الذى قال لى " إن الامر خطير لكننى أعتقد أنك تستطيع مواصلة السير إذا رغبت فى ذلك وسوف أجهز لك ثمانية عشر رجلاً ، لكنه من الأفضل الذهاب بدونهم . إنهم يتوقعون الشيخ ويذهبون مع بلال ويحتاجون القليل ويدفعون لذلك لأن المحاصيل نقصت ، ولا يوجد ما تخشاه لكنك لا تستطيع الذهاب أبعد من بورنو والكانم بأقل من مائة شخص " .

ورغم هذه النصيحة فقد صممت على مواصلة السير ، وبعد التوقف يوم الأحد ، السابع والعشرين من الشهر ، واصلت السير وكان باركا جانا قد أقام مؤقتًا عند عودته في الوادى الذى كان ينساب إليه بحر الغزال من بحيرة تشاد ، والآن امتلأ الوادى بالأشجار والأعشاب .

وهذه هى المرة الرابعة التى أقام فيها باركا جانا خيامه فى هذه المنطقة كما أخبرنى الشيخ عن هذا من قبل [1].

وكان هذا الوادى يجرى بين كانجارا ونجوسوم التى لا تبعد أكثر من عشرين ميلاً من تنجالا .

لقد فاجأتنا عاصفة قوية أجبرتنا على التوقف ، ونصبنا خيامنا على تل رملى مرتفع على بعد خمسة أميال من ينجامى Yngame وشاهدنا منظراً للبحيرة المكشوفة من هذا التل كما شاهدنا العديد من الجزر الطافية بعد أن انتهت العاصفة ، وكانت جماعات البيدوما تقيم هنا بشكل مستمر، وقابلنا بعض الناس الفقراء الذين سلبت منهم كل قطعانهم من الماشية ، وبناتهم منذ يوم واحد فقط ، وبالتالى لا يستطيع أى رحالة المرور من هذا الطريق .

وعند المساء شاهدنا قواربهم فى الأراضى المنخفضة ، وشاهدنا ثلاثة من البيودوما يتجهون إلى البحيرة وعندما شاهدونا أسرعوا الخطى . وللأمان نمنا جميعاً خارج أكواخ ينجامى ، وهنا بدأت المياه العميقة تبتعد عن الشاطئ بينما فى بعض الأجزاء يمكن الخوض عدة أميال خلال هذه المناطق .

وفى يوم الثلاثاء اتجهنا إلى لارى Lari حيث وجدنا الرجل الذى أمره الشيخ بأن يتوجه معنا .

٢٩ أغسطس :

تحركنا من لارى حيث وجدنا أربعة رجال ومعهم الرئيس الذى كان باركا جانا قد تركه فى كوسكو Kuskoua وقد عادوا الآن لأن الناس لم يقدموا إليهم شيئًا ، وعند غروب الشمس وصلنا الى زوجانى Zogany التى تبعد ثلاثين ميلاً ، كانت الأرض منبسطة تماماً ومغطاة بنباتات تتشابه لم أشهد لها مثيلا من قبل فى المناطق التى زرتها .

(١) فى كل مرة كان باركا جانا يقيم معسكره بالقرب من البحيرة ، وكانت معه قوة من أربعمائة إلى ثمانمائة من الفرسان ، ولم يستطع تجنب مشاهدة النهر والمجرى الذى يجرى .

٣٠ أغسطس :

وبعد قضاء ليلة بائسة بسبب الذباب والبعوض الذى أصاب اثنين من المرافقين الزنوج لنا – تقدمنا وتركنا خيامنا لأن بلال لم يستطع حملها ووصلنا إلى جاروا arouah ومــاباه Mabah وهى مكتظة بالسكان رغم أنها تتعرض سنويا إلى النهب والسلب من جانب الطوارق وعرب التيبو الذين لم يغادروا بعد أوطانهم .

وتختلف طبيعة المنطقة هنا عن الأجزاء الجنوبية والجانب الغربى من البحيرة الذى يمتــد إلى Gala حيث تتنوع الأرض وترتفع قليلاً . وعلى طول عدة أميال من هذا الجانب وجدنا سلسلة متصلة من المستنقعات، كنت فى أقصى الطرف الشمالى للبحيرة ، واتجهت نحو الغرب أولاً ثم شرقًا وجنوبًا لمدة خمسة أو ستة أميال ، وكانت المياه تصل إلى جسم الحصان مع وجود نبات البوص والحشائش التى تعلو رء وسنا ، وأخيراً شاهدت البحيرة المكشوفة ، وحيوان فرس النهر والجاموس والسمك الضخم فضلاً عن أعداد ضخمة من الحشرات ، وفى البداية كان طعم المياه مالحا وكلما تقدمنا أصبحت أكثر عذوبة ، وحقا يقول كل الناس عندما نسألهم عما إذا كانت المياه التى نشربها مالحة "لا..لا إن مياه البحيرة العظيمة عذبة ولا توجد بها أملاح " .

وبعد أن أُنهكنا تمامًاعدنا إلى قرية شيرجو Chirgoa حيث نصبنا خيامنا بجوارها . وكان اليوم حزينًا حيث بقينا على ظهور الخيل لحوالى ثلاث عشرة ساعة ، أما مدينة جاروا Garougah فهى تبعد اثنى عشر ميلاً من زوجنى ، وتبعد أيضًا عشرين مـيـلاً عن مـاباه Mabah وكنا نتقدم أكثر نحو الأخيرة ، لكن بالنسبة لكوسكو فلم أستطع إغراء مرشدى بالمغامرة للوصول إليها وقد شاهدت العديد من الشواهد ليس فقط على مدى شجاعته لكن رغبته فى إشباع فضوله ولم أتشكك فى مواقفه الصادقة ، ورغم التعب لم نستطع الحصول على الراحة ، وقضينا ليلة أخرى من الآلام والمعاناة والحزن الذى لا يمكن وصفه وكان صوت الحشرات يشبه غناء الطيور ، وكان الرجال والحيوانات يصرخون من الألم وأخيراً كنا نشعل النيران التى يمكن أن تطرد هذه الحشرات بعيداً وتتركنا نستريح بعض الوقت .

ولا أعتقد أن حيواناتنا تتحمل مرة أخرى مثل هذه الليلة ، حيث كانت رقابها وأرجلها مغطاة بالدم ، ولم تستطع الوقوف نتيجة الارتباك الذى تحملته لساعات كثيرة .

وعدنا فى يوم الجمعة إلى لارى من الطريق المنخفض حيث كانت توجد فتحات واسعة من المياه المغطاة بكميات كبيرة من الملح . وفى الطريق فى هذا اليوم التقينا بقبيلة من البيدوما الذين استقروا خلال الشهور الثلاثة الماضية فى الأرض التابعة للشيخ ، وطالبوا بالسماح لهم بالبقاء وكانت الحروب الداخلية قد أسقطت القبيلة بعد الأخرى وهو ما يشجعه الشيخ ، واستطاع إغراء أحد رؤسائهم بالتقدم إلى كوكا ولم يهتم الشيخ ، وترك لهم أن يفعلوا ما يشاءون وأرسل إليهم الأثواب وفقيهًا ، وطلب منهم أن يتعلموا الصلاة ، وبدأوا الآن ، كما قال لى المرشد ، يخشون الله . إنهم كانوا أسوأ الكائنات المتوحشة فى شكل الرجال عدا جماعات الموسجوى ، وجلسنا بعض الوقت تحت شجرة قبل أن يقتربوا منا . ويطلق الرجال شعورهم حتى الزواج ويجمعون الحلى والزينة بقدر المستطاع ويلبسونها حول الرقاب وكان شعرهم طويلا أو ملفوفًا فى عدد من العقد ، ويرتدون الأقراط أيضًا ، وكل ما يجمعونه من الزينة والأقراط يقدمونه للزوجة عند الزواج .

وكان الجزء الأعلى من الوجه مستقيمًا ومسطحًا والعيون غائرة ، والأفواه واسعة والرقاب طويلة ، وليس لديهم أسلوب معين للتحية مثل الزنوج الآخرين الذين يقدمون التحية للآخرين مرات ومرات ويجلسون معهم . ويقف هؤلاء وهم يستندون على الحراب وينظرون بثبات إليك دون التحدث ، وأعطيت لأحد الأولاد الصغار بعض حبات الخرز الأبيض التى ربطها حول رقبته واقترحت أن تكون جزءًا من مهر زواجه .

وفى النهاية فإنهم أحضروا بعض اللبن الحامض لى وأنا أمتطى الحصان وأشاروا بالرأس عندما غادرت ، ورددت لهم التحية وسط دهشة كبيرة .

وعندما وصلنا إلى لارى الخالية ، إلى حد ما ، من الذباب رقدت الخيول وبسطت أجسادها وراحت فى نوم عميق وهى فى غاية السرور الذى لم أشهده من قبل .

ولم أبحث عن حقائب الأنف الخاصة بها إلى ما بعد منتصف الليل ، وهنا وجدنا أن أحد رجال باركا جانا قد فقد حصانه فى الليلة الماضية ، وكان البيدوما قد سرقوه عند خروجه .

أما كانم وهى أكثر بلاد الزنوج بؤسًا ، فقد أصبحت اليوم تزداد بؤسًا حيث ينهبها أهل فزان بالتناوب مع الطوارق وشعب واداى .

وكان سكان واداى يطمعون فى حماية الشيخ ، ولم يحصلوا على أى دعم من الآخرين ، حيث كانت المنطقة مهجورة والقرى مهجورة أيضًا ، ولجأ جزء منهم إلى واداى وجزء آخر إلى مناطق نفوذ الشيخ ، وكانت المواصلات البرية بين بورنو وكانم صعبة وبعيدة سواء من الجنوب أو الشمال حتى يتسنى للشيخ أن يقدم لهم الدعم الفعال . وكان يرسل جيشا سنويا إلى كانم لهذا الغرض ، لكن الجنود كانوا يعودون بعد فقدان الخيول وأيضًا الجمال والرجال ولم يكونوا قادرين على إزعاج العدو وسكان واداى . وفى هذا العام كانت الحملة على نطاق واسع وكانت خسائرها أكثر من أى حملة سابقة .

ونظرا لأن المياه تملؤ الأنهار فى هذا الموسم ، فإنه أصبح من الصعب المرور وكانوا مجبرين على العودة لوطنهم كانم ، ولم تقدم لهم أى مدينة أية مساعدات عدا (جالا Gala) ، ولم أشهد رجالا أكثر سوءًا من هؤلاء ، وكان بعض الرؤساء يسيرون حفاة وبدون خيول ، وأما الذين يركبون الخيول فهم يلبسون ملابس بالية ويقولون إنهم يحاربون بدون الشيخ ، وهذا غير مُجدٍ ؛ لأنه هو الوحيد الذى يقودهم إلى النصر .

٣ سبتمبـر :

مكثت فى وودى ستة أيام انتظارًا لرفاقى مع إبلهم وتجار القوافل الذين يصحبوننا إلى فزان . وودى ليس مكانا مريحا للإقامة لأن البيدوم لديهم نوع من الاتفاق مع قاضى المدينة على السماح لهم بسلب كل الرحالة الغرباء بشرط احترام ممتلكات السكان ومع ذلك طلبوا منا الحرص دون أدنى سبب ، ونصبنا خيامنا بالقرب من بعضنا البعض ، وكنا يقظين طوال الليل بالرغم من زيارتهم لنا أثناء عاصفة رعدية وأمطار غزيرة ، وعند مدخل خيمة بلال التى تبعد ثمانى خطوات من خيمتى سرق اللصوص خيوله ، ورغم أن ستة أو سبعة من الزنوج كانوا نائمين بالقرب منا تماما –

إلا أنهم سرقوهم ، ولم يكتشف هذا إلا بعد ساعة ، وتتبعهم بلال ومعه اثنا عشر رجلا إلى البحيرة ، وتتبع خطوات أقدامهم في الرمال التي لم تكن صعبة بعد المطر ، ولكنه اكتشف أنهم أبحروا وتوقفت عملية المتابعة ومع ذلك فإنه أخيراً في يوم الثلاثاء الرابع عشر تجمعت قافلتنا وتحركنا نحو الصحراء ، وفي ٢٢ سبتمبر بعد الظهر توقفنا عند بئر كشفري .

٢٣ سبتمبر :

قصدنا البئر بعد الظهر ، ومن حسن الحظ أننا كنا قد أحضرنا بعض الماء معنا ، وهنا ظهرت سلطة صديقنا مينا طاهر ، وتمت حراسة البئر وأخبرونا أنه حتى يظهر الشيخ مينا لن نسحب قطرة واحدة من المياه. وأنها تتطلب مزيدا من الصبر والتحمل في يوم شاق حيث أشار الترمومتر إلى ١١٠° في الخيمة والإنسان يضطر إلى أن يشرب مياه مترية من جلود الماعز عندما تكون البئر التي تحتوي على المياه الحلوة ما بين كوكا وبلما تحت أقدامنا لكننا تعودنا على المصاعب والتناقضات وتصرفنا مثل كل المسيحيين الطيبين .

وعند المساء ظهر الطاهر على التلال في الشمال الغربي ومعه كل قواته ، وصار البئر ملكا لنا سوف نملأ القرب ونروي الإبل قبل أي شخص بدون أي مقابل كما قال " إن السلطان جورج يجب أن يكون مديناً لمينا طاهر الرئيس المتجول لشعب جوندا ، وهذا ما يسر طاهر أكثر من أية أموال وقال : من يدري ، وعندما يسمع السلطان جورج بهذا فإنه ربما يرسل لي سيفا " .

٢٤ سبتمبر:

إذا حصرنا عدد الإبل التي تحتاج إلى شرب والقطعان الكبيرة من التبو فإن حيواناتنا لن تشرب قبل المساء ، وحتى هذا الموعد كنا مجبرين على أخذ البئر بالقوة

وقد أصيب الشيخ معنا بحربة فضلا عن الخدم الذين معنا . ولم يتوقف الأمر إلا بعد أن امتطيت حصانى وعدت إلى البئر بنفسى ومعى طاهر حيث تمكنا من إنجاز هذه المهمة واستولينا على البئر .

وفى المساء حضر طاهر ليتسلم هديته وأعطيته ثوبا من السودان وقبعة حمراء وفستانًا وقد نظر إلى الثوب والقبعة وقال " ياه . إن هذا يناسبنى تمامًا . إننى واحد وزوجاتى ثلاثة وماذا أفعل بهذا الفستان . وبدأ طاهر الكلام وكان حزينًا جداً لأنه لا يملك شيئا يرسله إلى السلطان جورج (يعنى ملك إنجلترا) وقال : برأس مصطفى إننى أعتبره سيدى مثل الباشا بل وأكثر ، ولأنك تقول إنه أرسل بيدى رغبته فى أن يرانى وهذا أكثر مما يفعله الباشا ، إننى أستطيع أن أرسل إليه جلد نمر ، وسوف أكتب خطابا إليه لأن أعداء طاهر لن يهدأوا وليس لديه وقت لقتل النعام الآن " .

" إن بئر كاشفيرى تعد مياهه مثل الذهب بل وأفضل من الذهب ، وإن كل ما يقدمه كاشيلا طاهر(Kashella) والتيبو ما دام هو وأطفاله فى الحكم سيكونون فى خدمة السلطان جورج الإنجليزى " وطلب الماء الآن وبدأ يغسل الحبر من الورق الذى كان قد زيّنه من قبل بتعويذة من السحر ، وشرب الماء الملوث وغسل به رأسه ورقبته ، وعندما انتهى من هذه العملية وضع الورقة فى الشمس ، وكنت مسروراً عندما وجدت أننى سوف أكتب على هذه الورقة القذرة إلى الملك جورج.

٢٥ سبتمبر :

وفى مساء ذلك اليوم تركنا بئر كاشفيرى وودعنا طاهر وداعًا حاراً ، ولكى أنقذ الإبل التى تحمل سبعة عشر قربة من الماء فضلاً عن حمولتها لأننا سوف نقضى أربعة أيام فى طريقنا إلى أغاديس ، فإننى استأجرت حصانا لتحميل صندوقين ثقيلين إلى بلما وذلك مقابل سبعة دولارات .

وساعدنا القمر الذى كان فى الربع الأول فى فترة ما بعد غروب الشمس لكننا اضطررنا إلى التحرك لمدة ساعتين على الأقل بعد أن اختفى تماما وكان علينا أن

(نستريح ، وتوقفنا عدة ساعات فى نقطة تسمى جيجوبالوى Geog Balwy) ، (نقطة العسل) ، وبعد منتصف الليل تقدمنا فى طريقنا المخيف .

كان هناك اختلاف كبير فى الرأى حول طريقنا والذى يحتمل أن نسلكه فى عودتنا – لكننا لم نكن أجرأ مما نكون على الطريق الرئيسى وصممت على الأخذ برأى حميدى المرشد الذى أعطاه الشيخ لنا بأن يشق طريقه الخاص ولم تهتز ثقتى فيه. ومع طلوع نهار يوم الأحد اكتشفنا آثار أقدام الإبل ورفيق الحاج بوسعيد وهو تاجر من فزان والذى كان يسير فى الطريق الصحيح لكنه عاد مرة ثانية واتجه جنوباً . وصاح الجميع إننا على خطأ مع هذا لم يظهر أى خجل على مرشدنا ونظر بثقة وبكل سرور وأعلن أنه يتحمل المسئولية ، وكان هناك نوع من الإحساس بالثقة حتى إنه طلب منى أن أعتمد عليه تماما فى اتخاذ القرار وحده ولا يخشى أى رجل يعرف ما يفعله أنه يستطيع أن يتصرف جيداً ، وفى معظم الأحوال فإن الإحساس بالمسئولية يعطى الثقة ، وهذا ما حدث مع التيبو المرشد وواصلنا السفر يومًا وليلة أخرى فى هذه المناطق الواسعة المخيفة ، وليس أمامنا سوى هذا الامتداد الواسع من الرمال والسماء .

وفى يوم الإثنين ٢٧ سبتمبر ، قبل الظهر بقليل لاحظنا شيئًا على بعد مسافة له شكل جسم الرجال يتحرك نحونا لكنه بسبب تأثير السراب ظهرت أشكال مختلفة ، وفى بعض الأحيان كانت على مسافة اثنى عشر أو خمسة عشر قدما فوق سطح لصحراء ، وأعلن العرب أن هذه مجموعة من الطوارق تبحث عن علف للماشية واستعد كل أتباعنا للعمل وعند الاقتراب منهم وجدنا من حسن حظنا أنها قافلة من فزان وكانوا أيضًا يخافون منا مثلما كنا نخاف منهم ووقفنا سوياً أمام إبلهم على بعد عدة مئات من الياردات وبشكل منتظم مثلما يحارب العرب دائما ، وقدموا إلينا بعض بلح فزان وكان هذا مثار رفاهية لنا ، وتبادلنا مع التجار الذين يحتاجون الماء زلعًا من الزبدة التى تساوى دولارين ، وأخبرونا أن الطريق آمن رغم خوفهم من الوقوع فى أيدى الطوارق وقد أخرهم ذلك اثنين وسبعين يوما فى الرحلة من مرزوق .

وليس ممكنا أن ننقل فكرة الأحاسيس بين هذه الجماعات عندما تلتقى بشكل طبيعى فى الصحراء . وكان العرب يشعرون بحيوية هذه المشاعر معنا ، وبطريقتهم

المعبرة بشكل عفوى قاموا بالغناء عدة أيام بعد هذا اللقاء تعبيراً عن هذه الأحداث ويمكن أن نأخذ الأبيات التالية كعينة للصورة الشعرية لهذه اللقاءات

إن العربى يستند على بندقيته
لم يبدأ بعد شهر العمل
ويخشى المرور عبر الصحراء
وينظر بعينه عبر الرمال
ويتخيل فى الضباب فرقة
تظهر من اللصوص
ومرة ثانية يفكر فى البيت والقبيلة
والوالدين وعروسته العربية
مخطوبة من سنوات طويلة
وبعد ، ترتفع البندقية
فوق رأسه التى حلقها
وقد تركت خمسين من القتلى
حيث يتجمع خوف أصدقائه

توقفنا عند الظهر فى مكان يدعى جاسومافوما ، وتحركنا مرة ثانية بعد الظهر ، وأخبرنى المرشدون أن الطريق صعب متى يغيب القمر ويجب أن نقطع أكبر جزء ثم نستريح ، وفى هذه المناسبات لا نقيم خياما لكن نضع الصناديق بجانب بعضها البعض ونتناول بعض الكسكسى المغلى أو حتى بدونه فننسى التعب وننام وعندما شاهدنا الحافة السوداء التى تمتد على طول الوادى فى أجادم Aghadem صاح الزنوج ونساء العبيد والأتباع من الفرح وبدأ الجميع الرقص والغناء بأقصى طاقتهم ، وفى ضوء القمر وصلنا إلى البئر ووجدنا عددا من العبيد الذين ينتمون إلى أحد رجال

الشوا وقد عجزوا عن الكلام بسبب الحاجة إلى الماء وكانوا يجرون عدة أميال ليصلوا إلى الماء وكأنهم في حالة ذهول وأفواههم مفتوحة ، وعيونهم تخرج من رؤوسهم . وكانت المهمة المؤلمة هي أنه عندما وصلنا إلى هذا المكان وجدنا أن عبد التيب وتاجراً من مرزوق ومعهم زريقا زوجة خادمي باركا الذى غادر بير كاشفيرى مع بعض التيبو وفي ضوء القمر قد حاولوا الوصول إلى البئر لإنقاذ إبلهم . وأرسلت جملين ومعهما أربعة قرب من الماء ، وكنا في أشد القلق عندما لم تصلنا مخابرات (أخبار) عن هؤلاء التعساء الذين ضلوا الطريق .

وأثناء الليل ظهر رجل على ظهر جمل لكنه لم يستطع الكلام إلا بعد أن ألقينا بالماء علي وج٠هه وشرب ، وكان قد ترك جماعته مع طلوع النهار في نقطة كنا فيها منذ الليلة الماضية بدون مياه ، وإذا لم يقابله أحد كما قال فإن الجميع كانوا عرضة للموت وإذا حاولوا التحرك بالنهار عندما اشتد عليهم العطش فإنهم كانوا عرضة للهلاك ، وكان يتبقى اثنان من التيبو ، وقد قمنا بملء القرب بأسرع ما يمكن وأرسلناها لهم رغم أن هذا استغرق ساعتين ، ولم نسمع أية أخبار عنهم حتى شاهدهم الجزء الثالث والأكبر من قافلتنا والتى غادرت البئر قرب رحيلنا وقد وجدوا هؤلاء الناس يلهثون من أجل الحياة ، وألسنتهم متورمة وتتدلى من أفواههم وقد ضاعوا تماما وكانوا يتوقعون الموت ، وأحضروا معهم زريقا وآخرين لكن التاجر العجوز الذى كان معه حوالى أربعين عبداً كان قد طلب منهم قربة ماء ، واضطر إلى الانتظار لحين عودة إبله مع الكميات الكافية منه . وكان هذا هو أسوأ جزء من الرحلة وأكثرها إيلاما. وكان التقرير الذى قدمته زوجة الزنجى مخيفا حقًا، ولمدة ليلة كاملة لم نسمع شيئا سوى الصراخ والعويل من هذه المخلوقات المسكينة التى تلهث من العطش. وفي طلوع النهار ذهب أحد العبيد الأحرار عند أحد التجار والذى كان قد وفر بعض الماء في قاع القربة من أجل الترويح عن نفسه وعن سيده بهذه الجرعة الأخيرة في وسط الظلام الدامس . وعندئذ قام الزنوج الذين كانوا يلحظونه وشقوا طريقهم نحو الجمل ومزقوا القربة من يديه ، لأنهم كانوا مشتاقين لنقطة من الماء فانسكب الماء في الرمل .

غادرنا أجاديم في الثانى من أكتوبر وبمساعدة القمر الذى وهبه الله إلينا تمكنا من السفر حتى منتصف الليل دون أن نضل الطريق لكن عاصفة قوية هبت من الشرق

وأجبرتنا على التوقف ، ولم يكن لدينا الوقت لنحمى أنفسنا بالجلود والصناديق قبل أن تجتاحنا بكل قوة ، وقد عرقلنا هذا حتى طلوع النهار عندما نهضنا من بين التلال دون أن تعوق نومنا ، وواصلنا طريقنا المخيف. وتوقفنا عند الظهر وتقدمنا بالليل لأنه من أجاديم إلى دبلا (Dibla) توجد أعشاب قليلة للإبل الجائعة . وقضينا الجزء الأكبر من الليل فى اليوم الثالث فى مواصلة السير ، وفى يوم الإثنين ، الرابع من أكتوبر وقبل الظهر بساعة ، وصلنا إلى آبار دبلا وظل عدد من الرقيق خلفنا يعانون من الحر وطول الرحلة ، كما أن الإبل قد هزلت ، ولم تصل اثنتان منها إلا بعد ساعات من وصول القافلة ، ونجحنا فى إنقاذ بنتين مسكينتين سقطتا فى الطريق بسبب العطش والتعب ، حيث إن أحد الإبل كانت يحمل قربة ماء قال أحد الزنوج والذى تخلف " لقد فعل ما كان قد رآه من قبل وأعطاهما الماء وحملهما على الجمل ، وإذا كان الجمل يجد صعوبة فى ذلك فالله سوف يمنحه جملاً آخر ، وقلت آمين وأخبرته أنه فعل الشىء الصحيح " .

الثلاثاء الخامس من أكتوبر :

فى الليلة الماضية مات أحد العرب من جيربى (Gerbi) وكان مريضًا لعدة أيام ، وفى حالة سيئة ومتأخرة من هذه الحمى المخيفة التى ساقت ضحيتها بسرعة إلى الموت وكان عمه تاجرا غنيا لكنه بخيل أصيب بالمرض وكان أفضل من ابن أخيه ، وطوال فترة المرض فقد أربعة عبيد فى الطريق كما ماتت كل إبلهم ، ولم يبق له سوى خمسة وأربعين عبداً وليس لديهم أى وسيلة لنقل المؤن الضرورية لهم . وحدث لقاء بين التجار وكان الجمل الذى يساوى ثلاثين دولاراً يباع بمائة وخمسين ، و مائة وسبعون دولاراً تدفع فى مرزوق .

لقد كنا راضين طوال الرحلة عندما وجدنا أنه فى السفر عبر الصحراء ونحن شباب أفضل كثيراً من رفاقنا . ورغم أنهم أبناء هذه المناطق فقد كانوا ينظرون إلينا بدلاً من أن ننظر إليهم من أجل الحماية والأمان ، فضلا عن إرشاد الطريق، وعند ظهر يوم الخميس الموافق السابع من الشهر وصلنا إلى زوو (Zow) وهى واحة تقع أسفل

بعض الرمال الحجرية حيث توجد مياه جيدة وأعشاب وفيرة للإبل التى لم تتناول العشب منذ مغادرة دبلا وتسمى (زوو الصعبة) نتيجة للطريق المؤدى إليها وهى أرض واسعة ورمال مخيفة وتلال رملية متحركة تزيد عن خمسين ميلاً ، وكانت بعض البنات الصغار وأطفال القافلة يلهثون من العطش وزادت آلامهم من الحمى والمرض لدرجة أنهم لا يستطيعون الزحف على طول هذه الرمال العميقة ، وكان الكرباج يتحرك فوق رؤوسهم ليحثهم على التقدم للأمام .

ويستخدم الكرباج لتحقيق العدالة وليس لهذه الأمور التى تدفعهم للتقدم وهو أمر لا يزال قاسيًا ، ولأن الشجاعة لا تمكن هؤلاء المساكين على مواصلة السير ، ويرقدون وإذا غلبهم النعاس فيتركونهم للموت المحقق ، وكان عندى جملان سقطا فى هذا اليوم ، كما سقط كل زملائى وكنت مرهقا لدرجة أننى رحت فى نوم عميق على عكس عادتى بمجرد أن نصبنا الخيام ولم أستيقظ حتى ساعة بعد غروب الشمس ، وكان هيلمان الذى أصيب بالحمى فى الطريق ، قد عانى مرة ثانية من حمى أخرى هذا المساء .

الجمعة الثامن من أكتوبر - التوقف

السبت التاسع من أكتوبر :

تحركنا بعد الظهر وتوقفنا عدة ساعات بالليل وعند ظهر يوم الأحد توقفنا عند بعض الآبار فى متشيكاتينو ، وهذا قربنا من بلما ، وكان يومًا مؤلما بسبب الحرارة والانحدار الشديد وتخلخل تلال الرمال التى نسير عليها طوال الطريق وودعنا حدود الصحراء بكل سرور وكانت الإبل تنساب فى هذه الرمال الناعمة ، وكانت على وشك فقد حمولتها ، وكان الرجال يساندونها حتى ضاعت قوتهم وصبرهم . وتركنا عددا من الإبل على طول الطريق فى هذا اليوم ورفض جملان لى السير بدون أى شىء على ظهورهما .

١١ أكتوبــر :

وصلنا إلى بلما ولولا التمر الذى حصلنا عليه من هنا لعانينا من الجوع لأن مواد التموين كانت نادرة ، ونقلها صعب ، ووافق كل الأتباع من الآن فصاعداً على تناول وجبة واحدة فى اليوم من التمر ، وواحدة من الدقيق والدهون بينما عندما وصلنا إلى بلما سابقًا كنا نتناول وجبتين من الدقيق والدهون ، أما العبيد التابعون للتجار الفقراء فكانوا يتناولون حفنة من التمر بالليل والصباح ويعيشون عموما على هذا الطعام المغذى .

١٥ أكتوبــر :

وضعنا كمية من التمر واحتفظنا بها للخمسة عشر يوما التالية ، وكان حمل البعير يساوى أربعة أو خمسة دولارات ، ومع ذلك فإنهم يأخذون لحم الجمال بشغف بدلاً من النقود أو سلع السودان بفائدة مائة فى المائة .

لقد أحيطت خيامنا مع طلوع النهار بالنساء والرجال ، حيث تبيع النساء السلع وينظر الرجال إليهن ، وكان الرجال مسلحين بخمس حراب ، وكان ضمن مجموعتنا اثنان من عرب مسراتة (التى تقع غرب طرابلس) واللذان قتلا أحد رؤساء التيبو وأتباعه منذ عامين ، ورغم أن التيبو قد انتقموا لأنفسهم بقتل خمسة وعشرين مقابل ثمانية ، وكانوا قد قتلوا خمسة بالليل منذ مرورنا على الطريق - إلا أنهم يصرون على أن هناك دما بينهم وكنا جميعا نخشى من أى اضطرابات .

وفى الصباح اندلع العنف الذى صار خطيراً وأبرز العرب بنادق مضاعفة ، ولو أن الدماء سالت على أى من الجانبين فإننا سنصبح جميعًا أسرى عند التيبو. وإذا انتصرنا فسوف نسحق كل مدنى . وذهب قريب للرئيس المتوفى إلى خيمة أحد المسراتيين ، وتحدث عن موت أحد أقاربه وهز حربته أمام العربى الذى أمسك بندقية بسرعة وصاح البارود ، قرعوا الطبول وأسرع كل واحد إلى بندقيته واندفع التيبو من المعسكر وخلفه مائة من أتباعه ، وانضم إليهم الكثيرون من المدينة وفى فترة قصيرة

تحولت المدينة إلى حالة حربية حقا ، ومع ذلك فإن التيبو كانوا يخشون العرب الذين بدأوا المناوشات ووضعوا البنادق على رؤوسهم ، وأحيانًا يوجهونها محاولين القيام بآلاف الحيل ، وبسرعة لاحظت وضع التيبو وأخذت بندقيتى ذات الخزنتين ، وسرت خلف تاجر من فزان الذى كان أكثر شجاعة وبروداً من أى من هؤلاء الذين تجمعوا فى أرض المعركة ، وذهبنا معًا دون سلاح بين التيبو وأشرنا إلى الرجل الذى يهاجم والذى حاولوا إخفاءه ، وطلبنا منهم أن نأخذه بعيدا ونعاقبه ، وقد أدى هذا إلى تهدئة الجو وتفرق الجميع ، وصاح العرب بعنف عندما شاهدونى أتجه نحو التيبو وهم يستلون السكاكين قائلين إنهم سوف يقتلون كل البيض وكان خوفهم دون أساس ، وتقدم أخو السلطان عقيل ليقابلنى والتفت إلى كل ما أقوله ولم يحاول تقديم أى إهانة لقد علم العرب أنفسهم هذه الشعوب كيف تكون متشردة حيث دخلوا فى أوطانهم وشربوا من آبارهم التى يقولون عنها إنها أفضل من مناجم الذهب ، ولم يدفعوا إليهم أى جزية ، وفى العادة يبخسونهم فى الصفقات .

١٦ أكتوبـر:

السبت ـ توقفنا وكنا نشترى الجمال بخمسين أو ستين دولاراً ندفعها فى فزان .

وكنت شغوفًا لشراء اثنين لأن بعضًا من الإبل لدىَّ صارت ضعيفة ، لكنى أرغب فى أن أدفع الثمن بالسلع السودانية وجزء منها بالدولار إلا أننا لم نتفق والمعروف أن التيبو من أشد الناس فى المساومات ، وفى الغالب نقضى الساعة فى تحقيق أية عملية شرائية .

١٧ أكتوبـر :

قضينا يوما آخر فى الراحة وكانت راحة هادئة ، وجاءت النساء فى جماعات إلى خيامنا وكانت على استعداد لبيع القمح والتمر إما بالدولار أو بأثواب وأقمشة السودان

بفائدة مائة وخمسين ، وطلبوا منى أربعة دولارات لاثنين من الماعز الضعيف ، وأما الخروف فقد طلبوا فيه ستة دولارات ودار نشاط صاخب حول تسوية المشكلة مع عرب مسراتة والتيبو ، ويجب أن نعود إلى الكتاب لكن الحاج محمد عابدين شقيق قاضى مرزوق لم يفتح أوراقه إلا بعد أن أقسم أهل الميت على قبول قراره . وبعد أن تم ترتيب هذه الأمور الأولية فى يوم الإثنين ، تجمع كل الأطراف وحضر كل من القاضى الحاج بن حامد وابن طالب رئيس تجار قافلتنا ووجدوا أنه طبقا للقرآن فإنه إذا رفع أى رجل يده أعلى من كتفه فى وضع تهديد رغم أنه ليس مسلحا فإن الخصم لاينتظر تلقى الضربة بل ربما يضربه حتى الموت ، وبالطبع فإن القانون كان فى صالح العربى لأنه أثبت أن التيبو كانت يده مسلحة بالحربة ورفعها أعلى من رأسه عندما ضربه حتى الموت وبعد إعلان ذلك الحكم هرول العرب وألقوا بنادقهم أعلى من رؤوسهم وهم يصيحون بدرجة جعلتنى أعتقد أن التيبو سيغضبون ويجددون العداوة .

من ١٩ حتى ٢٢ أكتوبر:

توقفنا ، وكانت أعداد كبيرة من إبل القافلة مصابة بالعرج لدرجة أن التيبو رفعوا أسعار الإيجار لدرجة أن العرب لم يوافقوا على ذلك ، وقد نظمت أول صفقة كل العمليات ، ولم يحدث أى شىء حتى يسوى الشخص المحتاج لعدد كبير السعر ، وفى هذا الصباح وصلت أخبار أن ستة آلاف من إبل الطوارق قد وصلت إلى بلما ، وكان هذا كافيا لإقناع الطرفين بالتسوية ، وكان العرب يرغبون فى شق طريقهم كما كان التيبو يرغبون فى الذهاب وعقد الصفقات معهم ، وتمت التسوية على أن يكون سعر إيجار الجمل هو اثنا عشر دولاراً من هذه المنطقة حتى مرزوق وأن يتم أخذ العبيد بشرط أن يزودهم صاحب الصفقة بالقمح وقرَب الماء بواقع دولارين للرأس وستة عبيد للجمل .

جاءنى أخو السلطان ومعه كل التيبو الأذكياء ويقولون بأن رجلا ذاهبًا إلى فزان طلب من السلطان دولاراً من الفضة وحيث إنه لا يملك دولاراً فى هذا المكان ، وكان فى غاية الخجل لكنه فكر فىَّ مباشرة كصديق له ، وأرسل لى على وجه السرعة يطلب

دولاراً وأنه لن يفعل أى شىء لأى عربى بأى حال من الأحوال ، ولم أستطع رفض هذا الطلب المتواضع من أمير عظيم ، وعندما ابتسمت وأنا أقول . " بالتأكيد بسم الله بالبركة " إننى متأكد أن صديقى الأمير ندم لأنه كان معتدلا فى طلبه ، وأكد لى شقيق السلطان عند رحيلنا أنه كان صديقًا مخلصا للإنجليز ، وطلب فى أى فترة قادمة عندما يذهب أبناء وطنى إلى بورنو أن يرسلوا إليه من أى مكان وهو سيكون رجل أعمالهم حتى فى بورنو .

السبت ٢٣ أكتوبر :

تحركنا حتى نصف المسافة إلى إكبار وتوقفنا تحت مأوى من التلال المنخفضة نتيجة هبوب عاصفة قوية من الشمال الشرقى طوال الليل ومع طلوع النهار كنا مرة ثانية فى الطريق .

٢٥ أكتوبـر:

تقدمنا من هذا المكان عبر طريق يختلف عن الذى سلكناه إلى بورنو ، وعلى هذا عبرنا جزءاً آخر من السلسلة التلية ، وتحركنا حتى الليل وتوقفنا ، فيما يبدو عند بحيرة جميلة تحت حافة تلال رملية داكنة وتمتد هذه البقعة الخصيبة لعدة أميال ناحية الغرب وزودتنا بالماء والعشب والأخشاب لمدة يومين قضيناهما فى الصحراء ، ويسكن فى هذه المنطقة بعض الناس التعساء من أجل محصول ضعيف من التمر يجمعونه من بعض أشجار النخيل ، وكانوا شغوفين باستبدال منتجاتهم بقميص أزرق أو أبيض من القطن الخشن وكان هذا هو أفضل طريق ، رمال ناعمة من الحصى بدلاً من الأحجار الخشنة ، كما أن القافلة تفضله بسبب وجود الآبار ، وتسمى هذه الواحة سيجودم (Seggedem) وعلى بعد مسيرة ثمانية أيام من هذا المكان تقع مدينة للتيبو ، ومن هذا الطريق تمر القوافل أحيانًا إلى جرات (Ghraat).

٢٦ أكتوبـر :

غادرنا سيجودم بعد ليلة عاصفة إما قلبت الخيام أو دفنتها عدة أقدام تحت الرمال ، وعند المساء استرحنا ، وبدأنا من جديد مع طلوع النهار وقصدنا آبار إزهايا (Izhya) عند ظهر اليوم التالي وكانت الرياح عنيفة لمدة ثمانية وأربعين ساعة ولم نستطع أن نفعل شيئا واضطررنا إلى البقاء حتى تهدأ العاصفة قليلاً حتى نتمكن من جمع المؤن وعلف الماشية لسبعة أيام في الصحراء .

ومن الوهر حتى مشرو قضينا ثلاثة أيام مؤلمة وبدون ماء أو حتى بقعة صغيرة خضراء ، ولم نتمكن من الوصول للبئر ، وتوقفنا قليلا عند بيان المشرو وهو الممر المؤدى إلى البئر تقريبًا على بعد أربعة أميال ، وفى يوم السبت ، الثامن من نوفمبر وصلنا إلى هذا البئر وارتوت الجمال العطشى ورجالنا المتعبون ، ومرة ثانية واصلنا طريقنا حتى قدوم الليل عندما نصبنا الخيام في الجنوب الغربى من بئر أومهاه (Omhah) وبعد يوم شاق ومرهق وصلنا ليلة التاسع من نوفمبر واسترحنا تحت أشجار النخيل التى تحيط بتجرى (Tegerhy) وهى أسوأ بقعة يسكنها سكان فزان بل فى كل العالم كما أقول ، ومع ذلك فقد استقبلناهم بكل سرور بعد هذه الصحراء القاسية التى عبرناها. وأعتقد أن كل الرحالة الشرقيين قد ذكروها غالبًا لكن لم يمارسها أحد بدرجة كافية وحيث أننا نملك الأدلة فى جماعتنا فإنه من الشائع منع شرب الماء بعد شروق الشمس لأنها تسبب نفس المرض والعطش والدوخان فى الحيوان وهو ما يمكن أن نشاهده فى المملكة النباتية ، والنباتات تمتص الماء بالليل تماما وتحتفظ بحيويتها طول اليوم التالى. رغم أنها تتعرض لأشعة الشمس - إلا أنها لو رويت فى الصباح يصبح شكلها مختلفًا ونفس الشىء مع الإنسان، وطوال سفرنا فى الصحراء وعند الذهاب للراحة فإننى أشرب أكبر كمية من الماء وأحيانًا حتى نفس الساعة من الليل التالى ، ولم أخاطر بوضع الكوب على شفتى - إلا أننى عانيت بدرجة أقل من الحرارة والعطش أكثر من رفاقى الذين يشربون عادة بالنهار.

إن المتاعب والصعاب من الرحلة إلى بورنو لا يمكن أن تقارن برحلة العودة إلى فزان، فالأيام التسع من إزهيا إلى تيجرى بدون علف الماشية أو الأخشاب كانت قاسية

بدرجة لا يمكن وصفها سواء بالنسبة للإبل أو للرجال، وكانت الجمال منهكة تمامًا بسبب الكثبان الرملية والصحراء الصخرية التى عبروها والأحجار المدببة البارزة والتى تؤذى الأرجل عند المرور عليها، وسقوط بعضها من وطأة الحمولة، والرجال أيضًا عانوا من ندرة المؤن وقلتها ، وغالبًا ما كانت من التمر الذى كانوا يحملونه على هذه الحيوانات المتعبة، وعلى العموم كانت تسعة أيام من الإرهاق والمصاعب. وهناك الوهر ويوجد شىء ما يفوق الخوف نفسه حيث الصخور الحجرية القاتمة ذات المظهر العارى، والرياح التى تمر عبر هذه الممرات تعوق عملية التغذية، وعندما يزحف الرحالة تحت الأجزاء السفلية حتى يجدوا المأوى بالليل فإنهم يصطدمون فى كل خطوة بهيكل لبعض البشر الذين ماتوا جوعًا، وهو ما يجعلهم يتخيلون أنهم يتجولون فى هذه الأماكن الوعرة من الوحدة واليأس.

وفى اليوم الذى وصلنا فيه إلى الوهر، واليومين التاليين سقطت العديد من الإبل وماتت أو تم ذبحها بسرعة حتى يستفيد العبيد الجوعى من لحومها، وكانت القوافل مجبرة على الاعتماد على التيبو والعرب من مرزوق الذين يسمعون عن عبور الرحالة الصحراء ويسرعون بتقديم المؤن إليهم، ولو لم يحدث ذلك فإن الكثيرين من المخلوقات المسكينة تقع فريسة الموت. وعادة يبيع هؤلاء التجار التمور والقمح إلى هؤلاء المشترين المحتاجين بأسعار تزيد أربعة أضعاف عن السعر الذى يحصلون عليه فى فزان، فضلاً عن أن التجار يستأجرون هذه الإبل للإسراع فى المرور إلى بلاد أفضل.

لقد أعطانى أحد التيبو العائدين إلى وطنهم من فزان دليلاً مقنعًا عن الثقة التى يراها فى الكلمة التى يقولها الرجل الإنجليزى، لقد كان الليل قد حل وكنت أقف أمام الإبل ومعه بلح للبيع وكنت أنفقت أموالى لكنى أخبرته أن أموالى فى الحمولة على ظهر الإبل المنهكة لدرجة أننا لا نستطيع أن نفرغها، وقال : "بارك اللّه فيك. إننى أرغب أن أشترى كل ما تملك ، الإبل وكل شىء .. إننى أعرف من هو الرجل الإنجليزى أليسوا جميعا مسلمين ولهم كلمة واحدة ؟. زن البلح وواصل السير وادفع المبلغ للقاضى فى مرزوق".

لقد اشترينا بعض البصل السيء حتى نعطى طعمًا حسنًا لوجبتنا من الدقيق والماء، وبعد أن أحضر القائد حملا لي وهو الوحيد في المدينة - قطعناه ووزعناه، وحصلنا على وجبة شهية في الساعة التاسعة مساءً.

وفي يوم الأحد ، الرابع عشر من نوفمبر وصلنا إلى جاترون في رحلة سهلة وإن كانت سيئة في نظرنا من قبل لكن الآن بدت وكأنها جنة مصغرة، وكان الطعام الذي أرسله الحاج العجوز الذي يحكم المدينة واعتقدنا أنه سيء أصبح الآن لذيذ الطعم. وقمت مبكراً مع طلوع النهار وتناولت وجبة من الخبز الطازج والشربة التي تحتوي على الفلفل، وأعددت وجبة لم أفعل مثيلها في حياتي من قبل.

نصبنا الخيام في جاترون وأيضًا في تيجرى في منطقة غابة النخيل تحت ظل الأشجار طوال اليوم من شروق الشمس حتى غروبها، وكان النسيم القليل بالنسبة لنا شيئًا جديداً كما كانت النخيل المثمرة ميزة أمام عيوننا مثلما تحدث عنها أبو الفدا في كتابه وصف مصر.

وإحقاقًا للحق يبدو أن سكان فزان كانوا مسرورين لعودتنا مثلنا تمامًا "لأن تذهب وتعود مرة واحدة من أرض السود، ياه ، عجيب .. إنكم أيها الإنجليز عندكم قلوب واسعة - بارك الله فيكم ، وأيضًا يموت الطبيب العظيم بعيداً عن وطنه ، وأعطاكم الله الصحة في عقولكم، لقد كان مكتوباً أنه سيموت وأنتم تعودون مرة ثانية .. الله عظيم والريس على أيضًا (السيد تول) ياه ، كان هذا مكتوبًا أيضًا لكنه كان رجلاً لطيفًا يتحدث بعذوبة ، والآن ستعودون إلى أوطانكم ، حسنًا حظ سعيد معكم ، كيف سيخرج الأصدقاء للحفاوة بكم بملابسهم الجديدة، وكم من البارود سيطلقون في الهواء".

وأقيمت الصلاة العادية في مسجد سيدي يوشيرى والدعاء بسلامة الوصول إلى أوطاننا، وفي يوم الأحد ، الحادي والعشرين من نوفمبر دخلنا مرزوق، وسكنا في نفس المنازل السابقة.

٢١ نوفمبــر:

رحب الجميع بعودتنا وأكلنا الكسكسى بالليل وفى الصباح . وكان الزوار يأتون منذ الصباح حتى بعد غروب الشمس رغم أننا لا نمتلك الشاى والقهوة أو السكر لنرحب بهم مثلما فعلنا معهم من قبل ، وأما السلطان الجديد سيدى حسين ، الذى خلف مصطفى فقد وصل إلى السلطة فى اليوم السابق لوصولنا ، وحيث إنه كان فى فترة الحداد لوفاة زوجة الباشا، فلم يسمح بأية أفراح فى هذه المناسبة.[١] .

ورغم هذا فإنه أرسل إلينا خروفين، وإناءً واسعًا من الزيتون، وكيسين من القمح، وهكذا أقمنا احتفالاً بسيطًا بيننا ، وكان بيننا محمد ويوسف أصدقاء الكابتن ليون فضلاً عن الحاج محمد القديم الذى يهلل دائمًا "شكرًا لله. لقد عدتم. من كان يفكر فى هذا، الله كبير وعظيم ويحمى مثل هؤلاء الكفار مثلكم" حسنًا .. حسنًا رغم كل هذا أحبكم رغم أننى أعرف أن ذلك خطيئة، ياه إن المعجزة سوف تغيركم وربما تصبحون مسلمين وعندئذ لن تذهبوا إلى النار لأن بقيتكم سيكونون بؤساء" قال كل هذا وهو يقترب منا ثم همس : "قولوا وأنتم بمفردكم أحيانًا "لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إن هذا أفضل من أى شىء".

ورغم الدرجات المختلفة القريبة من الجمال عندنا والعيون الزرقاء الجميلة فى ملامحها عندما تغسل وتنظف فإننا لا نستطيع أن نقارن النساء البيض فى مرزوق بالنساء السود فى بورنو والسودان ، وهن سود وأشرار ولا أحد ينكر ذلك لكن أشكالهن الجميلة وعيونهن المعبرة وأسنانهن الزمردية والنظافة الفائقة ، كل هذا يجعلهن أكثر تألقًا عن هؤلاء القذرات اللاتى نعيش بينهن.

(١) لقد قام الباى أحمد بأخذها أسيرة فى حملة ضد شعب الخليفة بلقاسم فى الجبل (Gibel) ورغم أنه وقع فى حبها بنفسه إلا أنه اضطر أن يسلمها إلى والده الذى أعجب بعيونها الواسعة ، وأحبت الباى أيضًا لكنها أجبرت على أن تهب نفسها للباشا ، ويقال إن هذا هو السبب فى أول سوء خلاف مع والده ، واستطاعت بنفوذها أن تجعل بلقاسم سيدها القديم حاكمًا على ثمانى مديريات .

ويقال إن الباشا قد دخل في مناوشات مع العرب الثائرين ضده لكنه هزمهم وبعدها هربوا إلى الجبل (Gibel) الذى كان منذ زمن مقراً للعصاة، وعلى هذا صممنا على رحيلنا مباشرة ، وبعد أن بعنا الإبل الست الباقية من أربعة وعشرين جملاً كنت قد أحضرتها معي من كوكا وكان الثمن هو إحدى وعشرين دولاراً، وكانت الإبل بائسة وظهورها ملتهبة. ورغم أن الخيل أجمل وأسرع إلا أنها لا تستطيع تحمل المتاعب مثل إبل طرابلس أو سلامى.

وفى اليوم الثانى عشر من ديسمبر كنا مستعدين تمامًا للرحيل ، وفى اليوم الثالث عشر أخذنا تصريح المغادرة حيث أعطانا السلطان أمراً أو تذكرة فى كل مدن فزان لتزويدنا بأى شىء نحتاج إليه، وكانت برودة مرزوق قد أصابتنا جميعًا وبشدة ورغم أننا كنا نستخدم بطاطين إضافية سواء بالليل أو النهار إلا أن البرد أصاب أحدنا وتورمت رقبته وأصيب الآخر بالكحة وثالث بالآلام فى أطرافه وأعتقد أن كل هذا من برودة الجو ، ومع ذلك فإن الترمومتر أشار عند شروق الشمس إلى ٤٢ْ أو ٤٣ْ.

وصلنا سبها (Sebha) يوم الثامن عشر ووجدنا صديقنا القديم عبد الله بن شبل الذى لمسنا من قبل كرم ضيافته من الكسكسى واللحوم والشربة التى أعدها إلينا، وكانت ابنة الصديق عبد الله قد تزوجت وصارت أماً والتى قدمت لها منذ عامين دواءً اقتنعت به لعلاجها من مرض اليرقان، وأرسلت لى مروحتين لمقاومة الذباب وهما مصنوعتان من ليف النخيل بالماس واللون الأحمر والأسود والأصفر، وكان يصحبنا فى رحلتنا واحد أو اثنان من التجار، وأصدقاء هؤلاء العرب الذين استأجرنا منهم الإبل وعشرون عبداً من الذكور والإناث وهؤلاء فضلوا السفر فى هذا الموسم لكى يشرفوا على ولائم الإنجليز، وعاد معى أحد رجال سوكنا (Sockna) وكنت قد قابلته فى مرزوق فى طريقه إلى بورنو وهو بوشى بن الحاج عبد الواحد وكان معه خطاب توصية من تاجر آخر فى سوكنا ويدعى إبراهيم - الذى تعرفت عليه العام الماضى فى بورنو، وكنت قد أظهرت له بعض الأمور المتمدينة، وساعدته في شراء جمل، وهذا ما شجعه على أن يقنع صديقه على التوجه إلى أرض السود وقال : "خذ هذا الخطاب ، إن الريس خليل صديقى ، لقد عالجنى من الحمى بقليل من المسحوق الأبيض، والحمد لله

أنها انتهت وكان هذا أكثر الأدوية دهشة في العالم" ورغم أن صديقى يبالغ كثيرًا إلا أن العملية كلها إطراء لنا إلى أقصى درجة، وكان بوشى (Bouche) مبسوطًا وراضيًا جداً حتى أنه قرر عند العودة إلى سوكنا وأن ينتظر حتى أعود رغم أننى قدمت له خطاباً إلى السيد تايريت (Tyrwhit)

وفى سببها كان تمنهت وزجرن يأكلون أفضل المنتجات من طبخ أيديهم، وكانت أم الهنا التى أساءت معاملتى فى الزيارة الأولى لهذا المكان أصبحت الآن بعد نكبتها نتيجة موت خطيبها والتى كانت قد قرأت فاتحتها قبل زيارتى الماضية بقليل الآن صارت زوجة منذ ثلاثة أيام. وكان أفضل طبق من الأطباق العشرين التى قدمتها المدينة لنا هو الطبق الذى صنعته، وكان قد وصل منفصلاً ومحجوزاً فى سلة جديدة من أوراق التمر ، وكنت أرغب فى الاحتفاظ به وتساءل خادمها العبد الذى أحضر الطبق "عما إذا كنت أتمنى الذهاب إلى منزل والدها وأسلم عليه ؟" وكان ردى "بالتأكيد" ، وبعد ظلام الليل جاء نفس العبد واصطحبنى. ووجدت السيدة العجوز تجلس على حفنة من النار وعيناها ملتهبة كشخص لا يزال مهملاً أكثر مما رأيتها واحتضنتنى بحرارة لأنه لم يكن هناك أشخاص سوانا، وكانت النار مشتعلة ويخرج منها لهيب ضعيف وأخذت تكرر القول ، بل تغنى "شكرًا لك ، الله يبارك فيك ، كيف حالك كيف وجدتنا؟ كيف الحال معك في هذا الجزء من الوطن. وقالت شيئًا لم أفهمه إلى العبد العجوز، وكنت نادمًا على الرحيل دون أن أشاهد أم الهنا بينما ظهرت ابتسامة هادئة على وجه مضيفتى العجوز عندما اندفع موضوع حديثنا، لم أعرفها فى البداية فى النور الخافت لخشب النخيل لكنها ألقت بالعباءة وقبلت أكتافى (وهى طريقة عربية للتحية) وسلمت علىّ فى الوقت الذى انسابت الدموع من عينها على ملامحها الجميلة وقالت "إنها كانت مصممة على رؤيتى رغم أن والدها رفض" ويبدو أن الأم صممت على تلبية رغبتها.

وتبلغ أم الهنا – سبعة عشر عامًا وكانت أجمل من أى شخص شاهدته فى فزان وترتدى كل زينات رفاقها، وحقًا كنت منزعجًا إلى درجة كبيرة على ملاحظاتها القيمة لو لم تتعجب فى الحال، حسنًا يجب أن تسرع. اعطنى كل ما أحضرته لى أنت تعرف

أننى امرأة الآن، ويجب أن تعطينى شيئًا أغلى كثيراً عما أعطيته لى من قبل فضلاً عن أننى زوجة ابن سيدى جونانا الرجل العظيم وعندما يسألنى ماذا أعطاك الرجل المسيحى دعنى أستطيع أن أعرض عليه شيئًا قيمًا وجميلاً وقلت "ماذا هل سيدى جونانا يعرف حضورك" وقالت أم الهنا "ولكى تتأكد أرسلنى ووالده رجل دين وقال له "إن الإنجليز أناس ذوى قلوب طيبة ومعهم المال الكثير ولذا يجب أن أحضر" وقلت لها "حسنًا عندئذ إذا كان هذا هو الحال فليس هناك داع للسرعة إنها لا تعتقد كذلك وما أن أعطيتها هديتى الصغيرة حتى أسرعت بالخروج بعيداً وهى تقول إنها سوف تعود بسرعة ، لكنها لم تنفذ وعدها، حسنًا ، ما فعلت هو البساطة وهذه الطبيعة البسيطة هى التى لم تستطع أى بنت فى المدينة القيام بها.

وبعد أن توقفنا يوماً تحركنا فى يوم ٢٣ إلى أم هلابيد (Om hul Abeed) التى تبعد عدة أميال حيث الماء والأخشاب التى تجمع من الصحراء بين هذا المكان وسوكنا والتى تكون فى هذا الموسم لياليها طويلة وباردة ونهارها قصير، وتستغرق الرحلة خمسة أو ستة أيام .

٢٥ ديسمبـــر:

ففى الرابع من أعياد المسيح فى أفريقيا وصلنا فى المساء إلى تلمسان حيث إنه بعد سقوط الأمطار شاهدنا بعض النباتات البرية التى يعرفها العرب فقط والتى هى كل منتجات هذه الأمطار البسيطة من تلك التربة غير المنتجة، وهنا صممنا على الاحتفال بعيد الميلاد حيث ذبحنا شاةً أحضرناها معنا لهذا الغرض لكن حل الليل علينا قبل أن ننصب الخيام مع رياح غربية ، وكان اليوم طويلاً وكنا متعبين فيه وصار رجالنا مرهقين لدرجة أنهم لم يستطيعوا ذبح وإعداد الوليمة، ومع ذلك كان رفاقى أحسن قليلاً ولم تصب الحمى هيلمان لمدة يومين وتجمعنا فى خيمتى وأغلقنا الباب وقمنا بإعداد الوليمة من اللحم المشوى.

وفى اليوم التالى قبل أن نحمّل الجمل هطلت أمطار غزيرة مع أعاصير رعدية من الشمال الغربى ، وقد أصابنا ذلك بألم شديد ورغم هذا بدأنا المسير، ولكن ما أن دخلنا الوادى الذى اقتربنا منه الليلة الماضية حتى أشعل العبيد النار تحت الأشجار التى اتخذنا مأوانا حولها، وكان المساكين يعانون من البرد، وحيث إن الإبل لم تأكل شيئًا لمدة ثلاثة أيام فإننا قررنا أن تأكل من هذه المراعي بعد هذه المعاناة بينما قمنا نحن بذبح الشاة ومواصلة الوليمة.

لقد كان كل شىء بارداً ورطباً لدرجة أن العبيد المساكين الذين اصطحبوا القافلة وهم نصف عراة كعادتهم تجمعوا حول النيران وفضلوها على النوم ، وكانوا رغم كل هذا مرحين وازدادوا حيوية عند السير عندما أعطتهم الشمس الدموية، وللحق فإن العرب أطعموهم حتى شبعوا تماماً.

وصلنا إلى سوكنا وسكنت فى منزل الحاج محمد بوفراس وهو مكان من أربعة حيطان نظيفة ومغطى بجذوع النخيل ، وبمساعدة حلة من النحاس مع ثقب فى الأرض نجحت فى إشعال نار تدفئة جميلة، وكان المنزل تحت مسئولية أحد عبيد باجرمى والذى كان فى الأسر لمدة أربعة وعشرين عامًا، وكان مسروراً جداً عندما علم أننى قريب من منزله وكانت أسماء بعض المدن قد جعلته يصفق فرحًا، عندما سألته عما إذا كان يرغب فى العودة كان رده "لا ... لا إننى أفضل الآن، ليس لى بيت سوى هذا المنزل وماذا يفعل أطفال سيدى بدونى؟ لقد مات وابنته ماتت، ومن الذى سيرعى الحديقة لزوجاته وبناته، إذا ذهب موسى؟ – لا إنه ما زال عبداً، وهو أفضل له ووطنه بعيد جداً وملىء بالأعداء، وهنا لديه منزل وأكل وفير حمداً لله وشكرًا" ومنذ شهرين أعطوه زوجة وظل حفل الزفاف ثمانية أيام، وكانت السرية لأحد تجار سكونا والمتجهة إلى السودان قد تركت بنتًا حاملاً وصارت أمًا ونالت حريتها وتزوجت موسى وصارا مسئولين عن أولاد سيدتها فى منزل خال للإقامة.

قضيت بعض الوقت كل يوم فى منزل الحاج محمد الهارى تريج وهو من أول أصدقائى فى فزان وكان يعيش فى القسطنطينية والقاهرة وكان يقضى بعض الوقت فى أى دولة باعتباره رجل مخابرات جيد وشيخًا مهذبًا، وتحدثنا عن صفات بوكالوم

الطيبة وأذرف الرجل العجوز الدموع على موته. وحقًا في كل أنحاء المنطقة الكل يبكيه مثلما هو في مدينته الخاصة، وهناك أغاني كثيرة لا تعد والتي جعلتني أجلس ذات يوم في حجرة الحاج العجوز، ما الذي يحدث في فزان الآن إن بوكالوم كان المسئول عن كل السكان وكان شابًا غنيًا متحررًا وشجاعًا ولا يستطيع أحد غيره أن يتحدث إلى الباشا من أجلهم، وكان عقله عظيمًا لدرجة أنه عندما كانت تفرض ضريبة على امرأة من فزان لا تستطيع دفعها وتحاول الهرب - كان يقوم بالوساطة، وعن طريق الهدايا للسلطان بدلاً من تاجر كان يقوم بدفع الضرائب من حسابه الخاص - لقد كان مكتوبًا أنه سيموت. الله عظيم وإرادة الله نافـذة.

لقد ظل السلطان الجديد اثنى عشر يومًا في طريقه إلى مرزوق، وحصل على خمسة آلاف دولار من سكان سكونا الفقراء، وقيد الشيخ من يديه ورجليه لمدة أربعة أيام حتى جمع المال. وقال الناس : "يا الله .. أنت دائمًا تأتي لا أحد يحضر دولارًا واحدًا إلى سوكنا سواك".

الجزء الثالث :

٥ يناير :

غادرنا سوكنا ومررنا على الحمام (EL Hammam) فى اليوم السادس واسترحنا فى وادى أورفيلى ، وفى الصباح انفصلت عن السيد كلابرتون ، حيث إننى كنت أرغب فى العودة عن طريق جيرزا (Ghirza) بينما كانت له الرغبة فى العودة من الطريق القديم عبر بونجم (Bonjem) ، لقد زودتنا الأودية المتصلة بالطعام والغذاء للخيول والإبل فى ذلك الوقت من العام ، وبالقرب من أسفل تلال الماغنسيوم والحجر الجيرى فى جيرنام (Gernaam) ملأنا القرب بالماء الذى يكفى لمسيرة خمسة أيام .

١١ يناير :

كان الصباح بارداً ، وكانت درجة الحرارة اثنتين وأربعين درجة، وهذا ما عطلنا حتى الساعة التاسعة قبل أن نبدأ السير وعبرنا على واديين قبل الوصول إلى المكان الذى نتوقف فيه ، وبالقرب من هذه الأودية التى تسمى جيدود (Gidud) وجدنا أكواماً من الأحجار ، وحيث وجدنا مكان اثنين من العرب الذين فقدا حياتهما فى إحدى المناوشات منذ شهرين ، مع بعض الحروف التى وجدناها محفورة باللغة الهيروغليفية بالقرب من هذه المقابر ، وبعد السؤال والاستفسار وجدت أنها تحكى قصة الموت والقبائل التى ينتمون إليها ، وعند غروب الشمس توقفنا فى بيدود .

لم يحدث شىء مهم حتى وصولنا إلى جيرزا فى اليوم الثالث عشر، وهنا وجدنا آثار بعض المبانى ، ويقال إنها رومانية ، وهى تقع على بعد ثلاثة أميال فى الجنوب الغربى للبئر والتى كانت تبدو لى شيقة ، وربما كانت هناك عدة مدن أو من المحتمل مدينة واحدة كبيرة تمتد لعدة أميال .

كما توجد بقايا آثار أربعة مبانٍ كبيرة يبدو أنها كانت آثاراً إسلامية رغم أن اثنين منها قد دمرا تماماً . وأعتقد أن هذه كانت شيقة وقادرة على إبرازها وقد صورتها لكن هيكلها الهندسى كان سيئًا رغم أنها كانت عواصم مختلفة مع وجود قمم مخروطية وطبقات متفرقة وبعضها غريب إن لم تكن عملاً رائعًا . وقد تم تصوير أربع لوحات من هذه الأعمال .

لقد حاول الدكتور يونج (Young) دراسة هذه اللوحات لكنه لم ينجح فى تحديد تاريخها المحتمل ، وقد لاحظ أن اثنين من هذه اللوحات (الأولى والثانية) تنتمى إلى أطفال لتخليد ذكرى آبائهم ، ويبدو أنها من وقت الإمبراطورية السفلى وكانت الأسماء كلها بربرية ، وأما اللوحات الأخرى فقد وجدت مبعثرة حول المنطقة .

١٧ يناير :

تحركنا على طول شياف (Shiaf) وهو وادٍ جميل يمتد عشرة أميال بين التلال الصخرية من الحجر الجيرى ، ووصلنا بعد ذلك إلى هانفاس (Hanafs) وتوففنا بعد خمسة عشر ميلاً ناحية الشرق ، حيث وجدنا بعض الآثار الأخرى من نفس الآثار الشبيهة بتلك الموجودة فى جيرزا ، وأمكن متابعة لوحتين لكنهما غير واضحتين وعفا عليهما الزمان .

وفى اليوم العشرين شاهدنا مرة ثانية بنييوليد (Benioleed) ، وفى اليوم الرابع والعشرين مررنا على ملجهرا (Melghra) ووادى تنسوا (Tinsowa) وكانت ملجهرا هى المكان الذى حصلنا فيه على إذن من الدكتور كلابرتون والمرحوم القنصل العام الهولندى فى طرابلس وكثير من أصدقائنا الذين اصطحبونا فى رحلتنا نحو الداخل ، وكانت عودتنا إلى نفس النقطة تحمل ذكريات جميلة وسارة . وأما صديقنا القنصل الإنجليزى فقد توقعنا اللقاء معه حيث إنه أرسل عربياً التقى بنا فى الليلة الماضية ومعه معلومات أنه سيغادر إلى طرابلس مرة ثانية لكى يرحب بنا .

وفى اليوم التالى وصلنا بترا التى تبعد عشرة أميال عن طرابلس ، وقبل أن نصل إلى هناك التقينا باثنين من (شاوشية) الباشا وأحد خدم القنصل . ووجدنا خيام القنصل لكن اضطررنا إلى العودة فى مهمة إلى المدينة ، وقد أكلنا بعض اللحوم المشوية وكميات ضخمة من الخمر فى الأكواب . واستسلمنا للنوم العميق عقب هذه الوليمة . وفى اليوم السادس والعشرين ، وعلى بعد عدة أميال من مقر إقامتنا التقينا بالقنصل وابنه الأكبر وكان رضاهم وسرورهم بعودتنا مثلنا تماماً . ودخلنا طرابلس فى نفس اليوم حيث تم إعداد منزل لنا ، وأرسل القنصل إلينا الضأن والخبز والفاكهة من أجلنا ومن أجل كل أصدقائنا فى الرحلة ، وشارك الرقيق والعبيد فى الطهى والأكل والغناء والاحتفالات حتى طلع الصباح وكانت البطون قد امتلأت تماماً .

لم يعد لدينا مهام نقوم بها عدا الاستعداد للرحيل مع كل حيواناتنا الحية والطيور والعينات الأخرى عن التاريخ الطبيعى ، والاستقرار مع المرافقين المخلصين لنا حيث غادر البعض منهم طرابلس معنا وعادوا للقيام بخدمتنا ، وكانت لهم أفضال علينا حيث خدمونا بكل إخلاص فى كثير من المواقف شديدة الخطورة . وإذا كنت أنا هنا أو فى أى مكان سابق فى هذه الرحلة قد تحدثت عنهم ومدحتهم مع كل الأهالى الذين التقينا بهم ، فإننى فقط وصفتهم كما وجدتهم من الرقة والإخلاص ، كما كانوا طيبى القلب وأمناء وعلى السليقة ، وحتى آخر ساعة فى حياتى سأظل أتذكرهم بكل إخلاص ومحبة ، وكان الكثيرون منهم أطفالاً غير مدربين وعلى طبيعتهم فى وسط أفريقيا والذين يمتلكون مشاعر ومبادئ تشرف المسيحيين الأكثر تحضراً .

لقد ظهر أن غيابنا الطويل عن المجتمع المتحضر قد ترك أثراً على طريقتنا فى الحديث رغم أننا لم ندرك ذلك إلا أن أصدقاءنا لاحظوا ذلك ، وحتى فى المحادثة العادية كانت نغمة الصوت عالية لدرجة قد تزعج من يخاطبنا ومرت عدة أسابيع قبل أن تتكيف أصواتنا بشكل يجعله متفقاً مع الممارسة العادية.

وبعد ذلك جهزنا الترتيبات مع القبطان الملكى الذى وجدناه فى ميناء طرابلس لكى ينقلنا إلى ليجـهورن (Leghorn) ، وقـد حـاولت من خـلال القنصل العـام أن ينقل إلى الباشـا رغبتى فى إطلاق حرية شاب من ماندرا كنت قد دفعت من قبل ثمن تحرره ، وهى الوسيلة الوحيدة التى يستطيع رجل مسيحى أن يتصرف بها من أجل تحرير عبد فى دولة إسلامية وفى الحال استجاب الباشا لطلبى [1] .

وبناءً على اقتـراح الكولونيل ورانجـتون عـرفنا أن الولد يرغب فى صـحـبتنا إلى إنجلترا وقـال بكل سـرور ، وبروح مـرحـة "دعه يذهب إلى هناك . إن الإنجليز لا يفعلون شيئًا خاطئًا فى كل مناسبة حاول هذا الأمير أن يقنعنا بأنـه كـان سـعيداً ومسـروراً لنجاحنا وسلامة عودتنا . وقد طلب من الكولونيل وارنجتون أن يعطيه الفرصـة للاحتفال به واسـتـجـاب له قنصلنا الكريم بكل حـفاوة وكـرم إرضـاءً للبـاشـا . وكـانت الشـوارع المؤدية من القلعة إلى القنصلية قد ازدانت بأغصـان أشجار البرتقال والليمون المليئة بالفاكهة، ووصل الباشا فى السـاعة التاسـعة مسـاءً يصحبه كل رجال بلاطه بكامل ملابسهم الرسمية ، وجلس على كرسى أعد له مثل كرسى العرش .

وبعد قليل من هذا الحفل تحركنا نحو ليجهورن ، وبعد أن عانينا من رياح شديدة وثقيلة من الشمال الغربى والتى أجبرتنا على التوقف عند إلبا (Elba) وصلنا فى خـلال ثمـانية وعـشرين يومًـا . وفى الأول من شـهر مـايو وصلنا إلى فلورنسـا حيث لقـينا كل

(١) هذه ترجمة (حرفية) لهذه الوثيقة :
الحمـد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وأتباعه ، لقد حررنا خليل ابن الإنجليز عبداً أسود يسمى عبد الله من ماندرا من أيدى عبد النيب بن عطية الطوارقة وذلك مقابل مبلغ ستة وثلاثين دولاراً أسبانيًا والتى تسلمها المدعو عبد الله من الريس خليل لكى يطلق سراح العبد السالف الذكر ، ولم يعد له أى نفـوذ عليـه ولا أى شـخص آخر ، وإن عبـد الله له مطلق الحرية فى التمتع بكل امتيازات ومزايا الشريعة المحمدية ، وفى حضورنا ونحن فى كامل وعينا وإمكانياتنا تحرر هذا فى ١٦ ربيع الثانى ١٢٤٩ من الهجرة .
محمد بن زين عابدين بن حمد بن محمد بن عمر – ومحمد بن حاجى سليمان . وقد تمت دعوة عائلات القناصل الأجانب الأوربيين لمقابلته بكل سرور ، واستقبل زوجات قناصل بريطانيا وأسبانيا فى الغرفة العلوية بكل حفاوة واستدعائى مع الكابتن كلابرتون . للذهاب إليه حيث رحب بعودتنا ترحيبًا بالغًا مثلما يفعل ملكنا فى إنجلترا . ولا يوجد أى تصرف من الباشا يبرز الثقة الكبرى فى الإنجليز أو إظهار صداقته وحبه مثل زيارة من هذا النوع .

رعاية واهتمام من اللورد (مورجيرشا) ، وقد أرسلنا الحيوانات التى معنا والأمتعة التى أرسلناها إلى الوطن من ليجهورن تحت إشراف وليم هيلمان فضلاً عن رفاقنا الباقين على قيد الحياة .

وقد عبرت أنا والكابتن كلابرتون جبال الألب . وفى الأول من يونيه أعلنّا عن وصولنا إلى إنجلترا إلى اللورد (باثورست) الذى كان قد أرسل البعثة تحت إشرافه ورعايته .

فصل تكميلى

عن بورنو

بورنو مملكة فى وسط أفريقيا ، وحسب موقعها الحالى فإنها تقع ما بين خطى ١٢ْ ، ١٥ْ، من خطوط العرض الشمالية وخطى ١٢ْ ، ١٨ْ من خطوط الطول ، وتحدها كانم مع جزء من الصحراء شمالاً ، وفى الشرق تحدها بحيرة تشاد التى تغطى آلاف الأميال من الدولة كما تضم العديد من الجزر العامرة بالسكان ، وتحدها من الجنوب الشرقى مملكة لوجوم ونهر شارى الذى يفصل بورنو عن مملكة باجرمى ، وتفقد جزءاً كبيراً من مياه الدولة فى مياه بحيرة تشاد ، وفى الجنوب توجد ماندرا وهى مملكة مستقلة تقع أسفل سلسلة من الجبال ، وفى الغرب توجد السودان . ودرجة الحرارة بها عالية لكنها ليست منتظمة فى شهر مارس حتى نهاية شهر يونيه وهى الفترة التى تصل فيها الحرارة إلى ذروتها . وفى هذا الموسم وبعد الظهر بساعتين ترتفع درجة الترمومتر إلى ١٠٥ْ أو ١٠٧ْ ، وتسود رياح خانقة من الجنوب والجنوب الشرقى ، وكانت الليالى مخيفة جداً ولم ينخفض الترمومتر عن درجة مائة حتى ساعات قليلة قبل منتصف النهار عندما تصل إلى ٨٦ْ وهو مبعث الانتعاش ، وعند منتصف شهر مايو تهب على بورنو عواصف رعدية وبرق وأمطار إلا أنه فى مثل هذه الحالة يتم تبخر المياه بسرعة لدرجة أن السكان لا يشعرون بالضيق فى هذا الموسم . ويحدث البرق دماراً للماشية والسكان ، وهم الآن يجهزون الأرض لزراعة محصول القمح، وهم يعدون الأرض قبل نهاية شهر يونيه عندما تبدأ البحيرات والأنهار فى الفيضان . ومن مناطق مسطحة بسيطة تتحول عدة أميال من الدولة إلى بحيرة واسعة مليئة بالماء ، وتغطى الأرض تقريباً مياه الأمطار المستمرة وطقس حار . فالرياح حارة وقوية وغالباً تهب من الشرق والجنوب .

وفى شهر أكتوبر يبدأ موسم الشتاء ، والأمطار قليلة والمحصول يتم جمعه قرب المدن ، والهواء معتدل ومنعش والطقس جاف ، وتهب نسائم عليلة من الشمال الغربى مع جو نقى ، ومع حلول شهر ديسمبر وفى بداية شهر يناير تكون بورنو أكثر برودة عما هو متوقع ، ولا تقل درجة الحرارة فى أى جزء من الدولة عن ٧٤ْ أو ٧٥ْ درجة ، وفى الصباح تهبط الحرارة إلى ٥٨ْ و ٦٠ْ درجة .

إن هذه الرياح الباردة التى تهب من الشمال والشمال الغربى هى التى تعيد الصحة للسكان الذين يعانون أثناء الطقس الرطب من هجمات الحمى المخيفة والملاريا التى تحصد أعداداً كبيرة منهم كل عام . والسكان يتزايدون ، وتصل المدن الرئيسية إلى ثلاث عشرة مدينة . ويتحدث سكان الإمبراطورية عشر لغات مختلفة ، أو لهجات من نفس اللغة .

لقد جلب السكان (الشوا) اللغة العربية التى يتحدثونها بطلاقة ، وينقسمون إلى عدة قبائل ، تحمل نفس الألقاب الرئيسية للبدو فى مصر ، وهم مخادعون وأصحاب دهاء ، ومشهورون بكتابة التعاويذ ، ومن خلال الادعاء بالقدرة على التنبؤ يجدون سهولة فى دخول منازل السكان الزنوج فى المدن حيث يظهرون قدراتهم ، ويوجد تشابه شديد بينهم وبين قبائل الغجر مع شبه قوى فى العادات والملامح، ويقال إن بورنو تستطيع أن تجهز ١٥,٠٠٠ من الشوا المستعدين للحرب ، وهم من أعظم مربى الماشية فى الدولة، ويزودون السودان سنوياً بألفى أو ثلاثة آلاف حصان .

وشعب بورنو أو الكاتورى ، كما يسمون ، وجوههم عريضة مع أنوف مفلطحة ، وأفواه ذات أبعاد واسعة ، وأسنانهم جميلة والجبهة عالية وهم شعب مسالم هادئ ومتحضر ، ويحبون بعضهم بعضاً ويتعاملون بكل أدب واحترام ، وروحهم لطيفة كما أنهم ليسوا محاربين لكنهم يحبون الانتقام ، وهم شديدو الخجل لدرجة أن أحد العرب تحدث بخشونة إلى أحدهم ، فما كان منه إلا أن جاء فى اليوم التالى ليسأل عما إذا كان يرغب فى قتله – وحيث إن دولتهم لا تنتج إلا القليل من الحبوب فضلاً عن انعدام الصناعة ، فإن هذا يجعل تجارتهم الخارجية معدومة. وطريقتهم فى الحياة بسيطة جداً، والطبق المفضل عند السلطان هو الدقيق المصنوع على شكل فطيرة محلاة بالعسل والزبدة ، ولا يعرفون استخدام الخبز وعلى هذا لا يزرعون إلا قليلاً من القمح ولا يوجد إلا فى منازل كبار القوم، والشعير نادر أيضاً ، ويزرع القليل منه بين أشجار القمح .

أما المحصول الأكثر شيوعًا والذى يستخدم كغذاء للحيوانات فهو نوع من الدخن يسمي العشب gussub وينمو هذا المحصول بكميات كبيرة وبدون أى مشكلات حيث يأكله الفقراء طازجًا أو مجففًا فى الشمس ، وهذا يكفيهم كغذاء وحيد لعدة أيام، وعندما يتم غليه فإنه يؤكل مثل الأرز أو تصنع منه عجينة لكن هذا نوع من الترف .

ويتم زراعة أربعة أنواع من الفول بكميات كبيرة وتسمى باسم جافولى (gafooly) حيث يأكله العبيد والناس الفقراء ، وفى المدن قرب النهر توجد عجينة مصنوعة مع السمك ، وهى الوجبة المفضلة فى الأكل ، وهم نادراً ما يستخدمون الملح ، وربما يزرعون الأرز فى بورنو قبل أن تصبح مسرحًا لعمليات حربية فى الخمس عشرة سنة الماضية التى اجتاحت الدولة ، ويحصلون عليه الآن من السودان ، وفى المناطق المجاورة لموفاتيا (Muffatia) تنمو كميات قليلة إلا أن أرز بورنو من نوعية أقل جودة ، وأما المحاصيل التى تجود فى التربة هناك فهى القمح الهندى والقطن والنيلة وينمو المحصولان الأخيران بريًا بالقرب من تشاد والأراضى التى تغمرها المياه ، والنيلة من نوع راق ويستخرجون منها الصبغة التى تستخدم فى صباغة الأقمشة (وهو الزى الوحيد الذى يلبسه الناس) ولونه أزرق غامق لا يفوقه أى لون فى أى جزء فى العالم ، ويوجد أيضًا نبات السنا (Senna) الذى يتواجد بريًا وبكثرة ، والفأس هى الأداة الوحيدة فى الزراعة ، وتصنع من الحديد الموجود فى جبال ماندرا ، وتعتمد الزراعة أساسًا على النساء ، حيث يتم جمع المحصول خلال شهرين أو ثلاثة من بذره فى الأرض (لأنه من النادر زراعته) ولا توجد أية منطقة فى بورنو خالية من الفاكهة أو الخضروات، وتنمو المانجو أيضًا فى المناطق المجاورة لماندرا وناحية الغرب باستثناء بعض أشجار الليمون وأشجار التين فى حدائق الشيخ فى كوكا والتى يقوم بزراعتها خمسون زنجيًا ، ولا توجد أية فواكه أخرى فى أى مكان فى الدولة . وتوجد أشجار النخيل جنوب وودى التى تبعد مسيرة أربعة أيام عن كوكا حيث تزداد كثافتها – لكن انتاجها قليل ، وينمو البصل بالقرب من المدن الكبرى فقط ولا توجد خضروات أخرى ، ولا يملك السكان أكثر من الضروريات الأساسية للحياة ، وهم أقوياء فقط بعدد الرقيق لديهم فضلاً عن الثيران والخيول . وتتكون ملابسهم من اثنين أو ثلاثة أرواب أو قمصان طويلة حسب وسيلة الشخص الذى يرتديها بالإضافة إلى قبعة زرقاء داكنة

يرتديها أصحاب المناصب . والغالبية العظمى تسير عارية الرأس كما أن الرأس دائماً خالية من الشعر فضلاً عن كل جزء من الجسم ويحملون صولجاناً طوله ثلاثة أو خمسة أقدام ، ويضعونه على الأرض فى كل خطوة عند السير بوقار وخلفهم اثنان أو ثلاثة من العبيد ، ويجلب تجار طرابلس ومسراته القبعات الحمراء لكن يشتريها السلاطين فقط مع الخدم المقربين لديهم . وهم مسلمون ويؤدون الصلاة بانتظام والوضوء خمس مرات فى اليوم . وهم أقل تسامحاً من العرب ولقد عرفت رجلاً من بورنو رفض أن يأكل مع أحد العرب لأنه لم يتوضأ ولم يؤد الصلاة فى الوقت المحدد للصلاة .

وفى مدن بورنو يوجد الكثيرون من الحجاج الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج فى مكة ، ويتفقون فى كتابة حروف اللغة العربية فضلاً عن تدريسها للآخرين .

مع ذلك فإنه من الغريب أن كل قافلة تغادر بورنو فى طريقها إلى فزان (وهو الطريق الوحيد الآن) تحمل عدة نسخ من "القرآن الكريم" والذى نسخه فقهاء بورنو لكى يبيعونه فى بلاد البربر أو فى مصر بما قيمته أربعين أو خمسين دولاراً للنسخة الواحدة ، ويستخدمون الحروف العربية للتعبير عن لغتهم الخاصة ، وكل رئيس يضم واحداً من الفقهاء الذين يكتبون الرسائل من إملائه بكل سهولة .

نادراً ما يتزوج الرجل زوجتين أو ثلاثة فى وقت واحد حتى الأغنياء ، ويطلقونهم فى الغالب وقتما يرغبن بعد دفع مؤخر الصداق ، وتكتفى الأسر الفقيرة بزوجة واحدة . والنساء نظيفات بشكل خاص لكن مظهرهن ليس لطيفاً ، فالأفواه واسعة والشفاه غليظة جداً والجبهة مرتفعة ، كما أن طريقة تصفيف الشعر أقل اهتماماً من أى دولة زنجية شاهدتها ، حيث يوضع الشعر فوق قمة الرأس فى ثلاث لفات سميكة إحداها كبيرة ، فى المنتصف واثنتان صغيرتان على كل جانب فوق الأذن مباشرة ، وتتصلان فى نقطة على الجبهة ، وتدهن بشمع العسل والنيلة الكثيفة . ومن الخلف يكون الشعر منساباً مثل ذيل ذكر البط .

أما الطقوس أو الطوطمية المشهورة والمعروفة عن كل الأمم الزنجية فى هذه العروض فإنها غير موجودة بشكل خاص هنا ، والبورنيون يقومون بعمل عشرين ندباً (شرخاً) أو خطاً على كل جانب من الوجه والتى ترسم من أركان الفم نحو زوايا الفك

الأسفل وعظام الخد ، ومن المؤلم حقًا أن تشهد الأطفال الصغار وهم يتألمون من هذه الندوب فضلاً عن الآلام نتيجة هجمات ملايين الذباب، وتوجد ندبة واحدة على وسط الجبهة ، وستة ندوب على كل ذراع ، وستة على كل رجل وفخذ ، وأربعة على كل صدر ، وتسعة على كل جانب أعلى الأرداف مباشرة .

والنساء متواضعات لا يقتربن من أزواجهن إلا ركوعًا على الركب ، أو يتحدثن لأى من الرجال ، والوجه والرأس مغطى، وعندما يتم دعوتهن إلى سرير الزوجية فإنهن يدخلن حفاة .

وقبل الزواج يوجد نوع من الغيرة أكثر مما بعده وعندما يعلن مرشحان نفسيهما لسيدة واحدة ، ويسمح لهما بالقيام بالزيارة (والتى لا تزيد عن الحوش الداخلى عندما تدير السيدة المنفردة ظهرها ويتحدث المرشح إلى الأم) وكل واحد يشاهد حركات الآخر ولكن خلسة لأن مثل هذه التصرفات تنم عن سوء التربية .

وحتى نكون صادقين فإن أحد المرشحين يجب أن يدخل بينما يحث المنافس له دون وعى بدخوله ، وكلاهما يفاجأ بظهور المنافس ، وفى الحال يبرز كل واحد منهما الخنجر المحمول على ذراعه الأيسر ، ويعلن أحدهما أن حبه لا يصل إلى مرحلة العراك من أجل محبوبته ، وفى هذه الحالة يقوم المنافس الشجاع بالخروج بسرعة من الحوش ، وفى الغالب تحدث معركة منفصلة بين المتنافسين لعدة دقائق وبالطبع يكسب المنتصر الجولة ويفوز بالفتاة .

وجريمة الزنا ليست شائعة ، والعقاب قاسٍ جداً إذا تم القبض على المجرم وهو فى مكان الجريمة وهذا هو الدليل الوحيد الذى يحدد التهمة ، ويتم ربط المجرمين من الأرجل والأقدام ، ويلقى بهما على الأرض ، ويقوم الزوج الذى انتهكت حرماته مع أقاربه من الذكور بضرب المتهمين وتحطيم رؤوسهم .ومن النادر أن تتزوج الفتيات حتى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة وليس هذا السن صغيراً لأن سن البلوغ فى هذه المناطق لن يحدث فى هذه الفترة المبكرة مثل بلاد البربر ، حيث تصبح النساء أمهات فى سن الثانية عشرة أو الحادية عشرة ، وفى بورنو لم تعرف مثل هذه المناسبات لأن حمل المرأة فى اثنين نادر ، ومن الصعب أن تنجب أكثر من ذلك .

والكلاب وهى الحيوانات المستأنسة وكذا الضأن والماعز والبقر وقطعان الثيران وهى أمور لا حصر لها . ويوجد لدى الشوا على شواطئ بحيرة تشاد أكثر من ٢٠,٠٠٠ من القرى المختلفة بينما يوجد على شواطئ نهر شارى العظيم ضعف هذا العدد. وهم أيضًا يربون أعدادًا ضخمة من الخيول التى تزود أسواق السودان خاصة حيث يعد هذا الحيوان أقل قيمة .

أما الطيور الداجنة فهى شائعة وهى أرخص الأشياء التى يمكن شراؤها ، وتستطيع أن تشترى أربعين دجاجة وهى صغيرة الحجم لكنها طيبة المذاق . والنحل كثير جدًا لدرجة أنه يعرقل الرحالة فى بعض الأماكن ، ويجمع العسل بشكل خاص ، كما أن هذه الحشرة المزعجة وهى الجرادة موجودة وتضايق الرحالة حيث تظهر جماعات ضخمة منها فى الهواء ، ويحاول الأهالى من خلال الصياح والأصوات المزعجة منعها من النزول إلى الأرض . وفى كل مكان يحل به الجراد فإن كل جزء أخضر يتعرض للالتهام بسرعة، ويقوم السكان بأكلها سواء مشوية أو مسلوقة ، وتشكل منها عجينة .

وأدوات التسلية كثيرة ، ويتم اللعب مع حيوانات تشبه الغزال الصغير وكذا البط والإوز البرى والنعام الذى يقدد لحمه اللذيذ . وتوجد أعداد ضخمة من الغربان والبجع الذى يتواجد فى المستنقعات ، كما تعج الغابات بطيور غينيا. وتوجد حيوانات برية مثل الأسد الذى يوجد فى الموسم المطير على أسوار المدن . كما تتواجد أعداد كبيرة من النمور والقطط فى المناطق المجاورة لماندارا، وتتواجد أعداد كبيرة من الثعالب والقرود ذات الألوان البنية والسوداء والفيلة التى تتواجد بكثرة بالقرب من بحيرة تشاد ، وهى تسير فى جماعات ما بين خمسين إلى أربعمائة ، وهم يصطادون هذه الحيوانات أو يقتلونها من أجل الحصول على لحمها فضلاً على العاج من أسنانها . كما أن الجاموس ذا اللحم اللذيذ له مذاق خاص .

وتتوافر التماسيح وفرس النهر بأعداد ضخمة ويؤكل لحمها أيضًا ، وأما لحم التمساح فإنه لذيذ الطعم جدًا ولونه أخضر ودسم ويشبه السلحفاة ، ويقوم صيادو الجاموس بصيد الزراف فى الغابات المجاورة للأراضى فى المستنقعات والقريبة من بحيرة تشاد .

وتتكاثر الأفاعى وتوجد أنواع عديدة من الثعابين والضفادع الكبيرة ، ونوع من الثعابين غير الضارة من نوع الكونغو يصل طولها من أربعة عشر إلى ستة عشر قدماً ، أما دواب الحمل التى يستخدمها الأهالى فهى الثور والحمار الذى يتواجد من سلالة جيدة فى تلال ماندارا ، أما الإبل فإنها فى حوزة الرؤساء والغرباء الذين يخدمون الشيخ أو السلطان ، والثور هو الذى يحمل كل الحبوب والسلع الأخرى من وإلى الأسواق ويوضع عليه سرج صغير وتملأ أكياس مصنوعة من جلد الماعز بالقمح وتوضع على ظهره القوى العريض وتوضع قطعة من الجلد عبر أنفه لتكون بمثابة لجام عندما يركب صاحبه وزوجته أو عبده ، وأحيانًا تركب ابنة أو زوجة أحد الشوا الأغنياء على ظهر الثور الخاص ، وهذه تسبق الحيوانات المحملة ، وهى مزينة بحلقات من الفضة والعنبر والمرجان ، وكل أنواع الزينة التى توضع حول أعينها ، ويوضع سجاد أو أثواب على ظهرها ، وبكل رشاقة يقاد الحيوان من خلال أنفه ورغم طبيعته المسالمة ، فإن غرورها يمكنها من تعذيبه .

ويبلغ ثمن الثور الجيد ما بين ثلاثة دولارات أو ثلاثة ونصف . والقوانين فى بورنو استبدادية والعقوبة واجبة ، ويعاقب القاتل بالإعدام ويسلم المتهم إلى أقارب صاحب الحق لكى ينتقم لموته بالهراوة . ويعاقب السارق الذى يكرر السرقة بقطع يده أو يعرض جسده للشمس المحرقة لمدة اثنتى عشرة ساعة أو ثمانى عشرة ساعة ، أو التعرض لأعداد ضخمة من الذباب أو البعوض ، وعندما يرفض شخص دفع ديونه وعنده الوسيلة الكافية فإن القاضى يقوم بالاستيلاء على ثروته ، ويدفع المطلوب للمستحق ويأخذ نسبة معقولة مقابل أتعابه ، ومع هذا لا يستمر طويلاً حيث يوضع على ظهره حتى يعطى الأمر ومع هذه المشاكل يدفع للقاضى بسخاء ، ومن النادر أن يوضع أى إنسان فى هذا الموقف مرتين .

ومن جهة أخرى إذا وقع إنسان فى دين ولم يستطع الدفع بسبب فقره فإنه يطلق سراحه ، ويقول القاضى عندئذ "الله يعينك" ويقول المارة "آمين" ويكون المفلس حراً فى المتاجرة حيثما يرغب ولكن إذا حدث فى أى وقت فى المستقبل أن قبض عليه الدائنون وهو يرتدى ثوبين أو قبعة حمراء فإنهم يأخذونه أمام القاضى مقابل دفع الديون . ويمكن أن يقدم الرعايا التماسات ضد القضاة إلى الشيخ إما شخصياً أو من خلال الرعايا، وفى هذه الحالة تناقش القضايا من جديد بكل صراحة .

إن بلاط الشيخ بسيط رغم أن عدد الحاضرين كثير جداً ، وفى أيام معينة من الأسبوع وحتى وقت صلاة الظهر يجلس الشيخ فى حوش بلاطه خارج سكنه الخاص ويقترب كل رعاياه من مجلسه ، والكل فى حالة من الارتياح فى التعبير عن آلامهم . ويجلس حكام مختلف المديريات أمامه مباشرة ، ويعرضون قضايا الشهود دون الحديث ، وتصدر القرارات فوراً وعند الحكم بالإعدام تجرى إشارة باليد لإظهار هذا الحكم وتنفيذه فوراً ، وعن طريق الهمس تناقش الثروة التى توضع بعد الحكم لصالح صاحب الحق .

والشيخ شغوف بتشجيع الزواج ومحاربة الانحلال الأخلاقى بين رعاياه ، وسكان بورنو نتيجة التضحيات الكبرى منذ تولى الشيخ فى تناقص كبير رغم أنهم بدأوا فى الزيادة بعد ذلك، وكانت قوة الشيخ الشديدة قد كشفت أن الشوا الذين يقتصرون فقط على زوجاتهم وعموماً زوجة واحدة يفوقون السود فى الإنجاب ، وأن سوء أخلاق الآخرين هو السبب المحتمل لهذا السقوط وأن قسوة هذا الرئيس على الذين يسقطون فى غرام الجنس اللطيف هى العذر الوحيد، وكان الانحلال العام فى الأخلاق قد زاد من الجشع بين الجميلات رغم أن هذا لم يصل إلى مستوى السيدات فى العالم الغربى .

وخلال إقامتى عرضت قضية من هذا النوع أمام المجلس ، وتم حبس رجل لأنه أعطى إزارين أزرقين مقابل قميص كهدية للزفاف عندما يكون الرجل فى وضع مساو للسيدة ، ورغم هذا أعلن أنه لن يوافق على تسوية بسيطة ومع ذلك لم تسلم السيدة دون محاضرة فى جشعها وأفكارها ، وتم تهديدها بأن رأسها سوف تحلق إذا سمعت أية شكوى منها بعد ذلك .

وهناك شكل معروف فى احتفالات الزواج والتى توثق بعقد محدد ، ويحدد العريس والعروسة ممثلاً لكل واحد منهما يتم الرجوع إليه إذا حدث سوء تفاهم ، ويطالب بالعدالة لكل واحد منهما ، لأنه رغم أن الزوج له سلطة الطلاق على زوجته دون إبداء أسباب وحسب هواه - لكنه يدفع المهر إلا أن السيدة تستطيع أيضاً أن تطلب حريتها فى ظروف معينة ، فمثلاً إذا نام الزوج ليلتين مع زوجة أخرى ، وللزوج حق الاستئناف ومع ذلك فإنها تعرض قضيتها برقة أمام القاضى حيث تدخل المحكمة منقبة

وتقلب حذاءها بشكل يعتبر كافياً لشرح طبيعة التهمة ، ويدرس القاضى القضية دون أن يسأل أى سؤال .

وعندما تحدث هذه المساوئ المنزلية فإنها تعزى إلى القدر ، وإلى بعض ألوان السحر التى يجب القيام بها عند الزواج ويجب رش الماء الدافئ بالملح فى كل ركن من أركان المسكن لمنع الأرواح الشريرة ، ولو تدخل أى شخص بين العروسين فإن قوته سوف تنهار فى لحظة وأيضًا يجب على الزوج ألا يغفل عند دخول شقة الزوجة بعد الزواج أن يطرق على الباب لأن أصدقاء العروس دائمًا يخفون حذاءً هناك حتى يمر تحت قدمها كما يقولون ، وإذا دخل دون أن يجده فإن قدمها ستكون على رأسه .

والمدن واسعة عمومًا ومشيدة بشكل جيد وحولها أسوار يصل ارتفاعها إلى خمسة وثلاثين أو أربعين قدمًا ، ويصل سمكها إلى حوالى عشرين قدمًا ، ولها أربعة مداخل وثلاث بوابات لكل مدخل ، والبوابات مصنوعة من كتل خشبية صلدة يصل سمكها ما بين ثمانية أو عشرة بوصات ومثبتة معًا بقطع ثقيلة من الحديد . وتتكون المنازل من عدة أحواش بين أربعة جدران مع شقق أو حجرات توصل إلى العبيد ، مع وجود ممر ثم حوش داخلى يوصل إلى مساكن الزوجات التى تعيش كل واحدة منهن فى مكان خاص بها محاط بأسوار مع كوخ جميل مغطى بالحصر . ومن هذا المكان تصعد سلمًا واسعًا من ست درجات يؤدى إلى سكن المالك والذى يتكون من مبنيين مثل البرج مع شرفة توصل بينهما . والحيطان مصنوعة من الطمى الأحمر الناعم ، والأسقف مغطاة بالأغصان وفروع الأشجار والأعشاب وتستخدم قرون الغزال والظباء بدلاً من المسامير وهى تثبت فى أجزاء مختلفة من السور ويعلق عليها الدروع والحراب لدى الرئيس . ويمتلك الشخص صاحب المقام الرفيع أربعة من هذه الشقق لزوجاته داخل هذه المناطق ، وعادة يسمح للخيول والحيوانات الأخرى بمكان خاص عند مدخل هذه الأحواش لكن المساكن من هذا النوع ليست شائعة ، وعمومًا تتكون مساكن الأهالى من أربعة أنواع .

الكوزى Coosie – وهو كوخ مبنى من القش تمامًا ، والبنجو (Bongo) – وهو كوخ له أسوار من الطمى الدائرى ومغطى بالقش والنوعين الآخرين وهما نجوم كونامى

وفاتوسودجباى (Fatto Sugdeeby) ، وهى أكواخ من الحصرالخشن المصنوع من الحشائش التي تنمو قرب البحيرة . وتسمى المساكن التى قطنًا بها بونجوز (Bongos) وقطرها حوالى ثمانية أقدام من الداخل وبها فتحة من أسفل ارتفاعها حوالى قدمين ونصف لكي يزحف إليها أو يخرج منها . وكنا نستعين بمجبرين عن الهواء أو فتحات الإضاءة لأنهما لا يسمحان بمرور الذباب والناموس الذى يعد أسوأ من الظلام .

أما أدوات المنزل فهى قليلة وتتكون من أوانى فخارية يصنعونها ببراعة للطبخ مع أواني خشبية تعمل كأطباق ، ويعد الماء المشروب الوحيد ، ويشربونه فى أوانى كبيرة مصنوعة من القرع الذى ينمو بريًا قرب الأنهار بعد أن يبرد فى زلع من الطين ، وهم ينامون على حصير مغطى بجلود الحيوانات ، والنساء المتزوجات يعتقدن بالخرافات بشكل كبير ويطالبن بأن تغطى الأسرة بجلود من حيوانات خاصة عندما يقوم الأزواج بزيارتهن ، ولا يتوقفن عن التنبؤ بمصير الطفل حسب هذه الترتيبات ، ومن المؤكد أن جلد الظبى أو الأسد سوف يساعد على إنجاب ولد أو عدم إنجاب شىء ، ولو كان الأب جنديًا ورئيسًا فسوف يكون الولد محاربًا شجاعًا لكنه دموى ، ويقال إن جلد الأسد يمنع حمل الطفل كلية لكن أحيانًا تحدث استثناءات لهذا وفى الغالب يكون ولدًا مدهشًا . وهم يحضرون الوسائد الجلدية من مختلف الألوان والزينات من السودان ، وتستخدم كوسائد للرجال من الطبقات العليا ، والذين يمتلكون سجادًا تركيًا يجلسون أو ينامون عليه ، ويبلغ سعرالواحدة ثمن إحدى الجوارى .

ووسائل تسلية الشعب تتمثل فى اللقاء يوميًا فى المساء إما فى أحواش أحد المنازل الكبرى أو تحت مكان مظلل مصنوع من الحصير فى المكان المكشوف فى المدينة حيث تقام الصلوات فى ساعات محددة تحت إشراف إمام أو رجل دين . وهنا يتحدثون ويلعبون ألعابًا مسلية مثل الطاولة أو تشكل اثنتى عشرة حفرة فى الرمل ويستخدمون الفول فى اللعبة التى يلعب العرب مثلها ، ولكن بأثار الجمال فى الصحراء إلا أن البورنيون أكثر مهارة .

ومثل الطيور ينتهى اليوم عندهم مع غروب الشمس - لكن عدداً قليلاً منهم يستمر فى التسلية تحت ظل مصباح مصنوع من الحديد وممتلئ بدهن أحد الثيران حيث لا يوجد زيت عندهم .

ويعد الصابون سلعة يحتاجون إليها كثيراً وعن طريق عصير زيتى يستخرجونه من جذع أحد الأشجار يشبه الصمغ ، وهذا يساعد شعوب السودان على صنع صابون خام يخلطونه مع دهن الثيران .

وهدية السلطان عبارة عن حوض صغير من النحاس يستخدم للشرب ، ويمكن شراء الواحد بأربعة أو خمسة دولارات أو بثوب من السودان، والذهب نادر ولا يوجد فى هذه المناطق كما أنهم لا يجلبونه ، والطوارق هم التجار الوحيدون الذين يزورون السودان ويتاجرون فى هذا المعدن الذى يحملونه إلى أرض الزنوج ومصر . ويقال إن الشيخ يحتفظ بكمية وصلت إليه مباشرة من السودان .

ويتم الحصول على الحديد من جبال ماندارا لكنه ليس بكميات كبيرة وهو خام ، أما أحسن أنواع الحديد فإنه يأتى من السودان ، ويصنع فى هذه الدولة على شكل أوانى أو غلايات ، والعملة فى بورنو مصنعة محليًا ، وتوجد أيضًا شرائح من القطن عرضها ثلاث بوصات وطولها ياردة تسمى جوبوك (gubbuk)، وثلاث أو أربع أو خمس منها حسب نوع النسيج تشكل الرطل ، والعشرة أرطال تساوى دولاراً .

أما عن المناخ فيمكن أن نقول إنه صحى مثل أى دولة أخرى فى المنطقة الحارة، بل وأكثر تفضيلاً لدى الكثيرين لكن يخشاه العرب خاصة فى الموسم المطير ولهم فى ذلك حجتهم، ولكن حيث إن السودان أكثر أمراضًا فتظهر سلسلة من الموجات الحارة والجافة والرطبة التى تخفف المناخ، وكل أرض الدولة مسطحة، ويغطى الجزء الأكبر منها أعشاب سميكة، وأعشاب طويلة خشنة ونباتات طفيلية.

أما مدينة (كوكا) فهى مقر إقامة الحاكم الحالي لبورنو وهى معروفة بأنها أكثر أجزاء المملكة من الناحية الصحية، ومياهها عذبة وهواؤها أنقى وخال من الرطوبة عدا الشهور المطيرة عندما تستمر عمليات البخر ويظل البارومتر ثابتًا طوال السنة ولا يختلف كثيراً عن عشر البوصة.

ويقال إن وديان ماندرا – وأعتقد أنا كذلك – صحية ؛ فهى واسعة وممتدة، ومجرى المياه واسع عموماً يمتلئ بالمياه الجارية والرياح لطيفة، ومدينة موسفياMusfeia تبعد تسعة وسبعين ميلاً عن مدينة مورا Mora وتقع عند خط ١٦ و ٩ْ – وهى تضارع فى سكانها جنساً لطيفاً رغم أنهم من الفلاتا الذين يدافعون عن أنفسهم بكل شجاعة وذكاء ضد أعدائهم من الأمم الزنجية المحيطة بهم.

أما حكومة بورنو فكانت ، حتى خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة ، ملكية منتخبة مطلقة ، وأحياناً يتقلد الأخ السلطة ويستبعد الابن.

وقد صار حشمت على Achmet Ali الذى يرجع إلى سلالة من أصول ملكية سلطاناً فى عام ١٨٠٨ ويعضده شعب قوى لعدة سنوات جاء من الغرب ويدعون الفلاتا (الفولاتى) وكانت هناك فكرة عن أهمية إمبراطورية البورنو التى تمتلك ثمانين ألفاً من العبيد المحاربين، وعند الاستعداد للحرب يطلب من الرؤساء إرسال حصتهم للمعركة لخدمة الدولة، حتى يكتمل العدد، وهكذا تُدفع الضريبة، وكانت كانم ووادای ودارفور ناحية الشرق، وأفنو أو السودان ناحية الغرب حتى وقت قريب تابعين لسلاطين بورنو بينما فى الجنوب فإن نفوذهم يمتد لأكثر من نصف الدولة، حيث دعموا وجودهم فى السودان ويتولى بلو الحكم، ويفرض سلطانه على عدد كبير من السكان السود الأقوياء .

ورغم ذلك فلم يتمكن الفلاتا من السيطرة والتمتع بالحكم فى هذه المنطقة التى سيطروا عليها بالغزو، بل صاروا سبباً فى وصول الأسرة الحالية لحكم بورنو فى شخص الأمين بن محمد الكانيمى، وهو رجل دين تولى السلطة فى المملكة بنوع من الدكتاتورية وأحياناً بالانتخاب، وكان يستمد سلطته بقوة إلهية وصلت إلى درجة الطغيان، وكان قد ولد فى (فزان) من أبوين من كانم رغم أنه من ناحية والده فهو من سلاله مغربية، وكان الأمين بعد أن زار مصر قد تقدم نحو كانم كشيخ يحفظ القرآن حيث أحبه الناس واحترموه بسبب استقامة حياته وطيبة خلقه، ونتيجة للمعجزات التى يعالج بها الناس من خلال التعاويذ التى انتشرت فكرتها فى كل أرجاء الدولة.

وبعد غزو بورنو مباشرة وضع الكانيمى خطة لتخليص هذه الدولة من العبودية التى وقعت فيها ، وحث الكانمبو على مساعدته من خلال قصة محكمة بأنه تلقى رؤيا للقيام بهذا العمل، وبدأ أولى حملاته بأربعمائة من الأتباع ، وهزم جيش الفلاتا (الفولاتى) الذى يبلغ تعداده ٨,٠٠٠ رجل قوى ، بعد هذا النصر قرر مواصلة الغزو ، وفى أقل من عشرة أشهر انتصر فى أربعين معركة.

لقد منحته الطبيعة صفات ومؤهلات القائد العظيم، وعبقرية صادقة ورأياً سديداً، وهو ليس رجلاً مغروراً وإن كان أكثر طموحاً لدرجة أنه رفض أن يحمل لقب سلطان، ووضع (محمد أفو) السلطان أشمث على العرش، وقدم له فى البداية فروض الطاعة والولاء، وأصر على أن يتبع كل الجيش فى سنته، وبنى الشيخ للسطان محمد مقر إقامته الحالى فى نيو بيرنى New Birnie واستقرهو نفسه فى مدينة أنجورنو التى تبعد ثلاثة أميال وتخلى عن قيادة المملكة مؤقتاً.

وكانت هذه البداية أيضاً مناورة سياسية من جانب الشيخ لكن عقله الطموح لم يكن يستقر عند مثل هذا الترتيب .

والآن ، أسرعت كل جموع السكان إليه ، وأبدت استعدادها لمنحه كل السلطات العليا، وقوة لدعمه وتأييده، وكانت أولى عروض المساندة له تتمثل فى تزويده بعشرين حصاناً كل يوم حتى تم تنظيم قوة منتظمة ، واستمر هذا الدعم لمدة أربع سنوات .

والآن رفع العلم الأخضر رمز الرسول الكريم ورفض كل الألقاب عدا لقب (عبد الله) أو خادم الله، وبعد أن حرر الدولة من الفلاتا تقدم لمعاقبة كل الدول التى قدمت لهم المساعدة ، ومن حصيلة هذه الحروب والأسرى من العبيد كافأ الكانمبو المخلصين وأتباعهم على إخلاصهم وارتباطهم به.

وتولدت فى قلوب بعض البورنويين رغبة الغزو بعد هذه الحرب الناجحة، وكانت هذه الروح حافزاً له ولطموحاته، وصاروا معتادين على روح القتال رغم كل المخاطر. ورغم أن الناس تخشاه فإنه محبوب ومحترم ويقول : "عندما نحتاج للقسوة من أجل المملكة فإن اللاعب الألطف هو الأسرع نحو الكسب" وإذا قارناه بكل من حوله فإنه ملاك، وقد أرضخ الكثيرين بكرمه واعتداله وطيبة قلبه أكثر من استخدام قوة السلاح،

إنه الكاسب تماماً لشهرته وشرفه الخاص ويتخذ لنفسه لقب المحرر أو المنقذ الذى يخلص لوطنه ويحكم شعبه بعد أن خلصه من العبودية والطغيان، لقد كانت أقصى آماله أن يسترد إمبراطورية بورنو ويعيد إليها عظمتها وتوسعاتها – إن حياته سوف تكون قصيرة جداً إذا ما حاول إنجاز هذا العمل العظيم، إذا لم تتزايد حروبه الهجومية بشكل مدهش.

وطوال الثمان سنوات الماضية شن الشيخ حرباً دموية يائسة ضد سلطان باجرمى الذى يحكم شعباً قوياً محباً للحروب، ويسكن فى مساحة واسعة من الدولة جنوب بورنو على الشاطئ الشرقى لنهر شارى ، ورغم أنه واجه بعض النكسات بل إنه فقد ابنه الأكبر فى إحدى المعارك والذى كان محبوباً من الشعب، ولكن على العموم كان ناجحاً، ويقال إنه حطم وقاد أكثر من ثلاثين ألفاً من رعايا باجرمى كرقيق فضلاً عن حرق مدنهم وطرد قطعان ماشيتهم.

ويحكون العديد من القصص التى توضح الجرأة التى لا تهزم فى باجرمى حيث إن (دوماتون) ، وهو رئيس مشهور جداً ، استطاع أن يتغلب ويطرد سرية خيالية بذراعه وحده، لكنه أخذ سجيناً فى العام الماضى من خلال (كاشيلا مصطفى) أحد قواد الكانمبو، وحارب مرتين جنباً إلى جنب مع الشيخ وذات مرة عند تقهقره أمسكه من خلف رقبته، وفى هذه المناسبة قام الشيخ بإطلاق الرصاص من مسدسه من فوق كتفه، ولم يقتله مصطفى لكن أحضره إلى أقدام الشيخ وقال الشيخ "آه ... أه أنت وضيع الآن وأصبحت كما كنت عندما التقينا أخيراً، وأجاب السجين :" هل أظهر كذلك لعنة الله على نظرتى ، هل يمكن أن ترى قلبى، إنه عظيم مثلما كان وقال الشيخ : "أين جرحتك العام الماضى؟" وقال "هنا" وأظهر ذراعه الأيمن من سبابة إصبعه وقال الشيخ "لقد أحدثت لى الكثير من الأذى" أكثر من أى الرؤساء فى بورجوماندا Borgomanda (سلطان باجرمى) وقال الزنجى "إننى أقسم أن أحارب ضدك ، وهل تستطيع أن تجعلنى لا أفى بقسمى؟ امنحنى الموت هذا قدرى إذا استطعت أن تضرب" وقال الشيخ "عليك خدمتى وأنت حر" وضحك دوياتون بكل احتقار وتمنى أن يحارب وربما يقتل بيد الشيخ نفسه، وقد أنكروا عليه هذا، وعند الإشارة سحبوه فى الحوش الداخلى حيث تحدى القائمين على تنفيذ الحكم، وفى هذا اليوم اعتقدوا أنه مسحور حيث لم تخرق

الرماح والخناجر لحمه، ويقال إن مسدسين فشلا فى إطلاق النار عند التصويب إليه، وقد تم نقل هذه الأخبار إلى الشيخ الذى قال بعد أن رجع إلى كتابه : "إنه محجب ضد الحديد والنار والماء ، والخشب وحده الذى يقتله، وصدرت الأوامر للعديد من الرقيق لضربه بالعصى، وعندما رآهم يقتربون منه صاح "الآن حلّ الموت علىّ".

إن السلطان الأخير لبورنو ، والذى يرافق الشيخ دائمًا إلى أرض المعركة ، فقد حياته أيضًا فى هذه الحروب، ويعزى موته إلى حجمه الضخم ووزنه، بل ورفض الحصان الذى يحمله التحرك نتيجة التعب رغم أنه كان يبعد ٥٠٠ ياردة عن أبواب أنجالا وسقط فى أيدى الأعداء.

ومع ذلك فقد مات بكل وقار، وشاركه فى نفس المصير ستة من أقزامه وعدد كبير من الرقيق الذين لم يفارقوه.

ولا يحمل السلطان فى بورنو أسلحة، والمقاومة تنزل من كرامته، وعلى هذا فإنه يجلس تحت ظل شجرة وشعبه حوله، ويستقبل أعداءه ويخبئ وجهه فى الشال الذى يغطى رأسه، وتطلق عليه مائة حربة.

لقد خلفه أخوه إبراهيم الذى لا يزيد عمره الآن عن اثنين وعشرين عامًا، ومع ذلك فإن سلطته فى بورنو ليست إلا مجرد اسم، ولا يزال البلاط يحتفظ بهيبته ويستند تمامًا إلى التقاليد القديمة وهذه هى الميزة الوحيدة الموجودة وعندما يلقى السلطان حديثًا للغرباء فإنه يجلس على قفص مصنوع من غاب البامبو ومن خلال أعمدته ينظر إلى الزائرين الذين لا يسمح لهم بالاقتراب فى حدود سبعين أو ثمانين ياردة منه شخصيًا، ويعد الشيخ الكانيمى رجلاً رشيقًا ورئيسًا طموحًا، كما أنه مثال نادر فى العالم الشرقى لرجل وصل إلى السيادة العليا بعد أن كان من أصل متواضع دون أن يريق دماء أعدائه أو يزيل هؤلاء الذين وقفوا فى طريقه من خلال أكواب السم أو السهام .

إن الملابس فى بورنو فخمة جدًا وتتكون من أقمشة مخططة بألوان زاهية من الحرير أو الصوف وتأتى من القاهرة أو السودان (السودان الغربى) وعندما يتجهون إلى المعركة يصبح مظهرهم خلابًا ، حيث يتقدم السلطان ستة رجال حاملين الطبول

والعصى التى يبلغ طولها عشرة أقدام، وهى آلة خاصة بالنظام الملكى وهى تصدر موسيقى غير مناسبة أو ذات أثر فعال، وتتدلى من رؤوسهم ورؤوس الخيول تعاويذ مغلقة فى أكياس من الجلد الأحمر والأخضر والأبيض .

وتعتمد قوة الشيخ أساسًا على الفروسية (لأن بورنو ليست دولة مشهورة بالخيول) وتقدر قوة الخيالة بحوالى ٣٠,٠٠٠ فارس (وفى عام ١٨١٩ دخل الميدان ٢٥,٠٠٠ فارس في حملة ضد موسجو) وأسلحتهم الدروع والحراب والمسدسات، ويلبس الرئيس وحرس الشيخ الخاص معاطف وسلاسل ودروعًا مصنوعة فى بورنو والسودان، ويمكن أن يضاف إلى هذه القوة ٩,٠٠٠ من مشاة الكانمبو. وأما الجنود الذين يحاربون على الأقدام فإنهم السلعة السهلة فى أى دولة، وبهذه القوة نجد أن بورنو ليس لديها العدد الكافى من المقاتلين.

وفى اللحظة الحالية لا توجد سوى قوة واحده فى وسط أفريقيا يمكن أن تقارن بقوة الشيخ فى بورنو من حيث الأهمية ألا وهى قوة السلطان بلو رئيس الفلاتا، ومن الشعور الذى تولد فى كل المناطق المجاورة لإمارة كانو وكاشنا عند هزيمته الأخيرة لقوة باجرمى ، فإننى أتخيل أنه لن يجد صعوبة فى توسيع إمبراطوريته فى هذا الاتجاه، حيث حول كل جهوده نحو هؤلاء الذين انتصر عليهم وذلك فى محاولة لتحسين أحوالهم الأخلاقية والدينية ، كما أن رعاياه من أكثر الناس تمسكًا بالشريعة الإسلامية فى كل بلاد السود، كما ازداد احترامهم لنا عندما علموا أن لدينا دينًا خاصًا بنا، وأننا نحترم قوانينه الخاصة بالصلاة وكذلك بالصيام الذى تشككوا فيه فى البداية.

لقد كان إصرارنا على السفر بجسارة وشجاعة وبوصفنا إنجليزًا ومسيحيين ، ولا نفقد الثقة فى أحد مادمنا نواصل تقدمنا كما تأكد لنا فى المناطق التى وصلنا إليها، وقد أثار هذا درجة من الثقة التى يعزى إليها الكثير من النجاح الذى صاحب خطواتنا.

وحيثما كان للكانيمى نفوذ فى مكان فإن الأوروبيين وخصوصًا الإنجليز يجدون كرم الضيافة والمعاملة الحسنة.

إن بورنو مليئة باللصوص الذين يسلبون الرحالة داخل أسوار العاصمة ، لكن مثل هذه الأمور لم تحدث لنا ، بل إن الطرق المارة فى أماكن حكم الشيخ من المحتمل أن تكون آمنة تماماً مثل الطرق فى إنجلترا نفسها.

إن بعض المقطوعات من الشعر فى وسط أفريقيا هى غالبًا ترجمات حرفية تثبت أن السكان يمتلكون قدراً كبيراً من الذكاء والروح المرحة، وفى الأغنية عن انتصار الشيخ الكانيمى، واستعادة سيدته المفضلة نجد تعبيرات جميلة جداً، وطريقة النساء وانتصارهم على عدو استولى على مدينة منظر يشار إليه، حيث تخلّين دون نضال راضيات بقدرهن، يحاولن إخفاء مكانتهن، وقد لففن القماش حول أجسادهن وجلسن ينتظرن إما القتل أو العبودية ، إنها لا تعرف فى أيدى من وقعت قد تخلى النشاط والحيوية عنها، وعاشت فى خوف مما سيحدث بعد القبض عليها، وقد أغمضت عينها فى حالة من اليأس.

ومع كل هذا فإننا فى دولة يعتبر الحب والحرب أهم أعمال الناس فيها - حيث إن الإثارة الكبرى لأحدهما تؤدى إلى الآخر، ويظهر هذا فى المشاعر الشعرية التى تتمخض عن كل ذلك ، ولكل دولة أغانى الحب والحرب، ولا يتم عرس أو انتصار رئيس دون مساعدة الموسيقى رغم أنها بشكل بدائى.

ورغم انشغال الشيخ فى غارات متكررة - إلا أنه لم ينس الفوائد التى تجلبها التجارة لشعبه وأهمية تحسين الأحوال الأخلاقية ، ويدرك أهمية الحصول على مزايا من التجارة والصناعة الدائمة أكثر مما يجنيه من نظام السلب النهب والحروب المدمرة، ولقد شجع التجار العرب والمراكشيين وهم الوحيدون الذين يزورون دولته، وعاملهم بكل حفاوة، وعاد الكثيرون منهم بعد أن عاشوا أكثر من تسع سنوات ومعهم ثروات ما بين خمسة عشر أو عشرين ألف دولار - يمكن لتاجر ذكى أن يضاعف الرقم لأن السلع التى يتبادلونها معظمها من الإنتاج الأوروبى والتى يتم شراؤها من طرابلس بأثمان تزيد ٢٥٠ ٪ عن تكلفتها الأساسية.

وطريقة الحساب عند التاجر المغربى هى أن حمل الجمل من البضائع القادمة من مرزوق هو ١٥٠ دولاراً سوف يدر عائداً عند التجارة فيه فى بورنو بحوالى ٥٠٠ دولاراً بعد دفع كل المصاريف.

ويرسل الرجال في فزان حمولة ثلاثة جمال تحت مسئولية رجل واحد، وبعد دفع كل المصاريف من الأرباح، يعطيه ثلث الباقي مقابل أتعابه. ومع ذلك فإن نظراً لعدم وجود تجارة مباشرة بين هذه الدولة وطرابلس أو مع أي من موانى البرابرة - فإن السلع الإنجليزية (التي يتزايد الطلب عليها يومياً بين سكان لا يزيدون عن خمسة ملايين داخل سواحل ستمائة ميل) تباع بأسعار ضخمة رغم أنها من أسوأ الأنواع.

أما السلع المطلوبة بين الدول الزنجية فهي :

- ورق الكتابة حيث الأرباح عالية
- المرجان المقلَّد والأصلي
- الملابس القطنية المطبوعة بكل أنواعها
- الحرير الملون بأسعار عالية للقمصان ذات الألوان البراقة
- الملابس والقماش الأحمر العادي والأخضر أيضاً
- النظارات الصغيرة
- أمواس الحلاقة العادية، أكواب القهوة، والأقمشة القطنية المخططة، والقمصان الطويلة، والعطور والسجاد الإنجليزي، والأرواب البيضاء والقبعات الحمراء التي تشترى من طرابلس والأطباق الصينية، والمرجان والودع الذي يطلب بشدة، ويتم شراء العطور من اليهود في طرابلس ولجمورن. فضلاً عن الأسلحة بكل أنواعها.

أما العائد الرئيسي الذي يحصل عليه التجار المغاربة مقابل بضاعتهم فيتكون من العبيد - ويتم تسليم هذه الضحايا التعسة إلى تجار فزان وطرابلس والذين ينتظرونهم مع المنتجات الشمالية، وأعتقد أن الشيخ نفسه وشعبه يقومون بهذه التجارة ولديهم شعور بالمرارة والاشمئزاز والاحتقار، إن وجود تجارة رقيق أجنبية أو نقل هؤلاء التعساء إلى أسياد من المسيحيين غير مألوف في بورنو ويخالف قواعد ومبادئ دينهم

الذى يحافظون عليه ، وإن شيخ بورنو مستعد للدخول بكل قواه فى أى صفقة تساعد على وضع حد نهائى لهذه التجارة.

وبالفعل فإن الرغبة فى تبادل منتجات بلادهم بالمصنوعات التى تنتجها الدول الأكثر تقدمًا فى الشمال واضحة تمامًا بينهم – حيث إن لديهم ذوقًا للرفاهية والرغبة فى تقليد هؤلاء الغرباء الذين يزورونهم، وهذا واضح تمامًا ويحاول الرجال أصحاب المناصب أن يرتدوا المصنوعات الأجنبية رغم أنها أحيانًا تكون من نوع ردىء ، ويدل هذا على رغبة فى التحضر مع رغبة فى خلق تبادل واتصالات مع الأجانب.

إن كل عمل قام به الأفريقى نحو التحضر حتى المعرفة والاعتقاد فى وجود كائن أسمى إنما يرجع إلى روح العربى الذى يحتقر الخوف من هذه الصحراوات التى تفصل السود عن السكان البيض وقد اخترقها إلى مدى بعيد إلى أوطان هؤلاء الأقوام المتوحشة حاملاً معه دينه وأخلاقه وحوَّل الكثيرين إلى العقيدة المحمدية.

إن الرغبة التى تسمع بها كل طبقات الشعب عن آرائنا من أجل إقامة اتصالات عامة من خلال التجار الأوروبيين، والحماية التى حصلنا عليها من الشيخ فى كل مناطق نفوذه خصوصًا لو كانوا من الإنجليز ، كل هذا يثير الأمل فى ضرورة اتخاذ بعض الإجراءات لتوجيه طاقات السكان والملايين منهم نحو شىء أكثر نفعًا للإنسانية وحب الخير لها فى العصر الذى نعيش فيه بدلاً من نظام الحروب الذى يسعى فى أهم أغراضه إلى الحصول على الرقيق باعتباره السلعة القيمة والجاهزة للتجارة مع ظهور أى تاجر من الشمال.

إن كل الاحتمالات ضد مثل هذه الصفقات التى يفضلها الأفريقى الأسود، دعنا نسمع كلام الشيخ نفسه وهو يتحدث إلينا وإلى شعبه، وهو يتحدث عن المشاعر التى تكمن فى أعماق قلبه : "إن ما تقولونه صادق ، إننا جميعًا أبناء أب واحد، أنتم تقولون أيضًا إن أبناء آدم يجب أن يتبعوا بعضهم بعضًا، وأنتم تعرفون كل شىء ! إن الله قد منحكم كل المواهب لكننا لا نملك ذلك، إن العرب الذين جاء وا إلى هنا لا شىء يهمهم سوى العبيد، لماذا لا ترسلون أنتم تجاركم؟ أنتم تعرفوننا الآن، دعهم يحضرون زوجاتهم ونساء هم ويعيشون بيننا، ويعلموننا أن نبنى المنازل والقوارب ونصنع الصواريخ".

إن القارئ سوف يلحظ هذه الكلمات الصادقة التي سمعناها من أفواه حاكم في وسط أفريقيا. إن العائد الذي يحصل عليه الأوروبي مقابل تجارته مثلاً ليس كافياً - لكن سوف تزداد الأرباح سنوياً وهذا سوف يعوض النقص. إن محاولات السلب والنهب من المناطق المجاورة سوف تتقلص عندما يجد السكان حرفاً أخرى يشجعون على القيام بها.

إن الكانمبو الذين يقطنون الحدود الشمالية والشرقية من بحيرة تشاد شجعان وجادون في العمل وهم خبراء في استخدام الحربة، وسريعوا الحركة وصيادون محترفون.

إنهم يحصلون على سن الفيل وقرون الجاموس بأسعار منخفضة ويتبادلونها مع البضائع الإنجليزية التي يشترونها من طرابلس ومن كل الموانى الأوروبية في البحر المتوسط بأسعار عالية، وأيضاً فإن زراعة النيلة من أفضل الأنواع التي يمكن أن تنجح وتنقل على نطاق واسع لأنها تنمو الآن برية.

إن ما يلي هي أسعار بعض السلع في بورنو والتي تجد تقديراً لها في أوروبا.

فمثلاً جلود النعام يصل ثمنها من ثلاث إلى ست دولارات للواحدة

وسن الفيل لدولارين لكل مائة رطل

أما الجلود الخام فيتم شراؤها بحوالي دولارين لكل مائة جلد.

ومن المحتمل أن الرغبة القوية لدى الشيخ لتحسين أحوال دولته، وعادات شعبه لا يمكن أن نجسدها أكثر من إعطائه لي نماذج لثلاث أنواع من العملة طلب أن أضعها أمام ملك إنجلترا، مع طلب خاتم وجهاز سك عملة حتى يقدم وسيلة أكثر راحة ومناسبة للتبادل بدلاً من العملة التي تستخدم الآن بينهم، وكان ينوي أن تكون إحدى هذه العملات من الذهب والأخرى من الفضة والثالثة من المعدن، وطلب هذا الرئيس أيضاً الرجال المهمين من كل شعبه أن يبقى أحد جماعتنا في وطنهم لاستقبال "التجار الإنجليز القادمون" وطبقاً لفكرة الحفاظ على المكاسب العظيمة التي جنيناها بوضع قدم راسخ في وسط أفريقيا، لأن صداقة الشيخ جعلتنا نفخر بها، لدرجة أنني أوصيت

بأن يبقى السيد تيروت Tyrwhit فى كوكا مع إعطائه كل الامتيازات التى يحصل عليها القناصل فى الأقطار البربرية حتى نعرف رأى حكومة جلالة الملكة.

وأعتقد أن إقامة علاقات واتصالات ودية مع هذه القوى فيما وراء الصحراء والتى يمكن من خلالها استكشاف المناطق التى لا تزال مجهولة فى وقت قريب، أمر له أهمية خاصة من كل وجهات النظر، وأن تشجيع الاتصالات التجارية سوف يحقق أهداف استكشاف أفريقيا ، ليس فقط من خلال العلم والبحث الذى يفيد – لكن يجب أن يرى كل محبى الإنسانية أن طريقًا جديدًا قد بدأ ، وأنه من خلال ترتيبات فضائية فإن آلافًا من بنى جنسه سيتم إنقاذهم من العبودية.

وسوف تؤدى نتائج هذه الصلات إلى تحويل عدة ملايين من السكان إلى المسيحية، ويتم هذا من خلال المسيحيين المعتدلين الذين يعملون والابتسامة على شفاههم فى الوقت الذى يمارسون فيه الأعمال الإنسانية، وعلى الأقل إدخال العمل والصناعة والتى تُعد مرادفًا لتحسين الأخلاق.

لقد اعتنقوا الإسلام وهو الدين الوحيد الذى وصل إليهم، وهو المفضل لديهم كثيرًا، والرجال يصومون رمضان ثلاثين يومًا وعادة تعدد الزوجات قد انخفضت، وهاتان النعمتان لهما أثرهما على كل السكان.

إن تجارة الرقيق لم تكن معروفة بين الزنوج حتى أدخلها المراكشيون بينهم، وقد ساعد على هذا أسرى الحروب الذين يقدمون بعض أطفالهم لسادتهم لكن لم يتم البيع إطلاقًا ، وحتى الآن فإن الجزء الأكبر من أهل المنزل لدى الرجال العظماء أحرار باستثناء النساء اللاتى يقمن بخدمة أسيادهن من الشباب، إنهم يعاملون مثل أطفال البيت، ولا يقع العقاب البدنى لهم. لقد عرفت أكثر من مرة أحد البورنويين الذين زاروا كوخى فى الصباح وهو يبكى ويقول إنه أرسل فتاة للبيع وكانت منذ ثلاث سنوات جزءًا من عائلته، ثم أضاف قائلاً لكن الشيطان دخلها وكيف أحفظه بعيدًا عنها. وباختصار فإنه حسب مبادئ التجار المغاربة الذين لا يمكن أن تقدر وحشيتهم وقسوتهم بشكل لا يصدق فهم أدخلوا التجارة فى الرقيق داخل أفريقيا، وأيضًا يسهمون فى استمراريتها، إنهم يرفضون كل وسائل الدفع مقابل السلع التى يجلبونها، وإنهم

يعرفون مدى الشغف على هذه السلع بعد ذلك وعندما يقدمون هذه السلع بأسعار مدهشة يغرون على بيع إخوانهم إلى من هم أقل إنسانية من الكائنات الحية، بينما يحققون فى فزان وبنى غازى ومصر أحيانًا أرباحًا تساوى ٥٠٠ ٪ (خمسمائة فى المائة) ومع ذلك فإننى لم أفقد الأمل فى أن الاتصالات الممتدة مع دول البربر ربما تمنع المغربى عديم المشاعر من التعامل فى اللحوم البشرية ، وإنه بشعور الرضا الذى سمعته من التجار المحترمين عندما أعلنوا أنهم سوف ينتهجون أى نظام آخر للتجارة وإنهم سوف يفضلونه عن الاتجار فى الرقيق، وهم يعرفون أننا تدخلنا مرارًا لتحسين أوضاع التعساء عندما يلقون معاملة سيئة، وهم دائمًا يشيرون إلينا لكى يثيروا فضولنا، كيف أن عبيدهم يرتدون أفضل الثياب ويتناولون الطعام الجيد إذا ما قارناهم بالآخرين عندما عبرنا الصحراء فى طريق عودتنا إلى طرابلس.

ملاحظة تمهيدية

عن مقدمة
رحلة الكابتن كلابرتون من كوكا إلى سوكوتو

وضع الكابتن كلابرتون مسودات الرحلة التالية فى يدى عند رحيله من إنجلترا وطلب منى أن أتولى الإشراف عليها عندما تعد للطبع والنشر حول تقرير البعثة الحالية لوسط أفريقيا ، واستجابةً لهذا الطلب فقد حرصت على عدم إجراء أى تغيير أو فكرة ولم أحاول إضافة أو تغيير أو حذف كلمة واحدة ، وعلى هذا أصبحت مهمتى سهلة ومقصورة على مجرد تصحيح أخطاء الطباعة العادية.

وكما سيظهر من مذكراته فإن الكابتن كلابرتون مثل الميجور دنهام لم يدع أى شيء عن المعلومات المنهجية للتاريخ الطبيعى ، فكلاهما كان من الرواد الممتازين فى الاستكشاف وكلاهما كان قادراً على تحديد خطوط العرض من خلال ملاحظة الأجرام السماوية ، وأيضا حساب خطوط العرض إلى درجة كبيرة فى مختلف الأماكن التى زاروها، وحيث إن هذه معلومات ذات ميزة مهمة للجغرافيا رغم أن الرحالة يهملونها كثيراً ، ولكن من خلال الاهتمام بهذه النقاط ومقارنتها بمختلف الطرق التى سلكوها ، ومحاولات الكابتن كلابرتون المتكررة لتقييم وتدقيق النتائج التى توصل إليها من خلال ملاحظة الشهور القمرية (رغم عدم اعتداد أى ملاحظ آخر بها) فإننا نتأكد تماما عن الكثير من الأماكن والمواقع التى توضع فى غير أماكنها وموزعة بشكل عشوائى فى أحسن الخرائط عن أفريقيا ، فكلها سيئة جداً وقد تم تحديد أماكن ومواقع المدن التى لم تصل إلينا أسماؤها من قبل. لقد كان الدكتور أودنى هو الرحالة الوحيد فى المجموعة الذى يمتلك معلومات كافية عن التاريخ الطبيعى ، ومن سوء الحظ أنه أصيب بعجز نتيجة متابعة ذلك عندما داهمه مرض الشلل الذى أنهى حياته ، وحيث إن الذى ظهر هو القليل من كتابات الدكتور أودنى فى العمل الحالى كما قال الكابتن كلابرتون

فإن هذا الرجل قد أبدى رغبة قبل وفاته وهى أن أوراقه يجب أن تكون فى أيدى السيد بـــارو Barrow أو البروفسير جيمسون بشرط أن يكون هذا متفقا مع موافقة السيد باثورست ، وأشعر أننى لابد أن أقول شيئا بسيطًا حول هذا الموضوع ، إننى لا أجد شيئا مقنعا لى أكثر من التعهد بتنفيذ مثل هذا العمل على أكمل وجه ، وإنه من الطبيعى تماما أن أقوم به لولا تكليفى بتنفيذ ذلك من البروفسير جيمسون الذى له مكانته الكبرى فى التاريخ الطبيعى وله تقدير العامة بشكل كبير.

ومن سوء الحظ فى هذا الفرع من العلم أن أصيب الدكتور أودنى بالمرض فى مرحلة مبكرة من الرحلة والذى أصاب رئتيه جعله عند وصوله إلى بورنو غير قادر على القيام بأى مجهود ، وسوف يظهر من قصصه وروايته وسرد الكابتن دنهام كيف كان المرض يعاوده ، وكان خطيراً منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى بورنو ، وفى خطاب موجه إلى السيد ويلموت Wilmot Harton بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٨٢٣ يقول الدكتور أودنى : "إننى أرسل إليك مخطط الرحلة من فزان إلى نهر شارى وإلى حدود السودان ، وملاحظاتى عن بورنو ، ويجب أن أترك ذلك لوقت آخر ، إننى لا أستطيع الكتابة طويلا ، إن يوم عمل بهذا الشكل يجعلنى مريضاً أسبوعًا كاملاً "

ولم يظهر فى أوراقه أى تقرير عن هذه الرحلات إلى نهر شارى وحدود السودان ، ولا توجد أى مادة بخصوصهما بخلاف ما هو موجود فى التقرير العام لأحداث البعثة وذلك فى خطاب معه لوزير المستعمرات ، وتتكون الأوراق التى تلقيتها من الكابتن كلابرتون من تقرير عن الرحلة التى ينفذها هؤلاء الرجال مجتمعين من مرزوق إلى جارات (Ghraat) وهى أول مدينة فى بلاد الطوارق مع بعض الملاحظات عن الرحلة عبر الصحراء الكبرى والتى لم تكتب بشكل متكامل ، وأما البقية فهى بعض الملاحظات عن الوجه البشرى ، مع بعض التقارير غير الواضحة عن حالة الطقس ، مع عدد من الرسائل من وإلى قنصل طرابلس بخصوص بعض الأمور الخاصة بالبعثة وهى غير مهمة وليست شيقة ولا تفيد فى شىء .

أما الرحلة إلى جارات التى سبق ذكرها فقد طلبت طبعها فى نهاية الفصل التمهيدى وحيث إنها مرتبطة به جزئيا مع حذف بعض التفاصيل البسيطة غير المهمة

وقد طلبت من الكابتن دنهام أن يضيف بعض الهوامش المرتبطة بالنواحى الجيولوجية أساسا فى رحلته الخاصة عبر الصحراء الكبرى ، ويبدو أنه واضح تماما للبعثة أن الدكتور أودنى لم يعش حتى تنتهى الرحلة إلى السودان وحتما كان يدرك ذلك تماما ، لكن حماسه تبخر، وكل ما يمكن القيام به جعله يعانى كثيراً ، وكان هذا الحماس هو الذى دفعه للقيام بالرحلة إلى جارات ، والتى زادت من مرضه، والحقيقة أنه كان مرهقا ومتعبا وهو فى إنجلترا ويشكو من آلام في الصدر ، ولكن عندما أخبرته بذلك نصحته بشدة ألا يفكر فى الاستمرار فى رحلته ، كما سبق أن نصحت زميله السابق سيء الحظ ريتشى (Ritchie) ، إلا أنه أصر مثله حيث إنه رجل طبيب يعرف حالته جيدا وأن المناخ الحار لا يناسب حالته ، ولم يقدر أى واحد منهما درجة الإرهاق والتعب والتغير المفاجئ فى المناخ ودرجة الحرارة التى تعرضوا لها بالضرورة ومع كل مساوئ الجمع والحفظ وإحضار عينات من التاريخ الطبيعى من هذه المسافات الطويلة وعبر صحراوات وعرة ومخيفة تمتد إلى ألف ومائتى ميل ، فإننا نلحظ منذ الإشارة إلى الملحق أن هذا الفرع من العلوم لم يكن مهملا.

جون بارو

تقرير عن الرحلة

القسم الأول

من كوكا إلى مرمور حيث مات الدكتور أودني

منذ أول وصولنا إلى بورنو نوينا أن ننتهز الفرصة المناسبة والمبكرة لاستكشاف السودان ، ولقد اكتملت استعداداتنا أخيراً ، وبعد أن وافق الشيخ على رحيلنا رغم درجة كبيرة من التردد ، فإنه رغم حالة الدكتور أودنى الصحية السيئة وأنا أيضاً كنا على استعداد لبداية المسيرة فى الرابع عشر من ديسمبر ١٨٢٣ ، وعلى هذا أعددنا الإبل والخدم فى الصباح وذهبنا شخصياً لطلب الإذن من الشيخ، وفى هذه المناسبة وجدناه فى شقة داخلية ويقوم على خدمته اثنان أو ثلاثة من الخدم فقط ، وطلب منا مثل ما طلب من قبل إذا كنا أثناء رحلتنا سوف نذهب إلى نيفى Nyffee كان ردنا بالإيجاب إذا كان الطريق مفتوحاً ، وأجاب إنها على بعد مسافة وخشى ألا نعود إلى كوكا ، وأخيراً ، إننا نأمل فى العودة إذا أمكن قبل أن يبدأ موسم الأمطار ، ولكن رغم كل هذا أكدنا له أننا نكن له قدراً كبيراً من الاحترام على عطفه العظيم نحونا ، وودعنا بطريقة ودية وحارة.

وعند الظهر غادرنا المدينة بصحبة زميلنا الميجور وبعض السكان ، وحتى الحاج على بوكانوم الذى اختلفنا معه فى مناسبات عديدة جاء لرفقتنا ، وأشرفوا على خدمتنا لمسافة أربعة أو خمسة أميال ، وبعد ذلك غادرنا عندما قرأ صديقنا القاضى الحاج محمد زين العابدين الفاتحة أو السورة الأولى من القرآن الكريم ، وتوقفنا عند قرية فوجويو ثوريو Fuguboo Thorio حيث نصب الخدم الخيام على بعد حوالى عشرة أميال من كوكا.

تكونت مجموعتنا من الدكتور أودنى وأنا واثنين من الخدم ويعقوب اليهودى وثلاثة رجال من فزان، وكانت معنا ثلاثة خيول مجهزة بالسروج وأربعة إبل ، كان الخدم عدا يعقوب يسيرون على الأقدام وكان هناك سبعة وعشرون تاجراً فى القافلة وهم من العرب.

كان منهما اثنان من الأشراف أو من نسل المصطفى (ص) ، أحدهما من تونس والآخر من هوون Houn بالقرب من سوكنا، فضلاً عن خمسين من أهالى بورنو ، وكان معظم العرب يمتلكون الخيول التى أحضروها للبيع وبعضهم كان يمتلك فرساً أخر للقيادة ، وكان أهل بورنو يسيرون على الأقدام وكان أحدهم من الحجاج الذين زاروا مكة ، وربما يتخلف عن الركب فى كوكا لكنه أصر على متابعتنا لأن الدكتور أودنى كان قد عالجه فى ذراعه بعد أن جرح فى حادث انفجار بندقية ، وقد قام بنصب خيمة بالقرب من خيمة الدكتور أودنى الذى كان يكن له كل احترام.

١٥ ديسمبر:

بدأنا فى الساعة السابعة ، وكان الطريق هو نفسه الذى عبرناه فى زيارتنا السابقة لبيرنى القديمة Old Birnee ولم نعد ننزعج من نصب الخيام أو من مشكلات قائدى الإبل وصراخهم والذى عشناه مع بوكالوم ، كما كان الجو صافياً ، بارداً وممتعاً ، وبعد الظهر بقليل توقفنا عند آبار بورجو التى تبعد مسافة سبعة عشر ميلاً فى الشمال الغربى .

١٦ ديسمبر:

لقد التقينا بقوافل عديدة من كابشارى والمناطق المجاورة وهى تتجه إلى كوكا ، وكانت تحمل بضائعها الثقيلة على ظهور الثيران ، أما الحمولات الأصغر والتى تزن ما بين عشرين وثلاثين رطلاً فكانت تُحمل على رؤوس الرجال ويحفظ الحمالون توازن

حمولتهم بكل براعة حتى يسهل حملها من خلال أحبال تتدلى من جوانب الحمولة والتى تحمل من طولها على الرأس ، وبهذه المحاولة البسيطة يتجنبون التعب والإرهاق نتيجة وضع الذراع مرفوعا وتوقفنا الساعة الثالثة بعد الظهر.

مازلنا نتابع طريق بيرنى القديم وشاهدنا العديد من الظباء البيض والحمر التى يسميها العرب (المهر) وعسكرنا على حافة إحدى البحيرات التى تكونت نتيجة فيضان نهر يووى Yeou الذى يبعد حوالى ربع الميل من ناحية الشمال ، ولقد انخفض الآن ستة أقدام ، وربما لا يزيد التيار فيه عن ثلاثة أميال فى الساعة.

سافرنا على طول شواطئ سلسلة من البحيرات الصغيرة التى كونها نهر يووى وربما ممره الرئيس ، ولاحظت فى جانب الطريق آثاراً مختلفة للحيوانات البرية بين حيوانات كثيرة من فرس النهر والأسود ، ومررنا على أحد الأسواق الريفية على تل صغير بالقرب من بقايا وآثار مدينة كبيرة دمرها الفلاتا من قبل ، وتوقفنا عند داما ساك غرب معسكر لقطيع أبقار الشيخ الذى أحضر إلينا كميات كبيرة من اللبن عندما علم بوجودنا مع القافلة .

١٩ ديسمبر:

حيث إن الأراضى المنخفضة من داما ساك إلى موجابى التى تبعد عشرة أميال ، مبللة ومشبعة بالماء فقد اضطررنا إلى القيام باللف حول دائرة طويلة من طريق مرتفع يمر أحياناً بين فجوات مليئة بالماء ، وعند الظهيرة كان علينا أن نتوقف على شواطئ أحد هذه الأنهار المؤقتة التى تكونت خلال موسم الأمطار، ولا تزال تحتوى على قدر معقول من الماء الذى يجرى بمعدل ميلين فى الساعة، وقابلنا هنا عدة قوافل وثيران محملة بالبضائع فى طريقها من كابشارى والسودان ، وكان الناس مشغولين بنقل بضائعهم على عوامات من حزم البوص عبر النهر لكنها كانت قليلة لدرجة أنها لا تستطيع حمل أمتعتنا ، وكان من الضرورى عمل عوامات خاصة بنا ، وعلى هذا نصبنا خيامنا ، وأرسل كل واحد من التجار العرب أحد رجاله لقطع البوص لعمل العوامات وذلك بوضع حزم منه عبر عمودين طويلين.

تقدمت مسافة ميلين أو ثلاثة أميال على طول شواطئ النهر الذى لم يحتوِ فى الصيف الماضى على نقطة من الماء ، وبالتأكيد فإن الطريق السفلى يبرز فيضانه أثناء الأمطار لكن لم يشهده أحد بهذه الحالة ، ويعتقد أنه لمدة نصف عام لا يزيد عن بقعة من الماء كما أن الجزء الأعلى من الطريق يمكن عبوره فى نفس الفترة من خلال مجار كثيرة تنساب فى نهر يووى ، وكانت الأجرة التى تدفع للرجال الذين يخدمون هى رطل لكل حمولة بعير، والرطل إسمى لكنه يمثل رطلا من النحاس والذى يساوى الثمانية أو العشرة منه دولاراً أسبانياً ، وكانت الثيران والإبل والخيول تسبح فى النهر مع العبيد.

٢٠ ديسمبر:

هنا كان الجو صافياً ولطيفاً لكن اليوم صار بارداً عند طلوع النهار ، أما الحاج على المريض الذى أشرنا إليه فقد كان يمتلك قارباً واسعا حملنا عليه أمتعتنا دون مشقة باستخدام حبل ربط على كل طرف ، أما العرب فقد أثاروا ضجة فى نقل بضائعهم ونتيجة الجهل والعناد تعرضت بضاعتهم لكثيرمن التلف ، وكانت المشكلة الكبرى مع الإبل والجوارى اللاتى يعزفن بشكل حماسى ، كما كان عدد كبير من الرجال فى محنة مثل النساء خصوصاً رجال فزان الذين لم يعرف أحد منهم السباحة بل تضرر بعض منهم من العَبّارات داخل الماء ثلاث أو أربع مرات قبل أن يتمكنوا من العبور، لقد سببت الإبل كثيراً من المتاعب وكان أحد الرجال قد سبح من قبل أن يضع اللجام فى أسنانه كما واصل آخر ضرب الجمل بعصا من الخلف وكان يحاول كل مرة العودة إلى الخلف أو يضع رأسه تحت الماء ، وقبل أن يعبر الجميع كان التوقف متأخراً جداً لدرجة أننا لم نستطع مواصلة الرحلة فى هذا اليوم، وعلى هذا عسكرنا على الشاطئ الغربى طوال الليل.

٢١ ديسمبر:

ما زلنا نواصل السير على طول الأرض العليا بسبب الرطوبة والأرض المبللة بالماء ، إلا أن الأرض كانت جافة لدرجة أننا تعرضنا للخطر من قافلة بالقرب من بيرنى

القديمة كانت قد أشعلت النار فى الحشائش طوال الليل حيث تقدمت النار بسرعة مثل بحر من اللهيب ، وكان علينا جميعًا أن نسعى للهرب لو لم نجد المأوى فى داخل أسوار المدينة المحطمة التى أوقفت انتشار اللهيب .

ومع ذلك فإننا لم نتوقف وواصلنا طريقنا إلى مدينة تدعى بيرا (Bera) عـلـى شواطئ بحيرة جميلة والتى تكونت هى الأخرى من فيضان نهر يووى ، وفى الحال كان هناك معرض فى معسكرنا حيث حضرت نساء المدينة ومعهن قمح غينيا وعيدان الفول وجوز الهند والحليب مقابل الحصول على الودع والبلور أو الملابس الوطنية، وهناك الطلب على الودع الكبير الحجم مع وجود حلقات بيضاء فى الوسط والذى يسمى موكينى وهو اسم مشتق من سلطان فى فزان بهذا الاسم والذى كان تاجرًا فى الأصل ، ويتم تبادل الودعة الواحدة بربع من قمح غينيا أما الفستان من الملابس القطنية الضيقة والمصنوع محليًا فيساوى دولارًا ، و لاتزال قيمة البضائع عن طريق المقايضة ثابتة مثل نسبة النقود فى التبادل فى أوروبا وذلك بتثبيت سعر محلى قياسى لهذه السلع التى يتم طلبها بشكل كبير.

٢٢ ديسمبر:

مررنا على مجموعة من الأرض تشكل انحناءً للنهر إلى مدينة تسمى دوجامو Dugamoo حيث توقفنا ، وكانت شواطئ النهر فى كل مكان مرصعة بالمدن والقرى.

٢٣ ديسمبر:

كان الصباح باردًا ، وكان الدكتور أودنى مريضًا طوال الليل وشعر بالضعف الشديد ، وفى الساعة الثامنة غادرنا دوجامو وتتبعنا ممرًا ملتويا ناحية الغرب ووصلنا إلى دلتاجو (Deletago) بعد أن مررنا على عدد من المدن والقرى تسمى إحداها كوكابونى (Kukabonee) ذات الحجم المعقول وتضم حوالى خمسة أو ستة آلاف نسمة ،

وهناك عدد قليل من الأشجار عند شواطئ نهر يووى، والتربة أساسا من الطمى الأحمر، ويزرع الأهالى كميات عظيمة من قمح غينيا والفول ووجدنا سوقًا عامرة بالقمح والملابس الوطنية، وهناك طلب عظيم على البارود باعتباره دواء، وفى هذا اليوم قدمنا نعجة كهدية عند العبور ويدفعها كل من يعبر هذا الطريق لأول مرة ، وهى عملية يدفعها كل من يعبر خط الاستواء، وتستخدم بذور القطن كعلف للماشية والخيول والحمير والثيران والإبل ، ومن ثم تصبح هذه الحيوانات مغرمة بها ، بل وهى طعام جيد لتثمين الحيوانات، وفى المساء أرسلوا الطعام للإبل والخيول مثلما حدث فى المدن الأخرى ، وقد عبرنا بمجرد أن علم الناس أننا أصدقاء للشيخ.

٢٤ ديسمبر:

شعر الدكتور أودنى بالتحسن وتوقفنا فى هذا اليوم نتيجة إصابة إبل أحد التجار ، وكان على صاحبه أن يرسل إلى مدينة دوجامو لشراء جمل أخر ، وأقامت القافلة حفلاً كبيرًا اليوم ، ودفع كل من التجار الجدد قطعة دولار أو قيمته من السلع، وليس للوقت أية أهمية عند هؤلاء الناس مهما حدث من أمر يعوق تقدمهم حيث يتحملون التأخير دون اكتراث .

٢٥ ديسمبر:

لقد كان الجو صافيًا وباردًا ، وغادرنا دلتاجو ودرنا حول شواطئ النهر لقطع انحناء من طريق عرضى حتى وصلنا إلى بيديكارفى (Bedee Karfce) وهنا تتواجد أشجار وغابات أكثر مما رأينا، ولا تزال التربة صلبة وتتكون من الطين الأحمر ، وتتكاثر القرى والمدن ، وينتمى السكان إلى قبيلة الونى من غرب الشوا، ومدينة بيدميكارفى كبيرة ومكتظة بالسكان ويسمى الحاكم عادة فى هذه المدن وغيرها من المدن الأفريقية بالسلطان رغم أنه يتولى قيادة فرعية، وقد شاهدنا عندما كنا فى حملة إلى مونجو مع شيخ بورنو ، وقد جاء لاستقبالنا عندما وصلنا، ورحب بنا بكل حفاوة،

وكان رجلاً مسنًا يعانى من اضطراب فى المسالك البولية حيث استشار الدكتور أودنى وكان مسكنه واسعًا ونظيفًا تمامًا وشيد على النمط السائد فى المدينة تحيط به الحصر المثبتة على أعمدة عالية حيث توجد فى الداخل العديد من الأكواخ وكلها من الحصر على أسقف مخروطية ، ويشبه مظهر هذه الأكواخ الخارجى خلايا النحل عندنا وفى الغالب تتكون الأسوار من اللبن ، وعلى كل كوخ توجد بيضة نعام تدل على أن صاحبه له رتبة عالية، وداخل الكوخ مغطى بالرمل ، والأثاث الوحيد عبارة عن كنبه تشبه السرير وبعض الحصر للجلوس عليها ، فضلاً عن بعض الزلع الملونة وهناك مدخل واحد لك كوخ ، ويفتح الباب غالبًا ناحية الغرب .

والنساء العرب فى هذا المكان غاية فى الجمال ، وهن يسرحن شعورهن بشكل يختلف عن نساء أى مكان آخر ، وإذا نظرنا من بعد مسافة نجد الموضة وكأنها تشبه الخوذة ، ويتواجد بينهن الكثير من نساء بورنو اللاتى يقلدن نفس الأسلوب.

وتتواجد طيور غينيا بكثرة فى هذه المناطق ، وبعد أن توقفنا خرجت لصيد خمسة من هذه الطيور فضلا عن صيد بطة برية ، ولقد كان شيخ بورنو قد أوصى بنا محمد الوردى وهو أحد تجار فزان الأقوياء والذين يعتمد عليهم لكنه كان خائفا لأنه فقد إحدى التعاويذ من رقبة الحصان ، وهذه التعويذة عبارة عن حجاب به آيات من القرآن ، لكنه كان حزينًا لهذا ولو فقد أحد أطفاله لما كان بهذا الحزن ، وقد أعطيته ورقة لكتابة تعويذة أخرى وعد الحاج بكتابتها.

٢٦ ديسمبر:

بعد شروق شمس هذا النهار كانت درجة الحرارة ٤٩° وكان التجار قد انشغلوا بإطلاق النار استعدادًا لجماعات البيبديت (Bedites) وهى جماعات قديمة من أهالى بورنو لم تعتنق الإسلام بعد ، ويمثلون منطقة مجاورة لكن كل المؤمنين يكرهونهم ، وكان كل شىء جاهزًا عند الساعة الحادية عشرة حيث رفعنا معسكرنا ، وصارت قافلتنا ضخمة الحجم بسبب انضمام أكثر من خمسمائة رجل عند مدينة بيديكارفى ،

وكانوا فى انتظار قافلة عربية لكى يمروا عبر بلاد البيدى لأن كل العرب ينالون احترام الأهالى فى هذه المناطق فضلاً عن امتلاكهم الأسلحة النارية ، وأما الصواريخ عندهم فهى أقل مما لدى الأوروبيين وغير مؤكد قدرتها على الانطلاق ، ولا تساوى أكثر من وزنها من الحديد القديم ، أما شجاعة هؤلاء العرب فهى مؤكدة ، وعندما ينتصرون على أعدائهم يكونون قساة إلى أقسى درجة ، وعندما يفشلون يصلون إلى درجة من العبودية والدونية.

ويحمل أهالى بلاد الهوسا بضاعتهم على الرؤوس ويسيرون حاملين الرماح والسهام ، أما سكان بورنو فإنهم يحملون بضاعتهم أساسًا على الحمير والبغال والثيران ، ويتسلحون بالحراب ، ويتاجر الهوسا فى التبغ وجوز الكورا (Goora nut) والأقمشة القطنية التى يصنعون منها الأثواب فضلاً عن جلود الماعز المدبوغة ، وينتج الأشانتى جوز الكورا فضلا عن الأجزاء الأخرى بالقرب من الساحل الغربى ويستخدم الأنتمون الخام كمسحوق لدى الرجال والنساء لجعل الرموش أكثر سواداً، والملابس الوطنية كما سبق أن ذكرنا ضيقة لا تزيد عن أربعة أقدام فى العرض، أما الثوب فهو قميص واسع له أكمام واسعة مدلاة وغالبا من قماش لونه أزرق داكن ، وهو جزء أساسى من ملابس الرجال فى كل أنحاء وسط أفريقيا ، أما ملابس النساء فهى أيضاً من القطن الأزرق وطولها ثلاث ياردات ونصف وأحيانًا تصنع من قطع بيضاء وزرقاء أو من اللون الأبيض تماماً، وترتدى النساء فى المناسبات السعيدة ثوبين أحدهما حول الوسط والآخر حول الأكتاف ويتم تبادل هذه الملابس فى بورنو بالودع والملح والنترون، ويحملها المغامرون البورنويون إلى بلاد الهوسا.

أما طريقنا فيقع على سهل مرتفع من الطمى مع وجود بعض الأشجار الصغيرة ، ومررنا على آثار العديد من المدن ، وقد أفاد رفاقنا من الرحالة أن هذه المناطق كانت عامرة بالسكان قبل غزو الفلاتا، وعند الغروب توقفنا بالفعل فى أرض البيدى (Bedee).

٢٧ ديسمبر:

كانت درجة الحرارة منخفضة بشكل معقول ، وكانت المياه فى الأوانى تحتوى على شرائح من الثلج ، أما القرب الجلدية فكانت قد تجمدت، وهذه القرب من جلد الماعز

مهمة جداً فى حملات عبر الصحراء القاحلة وكانت الخيول والإبل ترتعد من البرد ، وكانت تعانى أكثر منا ، والرياح كالعادة تهب من الشمال والشمال الغربى وكان الدكتور أودنى مريضاً جداً.

وساء ت صحته بعد إصابته بنوبة برد حادة ، ونجتاز الآن أرضاً ناحية الجنوب الغربى من نفس التربة التى وصفناها من قبل ، وعندما وصلنا إلى الأراضى المنخفضة كانت أكثر أشجاراً ، بل وأكثر تنوعاً وحجماً ، ومن هذه الأشجار نجد الكوكا والجورى أكثر شيوعاً.

وشجرة الكوكا ذات حجم ضخم ومستقيمة وعالية يصل قطرها ما بين عشرين وخمسة وعشرين قدماً، ، والجذع مسامى ضخم والأوراق صغيرة ، وتتكامل أوراقها وأزهارها خلال شهور الأمطار فى يونيه ويوليه وأغسطس، والأزهار بيضاء كبيرة تشبه حدائق الزنبق البيضاء، وتتدلى الثمرة من عود طويل وشكلة بيضاوى غالباً أكثر من بذرة أو ثمرة الجوز، والشجرة سواء فى فترة تواجد الأوراق أو فى عدم وجودها لها منظر خلاب وجذاب ، ويجمع الأهالى الأوراق بكل عناية، ويجففونها فى الشمس ويستخدمونها لأغراض كثيرة ، وعندما تُغلى فى الماء يصنعون نوعاً من الحلبة، كما تعطى مذاقا للشربة ، ولقد أكلتها مغلية مع اللحم الجاف حسب عادة أهل البلد لكن لم أستسغ هذا الطعام .

وتعد الأوراق والثمار مفيدة فى الأغراض الطبية إلى حد ما ، وأحيانا تخلط الأوراق مع الترونا وتقدم للخيول والإبل لتساعد على زيادة وزنها وكعلاج للبرد ، أما الجزء الأبيض من الثمرة فهو حلو المذاق ويصنع منه شراب حلو الطعم يستخدمه الأهالى كعلاج للعجز الجنسى.

وعند الظهر شاهدنا بحيرة تسمى تمبوم (Tumbum) وواضح أنها تشكلت من أحد الأنهار فى فصل الأمطار، وكل المنطقة التى تقع فى مدى النظر جنوباً وغرباً مليئة بالمستنقعات ، وبمجرد أن وصلنا على بعد مسافة من البحيرة ، وهى البقعة التى قال كل العرب إننا سوف نلتقى فيها بشعب البيت حيث ظهر رجلان يرتديان الملابس البورناوية وأرواب واسعة مع قبعة محكمة، وكلها من قماش القطن الأزرق ويحمل كل

واحد على كتفه لفة من الحراب الخفيفة ذات الرؤوس الحديدية ، وكنت بعيداً أمام جماعتنا وأول من قابلهما ، وقدما لى التحية بكل أدب ومررت دون أدنى ملاحظة عندما التقيت بغيرهم من الفرسان الذين وجهوا إليهم أسئلة لكن لم يرد عليهم أحد وفى الحال قبضوا عليهم وربطوهم ، وحيث إن هذا أمر لا يجب أن أتدخل فيه طلبت فقط أن تعاد إليهم بضاعتهم على اعتبار أنهم رجال أمناء، لكن كان رد الأسرى : "لعنهم الله إنهم لصوص، ماذا يفعلون هنا إذا كانوا أمناء" وطلبت من المالك أن يأخذهم إلى بيدجونا لإعطائهم الفرصة حتى يتعرف عليهم الأهالى قبل معاملتهم كلصوص ، ونزلت الآن لتقديم الماء لحصانى، وعندما عدت وجدت محمد الوردى العظيم وهو يحرس الشخصين سيئى الحظ وكان أحدهما من عرب الشوا والآخر من الزنوج، وكان الأخير أثناء غيابى قد أصيب بجرح خلف أذنه اليسرى من أحد البورنويين والذى ادعى أن الزنجى قد حاول الهرب ، وهى محاولة من المحتمل حدوثها فى حالته اليائسة هذه ، ورغم الجرح فقد قادوا المسكين بحبل مربوط حول رقبته، وكان مغطى بالدماء، وأكد لى الدكتور أودنى أن هذا قد يسبب له الموت فوراً ولم أتمالك نفسى أمام ضرب هذا البورنوى الذى لا يرحم، وأجبرته أن يستخدم ثوبه لربط الجرح، وفى نفس الوقت هددته بأن أفرغ محتويات البندقية فى رأسه إذا كرر نفس الأعمال الشرسة، وكانت هذه فرصة أن أوكد للعرب عموما أنه ليس جديداً أن يتصرف الرجال الشجعان بهذه القسوة مع الأسرى، وافترضت أنه من الأفضل بيعهم أو حتى إعدامهم بدلاً من القيام بهذه الأعمال البربرية.

وقد ألقى العرب باللائمة على البورنوى لكنهم كانوا خجولين ووعدوا بتحرير الرجال إذا ثبت أمانتهم أو تقديمهم للمحاكمة فى مدينة بيدجونا.

لقد كان طريقنا يسير مع مستنقع واسع ووصلنا مع غروب الشمس إلى مدينة بيدجونا ، وكان الجلاديما أو الحاكم من الفلاتا وهو صديق لمحمد الوردى الذى قدمنا إليه وكان رجلاً طويلاً نحيف القامة وله أنف معقوف وجبهة عريضة وعيون واسعة ، وهو رجل لطيف الشكل أسود اللون كما رأيته، وكان مسلكه لطيفًا ومحترمًا، وإلى جانب لغته المحلية يتكلم العربية بطلاقة فضلاً عن لغات البورنو والهوسا ، وسألنا

العديد من الأسئلة عن إنجلترا التى سمع عنها وقال إن سيده سلطان الفلاتا سوف يسعد برؤيتنا، وطلب من الدكتور أودنى الدواء بسبب اضطرابات فى الجهاز البولى وهو مرض شائع فى هذه المناطق، وقدمنا له هدية عبارة عن علبة مليئة بالقرنفل، وفى المقابل أرسل إلينا كمية ضخمة من الحليب.

كانت منطقة بيدجونا تتبع بورنو من قبل وكان سكانها من البورنويين ويتحدثون اللغة الوطنية، وتضم المنطقة الكثير من المدن والقرى ، وتنتج القمح الهندى والكسافا والقمح والقطن ، وتكثر بها أيضا قطعان الماشية ، والوسيلة الوحيدة للزراعة هى الفاس المصنعة محليًا، كما أنهم يزرعون عن طريق سكينة ملتوية، ويقطعون فقط سنابل القمح التى يحفظونها فى أكواخ دائرية من الطين أو حصير مدفوع على كتل خشبية بعيداً عن الأرض ويقطفون القمح من القش يدويا عن طريق الاحتكاك ويطحن دقيقًا بين حجرين (ما يسمى الرحاية) ، ولم نشهد أية زراعة إلى الجنوب من سوكنا وهى مدينة بين طرابلس وفزان.

وسألت الحاكم عن النهر الذى عبرناه على قارب بين جاتيماران وبيرنى القديمة والذى ظهر ثانية بالقرب من معسكرنا الحالى ، وأخبرنى أنه ينبع من منطقة ياكوبا بين تلال صخرية، ويجرى ناحية الشرق من بيرنى القديمة ثم يدخل بعد ذلك مباشرة إلى نهر يووى ، وعندما سألت ثانية عن ياكوبا (Yacoba) وهو اسم هذه المنطقة قال اسم السلطان لأن السكان كانوا وثنيين ولا اسم لمنطقتهم ، وأضاف أن النهر معروف باسم النهر الصغير، وفى هذه الأجزاء لا يجف طوال العام.

ويبدو أن المنطقة ناحية الجنوب الشرقى والجنوب الغربى كلها من المستنقعات التى تفيض فى موسم الأمطار ، ويشبه الفلاتا فى شكلهم وطريقة لبس العمامة سكان تطوان (Tetuau) فى مراكش ، ويكنّ السكان الذين يحكمونهم كل تقدير واحترام لهم لأنهم يطبقون العدالة، كما أنهم يعطفون علينا بشكل متحضر، وتصادف أن شاع اسم الأسيرين بمجرد مغادرة المدينة فى الصباح، وعلى هذا فقد تم إطلاق سراحهم لكن لم يستردوا ملابسهم.

لم نكن ندين للتجار العرب بسبب الاسم الجيد الذى أطلقوه علينا حيث نظروا إلينا مثل نظرتهم لوطنهم ، ورغم أننا كإنجليز كفرة فإننا كنا نتساوى معهم، وأعتقد أنهم ضحوا بحياتهم من أجل الدفاع عنا، وحقًا فإن السفر مع قافلة أفضل كثير من السفر بالطرق التى اتبعناها من قبل ، فالكل يسعى لخدمتنا والدفاع عنا ، وتقع بحيرة زمبروم (Zumbrum) على بعد عشرين ميلاً ناحية الجنوب الغربى من مدينة بيدجونا.

٢٨ ديسمبر:

عند شروق شمس هذا اليوم كانت درجة الحرارة ٤٥ْ ، واصطحبنا صديقنا الحاكم مسافة ميلين أو ثلاثة خارج المدينة، وعند الفراق دعا الله أن يبارك فينا ووضع يديه على جبهته وتمنى أن نظل دائمًا أصدقاء.

كان الطريق من البداية يسير بمحازاة حدود المستنقع بجانب النهر الصغير الذى انتهى فجأة ناحية الجنوب عند مدينة تسمى جوبير Gaobeer وهنا ملأنا قرب المياه وواصلنا رحلتنا حتى وصلنا إلى تربة حمراء صلبة مغطاة بالحشائش الكثيفة الطويلة التى غطت رؤوسنا رغم أننا نمتطى الخيول، وعند غروب الشمس توقفنا فى الغابة بين الأشجار طوال الليلة وأخيراً ارتوت الخيول ودواب الحمل وملأنا القرب بالماء لكن أصابت الحمى الدكتور أودنى لكن من حسن الحظ أن المساء كان معتدلاً جداً ، ولمدة الأيام الثلاثة الماضية كان يشعل النار أمام خيمته والتى يبدو أنها خففت عنف وشدة السعال، وفى هذا المساء تحدث إلى وهو معتدل وقال "أشعر أن كل شىء انتهى بالنسبة لى، وكنت أتمنى أن أقود الرحلة إلى نهاية سعيدة لكن تلاشى هذا الأمل" وعندما تحدث أوصانى وأسلم الروح "أتمنى أن تضع مذكراتى فى أيدى السيد باروو أو البروفسير جيمسون بشرط أن ينال هذا الطلب موافقة الحاكم باثورست (Bathurst)"

وحيث إن هذا كان موضوعًا مؤلمًا فإننى لم أشجع تجديده أو تكراره وعلى هذا وحسب طلب صديقى العزيز فقد سلمت كل مذكراته إلى السيد بارور.

٢٩ ديسمبر:

بعد عناء لمدة ساعتين وسط أشجار كثيفة وصلنا إلى سهل واسع يضم العديد من القرى والمدن ووجدنا المدن نظيفة مثل مدن بورنو والأكواخ أصغر كثيراً وغالبا تحتاج إلى إصلاح كبير ويزرع السكان كميات ضخمة من الحبوب خاصة الكسافا (gussub)، وشاهدنا خمس نعامات طارت بسرعة من أمامنا، وبعد الظهر تحسنت صحة الدكتور أودنى بشكل كبير ووصلنا إلى سان سان واشتبك الفرسان عندنا أمام القافلة قبل دخول المدينة ، ثم أسرعت إلى باب الحاكم بعد أن أطلقت الصواريخ وهذه هى التحية العامة التى تقوم بها أى قافلة ، وكان الحاكم غائبا فى إحدى الحملات تحت رئاسة حاكم إمارة كاتاجم ، وكانت هذه الحملة ضد شعب البيت المجاورين لهم مباشرة ، وكما لاحظنا من قبل لم يعتنق هذا الشعب الدين الإسلامى ، رغم أنهم يتحدثون لغة البورنو ، ويعترفون بالسيادة الاسمية لسطان بورنو فإنهم يعتبرون جنساً خارجًا عن القانون ، ويجب استرقاقهم أو قتلهم من جانب المسلمين والبورنيين أو الفلاتا، ويقال إن هذا الشعب لا يعتنق أية ديانة وعلى العكس فإن مشاعر هذه الجماعة تتفق مع وجود كائن أسمى يمارس نشاطه بين كل الأمم وفى كل العصور. والطعام المفضل لدى هذه القبيلة هو الكلاب التى يربونها لهذا الغرض، وتعد دولتهم صغيرة إلى حد ما وهى محمية بالغابات التى تعطيهم استقلالاً خطيراً.

وفى مدينة سان سان قام السكان الوطنيون بخدمة الحملة فضلا عن العرب المقيمين هناك ، وكان من بينهم ابن عم شيخ بورنو الحاج الأمين الهانم ، وكانت التقارير الخاصة برحلات أصدقائنا والتجار قد ساهمت إلى حد كبير فى التمجيد بطبيعة مهمتنا فى أى مكان نذهب إليه.

٣٠ ديسمبر :

عند الظهر أقمنا معسكرنا عند خط عرض ١٢° ، وكلمة سان سان تعنى بالعربية "التجمع" إذ تتجمع فيه وفود الجيش السابقة قبل القيام بأى حملة ، وقد اشتق اسم

المدينة من سلطان بورنو الراحل الذى جعلها مكان التقاء الجيش عندما قرر الذهاب لمهاجمة بلاد الهوسا، ولا يزال المكان الذى نصبت فيه خيمته مكاناً له تقديره واحترامه ، كما أن الجيش هو الذى قام ببناء المبانى المحيطة به كما أن المنطقة المجاورة مليئة بالمدن والقرى ، وكلها فضلاً عن مدينة بيدجونا وسان سان تحت سلطة حاكم إمارة كاتاجم الذى يتبع هو نفسه لحاكم إمارة كانو ، وتتكون سان سان من ثلاث مدن متميزة تسمى سان سان بيرنى وسيدى بورى وسان سان بانا، ويقطن الحاكم فى المدينة الرئيسية وهى سان سان بيرنى أو سان سان جورا وتعنى المدينة المسورة من بقايا سور طينى قديم ومحاطة بخندق جاف كان يمتلئ بالمياه، والمسجد بلا سقف كما أن الأكواخ ومنازل المدينة قديمة ، أما سيدى بورى وهى إحدى المدن الثلاث فتقع على بعد نصف ميل من سان سان بيرى ، ويقطنها عرب الشوا، أما المدينة الثالثة فتدعى سان سان رانا او الإلام حيث توجد خيمة السلطان ، وتبعد ميلا من سان سان بيرنى ويسكنها البورنويون بأعداد ضخمة والتى جاءوا إليها بالقوة من بيرنى القديمة ، وتوجد مدن أخرى فى بورنو ، والآن كل المدن قابلة للتغيير.

وكان الفلاتا قد أسروا أخت سلطان بورنو، وهى تعيش الآن مع زوجها لكن فى ظروف غامضة رغم أن أخاها السلطان له مكانته الكبرى بين البربر فى وسط أفريقيا ، وجاءت لمقابلة القافلة مع عدد كبير من نساء المنطقة وكانت متخفية بملابس خاصة ، ويتكون لباس النساء فى بورنو من القماش وهو عبارة عن قطعتين أو واحدة من اللون الأزرق والأبيض أو المخطط كما وصفت من قبل، ويلف القماش بإحكام حول الوسط ويتدلى من القلب خلف الركبة، وإذا لبست قطعة أخرى مثل النساء ذات الاحترام والمكانة الأعلى فإنها تتدلى على الرأس والأكتاف ، أما الأحذية فهى متشابهة مثل الرجال وهى مصنوعة من الجلد المدبوغ حسب الظروف.

والشعر مصفف فى خمسة أقسام ، ويقومون بطلاء الحواجب والأيدى والأذرع والأقدام والأرجل بنفس اللون عدا الأظافر فى الأيدى والأقدام وراحة اليد والتى تصبغ بالحناء الحمراء، ويضعون مادة سوداء على الرموش من مسحوق الأنتمون أما الزينة فى الأذن فليست مثلنا بل هى عبارة عن بعض الأصداف أو الأزرة (الزرار) ويلبس الفقراء منهم قطعًا من الزجاج والودع حول الرقبة ويتزين الأغنياء منهن بقطع حول

الأذرع والأرجل من القرون أو النحاس أما الزينة من الفضة فهى نادرة ولم نشهد أى زينة من الذهب.

٣١ ديسمبر:

عند شروق الشمس كانت درجة الحرارة اثنتى عشرة درجة وكان هذا اليوم يوم السوق وأخذت جولة لأشاهد ما فى هذا السوق الذى يقام فى أرض مرتفعة إلى الجنوب قليلا من مدينة سان سان بيرنى ، والسوق نفسه عبارة عن قرية صغيرة حيث تعرض البضائع والسلع للبيع إما فى المنازل أو فى أماكن مكشوفة قرب الشارع، وتنظم المحلات كل حسب نوعه فى حى خاص : السكاكين والمقصات والأمواس والإبر والودع ، والقطع الفضية والحديدية والسيوف والأرواب واللحم البقرى والضأن والدواجن والفول والقمح الهندى وغيرها من السلع ، وتوجد لديهم أربعة أنواع مختلفة من القمح الهندى ، الأصفر والأحمر والأبيض والمصرى ، ويعتبر النوع الأخير أفضلها جميعًا، وهناك متاجر لإصلاح أى شىء ، وتوجد فرق موسيقية من الطبل والناى والجيتار تسمى غربال (Erbale) كل حسب طريقته البدائية ، وتتجول من مكان لآخر لجذب الانتباه عند الزبائن.

١ يناير :

لقد أصبح الدكتور أودنى فى حالة صحية سيئة ، وفى هذا اليوم جاء لزيارتنا حاكم سابق اسمه يسوع (Jesus) كان قد ترك الجيش الليلة الماضية وأخبرنا أن القيادات سوف تعود اليوم إلى مختلف حكوماتها لأنها غير قادرة على اختراق مناطق البيد (Bede) ، وقد أعطانا معلومات مهمة جعلتنا نفكر فى أن نقدم له هدية لكن كنا فى حالة من الفقر لدرجة أننا لم نفهمه وفى الساعة الثامنة صباحًا واصلنا رحلتنا فوق أرض مستوية، وصار الطريق الملتوى أعرض من مجرد ممر للأقدام ، ومررنا على العديد من المدن والقرى التى تضم مزارع للقطن والكاسافا والقمح الهندى، وازدادت

كميات الأشجار والغابات كلما اقتربنا من مدينة يووى كلما ازدادت أعداد القرى التى تزرع القطن ، وتوقفنا عند قرية تسمى أوبندا (Obenda) لا تبعد أكثر من ميل عن مدينة يووى، ولم نستطع الحصول على اللبن لأن حالة الدكتور أودنى الصحية قد ساءت.

ولم يكن لدينا شيء سوى الكسكسى وخليط من القمح يسمى أتويدا (otweeda)

٢ ينايـــر:

أصبح الدكتور أودنى فى حالة صحية سيئة هذا الصباح واشتريت رطلا من اللبن مقابل ثلاثة دولارات من أحد التجار فى القافلة لأننا لم نتناول سوى فنجان من القهوة، وفى هذا اليوم سرنا فى طريق وعر ملتوٍ حيث إنه لا يوجد طريق منتظم ، ومررنا على عدة قرى يتواجد بجانبها صفان طويلان من مخازن القمح وفى البداية كنا مرتبكين من هذا الشكل الغريب ، ولكن بعد الفحص الدقيق وجدنا أنها مصنوعة من الحصر بالشكل المعتاد، ومقامة على أعمدة لمنع النمل الأبيض من الدخول إلى القمح، وبالقرب من مدينة يووى توجد حقول كثيرة من القمح فضلا عن مزارع القطن ويقوم السكان بزراعة محصول القمح الثانى عن طريق الرى .

وقبل الظهر بقليل عبرنا نهر يووى وعرض الفرع مائة وخمسين ياردة لكن مجرى الماء جاف، ولكى نحصل على الأسماك فقد امتلأ النهر . بصنف كبير، أدوات الصيد مصنوعة من غاب البامبو على شكل مخروطى ويبلغ قطرها عند الفتحة خمسة أقدام ، مع قطع من البامبو تبعد الواحدة عن الأخرى ثلاثة أقدام، والبقية تغطى بالغاب لمنع هروب الأسماك، وفى هذه الفترة لا تمتلئ الفتحات بأكثر من ثلثها بالماء ، وتقع مدينة كاتاجم على بعد نصف ميل من النهر وما أن عبرنا إلى هناك حتى التقينا بأحد خدم الحاكم وهو يمتطى جواداً، وقدم إلينا سلة صغيرة من الجوز، وبعد أن تلمسنا الهدية عاد الخادم بأقصى سرعة إلى مجموعة من الفرسان على بعد مسافة قصيرة، ويبدو أنهم مرافقى بعض الشخصيات المهمة وجاءت المجموعة نحونا مهرولة رافعة السهام، وظل قائدهم فى الخلف فضلاً عن فرقة موسيقية ، وبعد أن قدم الفرسان التحية داروا

حولنا ، وساروا أمامنا وقرعت الطبول، وغنت اثنتان من النساء أغانى المديح ، وقمت بكتابة بعضها والتى أترجمها على النحو التالي :

أعطى سمكة للريس عند طلوع النهار

آه، الرماح الواسعة

إن رمح السلطان أعرض

آه، رماح عريضة

إننى أمسك ثلاثة الآن

لا أرغب فى رؤية أى شيء أخر

آه الرماح العريضة

إن حصانى طويل ومرتفع مثل السور

آه الرماح العريضة

سوف يحارب ضد عشرة ولا يخشى شيئا

آه الرماح العريضة

لقد ذبح عشرة رجال ولا تزال البنادق دون استخدام

آه الرماح العريضة

إن السلطان مثل هؤلاء

آه الرماح العريضة

كن شجاعًا .. كن شجاعًا صديقى ورفيقى

آه ، الرماح العريضة

الله أكبر .. إنني أهجم على الفريسة مثل الحيوان

آه ، الرماح العريضة

اللـه أكبـر .. لقـد تحقـق كـل مـا أتمنـاه

آه ، الرماح العريضة

هذا في الوقت الذى تقدم القائد مع الفرسان أمامنا نحو المدينة ، وتوقفنا في مكان مخصص لها وللعرب بينما واصل البورنويون رحلتهم ؛ حيث انتهت مخاطر الطريق .

وبعد الساعة الثالثة ظهراً شاهدنا الحاكم مع كل مرافقيه الذين جاء وا لزيارتنا، وفرش محمد الوردى الحصير تحت شجرة لاستقباله ، وطلب منا أن نظل بضع دقائق في خيامنا، وعندما أرسل إلينا وجدنا الحاكم يجلس على الحصير وحوله التجار العرب وحرسه المسلح ، واستقبلنا بحفاوة بالغة وقال إنه عيد له أن يرانا ، وسوف يكون شاكراً لرئيسه سلطان الفلاتا الذى لم يشهد أى رجل إنجليزى من قبل والذى يسعد بهذا اللقاء، ، وأكد لنا أننا سوف نشهد كل شيء هنا مثلما كان في كوكا مع شيخ بورنو ، وقدم الدكتور أودنى خطاباً للشيخ الذى أعطاه لأحد الحراس، وقد ارتفع صوت التجار العرب بالثناء علينا خاصة أن إنجلترا تحتفظ بتحالف وطيد مع السلطان العثمانى، كما أنها تقدم الدعم للصدر الأعظم، ودنكاوا هو اسم الحاكم وهو رجل لطيف ، بدين الجسم، أصلع الشعر لكن روحه مرحة وصادق في وعده، وسلمنا عليه عند الوداع وهى عادة الفلاتا أو الفولانى كما يسمون أنفسهم، وأرسل إلينا بعض القمح عند عودته إلى مدينته ، وكنا في أمس الحاجة إليه فضلا عن العسل والجوز، وبناءً على نصيحة محمد الوردى أرسلنا إليه هدية من ورق البرسيم ، وهى هدية صغيرة لكنها معبرة في مثل هذه المناسبات وبسبب ندرة المخزون لدينا من كل شيء فإننا لم نقدم أى هدايا .

وبعد أن غادرنا الحاكم قام أحد تجار طرابلس لخدمتنا ويدعى حميدا وهو رجل طيب حسن المظهر وثرى جداً، ويمتلك ما لا يقل عن خمسمائة عبد فضلا عن عدد ضخم من الخيول، وهو الرجل الثانى في كل مدينة كاتاجم، وشارك في معظم حروب

الفلاتا، وعند الإشارة إلى نتائج الحملة الحالية لاحظت أنها كانت أفضل لو أن الفلاتا لم يهاجموا البيوت Bedites الذين تحصنوا فى مواقعهم، وأجاب أن الفلاتا صاروا أغنياء ويخافون من الضربات، ووجد حميدا الفرصة لأخذ رأى الدكتور أودني الذى أوصاه بشدة وبضرورة العودة إلى طرابلس لإجراء عملية جراحية ، وكان ممنونًا، وقدم لنا منزله وكل ما نحتاج إليه وأرسل اللبن إلى الدكتور أودنى مع القمح والشعير وقمح غينيا الذى يؤكل مع الزبد والحساء.

وهنا عانى الدكتور أودني من التعب أكثر مما تحتمل صحته ولقد انتشرت أخبار قدومنا فى كل مكان سواء فى المدن أو القرى التى مررنا عليها ، وكانوا يحضرون المرضى لنا لعلاجهم، ولم يكن المرضى وحدهم هم الذين يأتون إلينا طلبا للنصح ؛ بل جاء الرجال والنساء من كل صنف يطلبون العلاج من أمراض العجز الجنسي، وكانت النساء أكثر خيالا وتسعى للحصول على الدواء الذى يحفظ لهن أزواجهن أو يؤثر على موت المنافسين لرجالهن وقدم إلينا الحاكم هدية عبارة عن ثلاثة خراف كما قدم للتجار العرب ثمانية ثيران.

٣ ينايــر:

تحسنت صحة الدكتور أودني قليلاً لكنه ما زال ضعيفًا جدًا، وقمنا بزيارة الحاكم فى الصباح بصحبة محمد الوردى بعد أن جهزنا هدايانا التى تتكون من صوانى الشاى وعشر ياردات من الحرير الأحمر ومفرش سرير هندى ، وقطعة قماش من الصوف مع خيوط ذهبية صنعت فى مصر، ورطل من السمسم ورطل من البرسيم ، وتوقفنا حوالى ساعة فى منزل حميد حتى استعد الحاكم لاستقبالنا وعندما دخلنا عليه لم نجد عرضًا من الرجال المسلحين مثلما كان فى كوكا وغيرها من مدن بورنو وكان الحاكم دنكوا يجلس على أريكة متواضعة على قطعة من الأرض حوالى ستة أقدام مربعة وكان معه ثلاثة رجال من كبار السن ، وسلمنا عليه وجلسنا على الأرض أمامه وأمسك يدى بحرارة وطلب أن أجلس بجواره ومع ذلك فإننى لم أقبل هذا التشريف العظيم، وقدم لنا الجوز وكرر نفس الوعود التى ذكرها بالأمس ، وعندما عرضنا عليه

الهدايا وشرحنا له طريقة استخدام الصينية والمادة التى صنعت منها، كان مسروراً جداً، وسألنا إذا كنا نرغب فى عبيد أو أى شىء آخر لأن كل شىء يملكه تحت تصرفنا، وأما بخصوص العبيد فقد أخبرناه أن العبد غير معروف فى إنجلترا، وأنه فى اللحظة التى تطأ قدمه أرض إنجلترا فإنه يصبح حراً، وشرحنا له محاولاتنا لوضع حدٍ لتجارة الرقيق على الساحل وأن ملكنا وسيدنا قد أعطى مبالغ ضخمة لإلغاء هذه التجارة إلى جانب أنه يرسل كل عام عدداً كبيراً من السفن للقبض على السفن التى تعمل فى هذه التجارة وتقوم بإطلاق سراح هؤلاء العبيد. وعندئذ قال ماذا تريدون إذاً مع دهشته إلى حد ما. وكان ردنا أننا نريد فقط صداقته والسماح لنا بجمع الزهور والنباتات من هذه المناطق وأن نزور أنهارها "عجيب ... وصاح مدهش إنكم لا تريدون عبيداً ولا تريدون خيولاً ولا تريدون أموالاً ولكن فقط تريدون أن تروا العالم. يجب أن تذهبوا إلى السلطان بلو الذى يُعد رجلاً مثقفًا ومتعلمًا وطيب القلب، وسوف يكون مسروراً أن يرى رجالاً شاهدوا أموراً كثيرة، سوف تحصلون على الكل وسوف ترون الكل فى منطقتى، وإننى واثق أن سيدى سوف يمنح كل شىء ترغبون فيه . وعندئذ نزل من كرسى الشرف وجلس على الأرض بجانبى وسلم علينا، وهذا أكبر تشريف من رجل له مكانته يقدمها للآخرين فى بلاده".

وقد تحققت إحدى الأمانى السعيدة فى الحال فالخادم الذى ساعدنا فى إحضار الهدايا وقف ليتلقى ثمار الجوز التى قدمت لى حسب أوامر الحاكم، وعندما نهض قلب الإناء الذى يحتوى على العسل الذى حصلنا عليه لكن دون أن يكسر الإناء وانساب العسل على الأرض، ولو انكسر الإناء فإن الأمنية تكون سيئة، والأمر كذلك وقد سرّ الحاكم تمامًا وطلب من العبد المسكين أن يحضر ويلعق العسل، وركع الخدم وأكلوا العسل فوراً وجاء أحد الرجال ذوى اللحية الطويلة وشارك فى هذه الوليمة.

حصلنا على إذن الحاكم وعدنا إلى خيامنا حيث تجمعت النساء والرجال حول الدكتور أودنى طلبًا للدواء، وفى المساء تناولنا اللحم المسلوق مع الخبز اللذيذ الذى أرسله صديقنا حميد فضلاً عن اللبن الذى وصلنا من الحاكم وأيضًا خروفًا حيًا أرسله أحد الأشراف السود الذى جاء يطلب المشورة من الدكتور أودنى، وفى هذا اليوم شعر الدكتور بالضعف الشديد نتيجة الإسهال والحاجة إلى الراحة فى هذه الظروف السيئة.

وعند الظهر سجلت ملاحظات عن الشمس. وفى البداية تجمهر الأهالى حولى بشغف كبير لكنهم جلسوا بهدوء على بعد مسافة عندما أخبرتهم أنهم فى طريقى وكنت أسمع نفس السـؤال الذى يتكرر فى كل مكان عـمـا إذا كنت أرغب فى مـشـاهـدة الإقليم، وشرحت لهم بقدر مـا أستطيع أننى أؤكد هذا وأننى قطعت مسافات بعيدة ناحية الجنوب وبعيداً عن وطنى لمشاهدة هذه الأماكن .

٤ ينايـر:

كان الجو بارداً ودرجة الحرارة ٤٨ْ ، وكان محمد الوردى قد ذهب إلى مدينة تدعى هاديجيا Hadeeja وهى على بعد مسيرة يوم ناحية الشمال حيث سيظل هناك يومًا أو يومين حيث تم الاتفاق من قبل على أن نذهب إلى هذه المدينة ونسكن منزل حميد حتى عودة محمد الوردى حيث إن القافلة سوف تتقدم نحو إمارة كانو فى اليوم التالى .

وعند شروق الشمس طلب منى الحاكم أن نحضر إلى المدينة لكن بسبب مرض الدكتور أودنى انتظرنا حتى انتهاء حرارة هذا اليوم، وعند الظهر حملنا الإبل وتقدمت مع الدكتور أودنى إلى المقدمة يصحبنا شعب الحاكم الحاج ابن حميد شيخ القافلة أو الرئيس الذى ينظم المسيرة ومراحل السير والطريق، وعندما دخلنا المدينة أرشدونا إلى منزل مجاور لمنزل حميد والمفروض أنه بيته، وأخبرنا الناس حولنا أنه من الأفضل أن نذهب ونشاهد الحاكم، ونزل الدكتور أودنى من على ظهر حصانه لكنه تمنى أن ننتظر حتى تصل أمتعتنا، وطلب منا الناس أن نذهب دون إبطاء، ووافقنا على مطالبهم، وقابلنا الحاكم علي بوابة مسكنه، وأخذنا من أيدينا، وقادنا أولاً إلى أحد المساكن وبعدها إلى مسكن آخر قائلاً : "هذا من أجلكم وهذا من أجل الدكتور أودنى، وهناك مكان للخيول" وجلس على حصير وطلب منا الجلوس، ووصلت إلينا الأمتعة وقال "عبد الله وتحدث إلىّ باسمى أثناء الرحلة ، أرنى المرآة التى ننظر بها إلى الشمس" ويبدو أن الناس أخبروه بما قمت به فى اليوم السابق، وكان على أن أشرح طريقة استخدام البوصلة – والمرآة وأدوات أخرى، وطلب منى بعضًا من الفضة التى تستخدم

لإجراء ملاحظات على الأفق. وهذا يشبه أن يطلب منى أن أنفصل عن دم قلبى، ولكن نظرًا لأنه حاكم وله نفوذ عظيم فلم استطع رفض طلبه، وقضيت وقتًا طويلاً لكى يفهم طريقة استخدام البوصلة Sextant وقد فهم الأخيرة بسهولة وأخبرته أنها تستخدم لمعرفة المسافة شمالاً وجنوبيًا من مكان لآخر، وشرحت الموضوع بأن أخبرته أن نجم الشمال أعلى فى السماء في مرزوق عن هذا المكان، ولا يزال أعلى فى طرابلس، وهى حالة أكدها أهالى هذه الدول، وهذا ما وفر علىّ عناء الشرح أكثر.

وكان التلسكوب موضوع دهشة آخر ، وقال إن كل الأماكن التى شاهدها صارت قريبة منه وصعد على أسطح المنازل والأسوار ليرى المنظر أفضل وقد نظر كل من أتباعه فى هذا الجهاز لكن لم يستطع أحد الأشراف كبار السن النظر فيه وهرب بعيداً وكأن أفعى تستعد للدغه أما هؤلاء الأشراف الذين ينتمون إلى نسب النبى محمد صلى الله عليه وسلم فكان منهم بعض السود وهذا يدعو إلى العجب وكيف أن سلالة الرسول أصبحت بهذا السواد ، لكن الأمر لا يستحق الدهشة لأنه إذا نظرنا إلى الظاهرة نجد أن الاختلاط والأنساب سواء بين البيض والسود يضيع بمرور الأجيال رغم أن السلالة تستمر دون توقف.

حصلنا على الكثير من المؤن من حميد كما أرسل الحاكم إلينا السمك والقمح المصنوع منه طعامًا مجففًا فى الشمس بعد خلطه بالماء واللبن، ويضاف إليه الفلفل الذى يعطيه مذاقًا غير مناسب.

وتقع كاتاجم عاصمة الإقليم عند خط عرض ١٢° شمالاً، وتشكل هذه المنطقة حدود بورنو قبل غزو الفلاتا، وفى الوقت الحاضر تضم المناطق الخاضعة لسان سان وبيدجونا، وتمتد مسافة رحلة يوم ناحية الشمال، ورحلة خمسة أيام ناحية الجنوب حيث تحدها منطقة مستقلة تسمى باسم السكان وتدعى كورى كورى Kurry Kurry وتحدها من الشرق مملكة بورنو ومن الغرب منطقة مديرية كانو، ومن المعلومات التى جمعتها تستطيع هذه المنطقة أن تقدم إلى ميدان المعركة حوالى ٤٠٠٠ فارس و ٢٠٠,٠٠٠ من المشاة المسلحين بالسيوف والحراب والسهام، والإنتاج الرئيسى هو الحبوب والثيران التى يحصلون عليها مع الرقيق من المناطق المجاورة للوثنيين وهى سلع أساسية

للتجارة. وهنا وجدنا للمرة الأولى الودع (الأصداف) التى تعد العملة حيث يوجد أيضاً القماش المحلي أو بعض السلع الأخرى كمعيار للسعر. وتعد هذه أقوى مدينة وصلنا إليها منذ مغادرتنا طرابلس وهي مربعة الشكل وجوانبها تواجه النقط الرئيسية في البوصلة مع أربع بوابات رئيسية والتى تفتح وتغلق بشكل منتظم مع شروق الشمس وغروبها ويتم الدفاع عنها من خلال سورين متوازيين من الطمي الأحمر، وثلاثة خنادق جافة أحدها في الخارج والآخر في الداخل والثالث بينهما، وارتفاع الأسوار عشرين قدماً وعرضها عشرة أقدام عند القاعدة وبالتدرج يقل السمك كلما اتجهنا إلى أعلى حتى نصل إلى عرض يسمح فقط بمرور القدم، والسوران على نفس الارتفاع دون فتحات أو أبراج ويتم حماية البوابات بجماعة على قاعدة مرتفعة داخل المدخل تتولى صد أى هجوم، أما الخنادق الثلاثة فهي نفس الأبعاد، وعمق كل واحد منها خمسة عشر قدماً وعشرون قدما فى العرض. ويوجد مسجد واحد فقط لكنه مدمر تماماً وفي وسط المدينة يقع مقر الحاكم ويشغل مساحة ٥٠٠ ياردة مربعة، وتبنى مساكن الحاكم والسكان الأساسيين من الطمي فضلاً عن الأكواخ التى وصفناها من قبل ، الأسقف مسطحة حسب النمط التركي وأحياناً تحتوى على طابقين مع وجود فتحات مربعة أو شبه دائرية للنوافذ وتضم المدينة ما بين ٧,٠٠٠ إلى ٨,٠٠٠ نسمة بما فى ذلك كل التجار مع العبيد والخدم التابعين للحاكم.

وإلى الجنوب من كاتاجم تقع دولة يعقوب Yacoba والتى أحكى عنها بعض التفاصيل التي جمعتها من الأهالى الذين عاشوا فى الأسر مثل الذى سمعته من هميدا Hameda ويطلق المسلمون عليها دول بوشي Boushy أو أرض الوثنيين، وهي أرض ذات تلال ضخمة تحتوى على الحجر الجيرى الذى يضم معدن الأنتمون والفضة، وحمل السكان لقب أكلة لحوم البشر والذى لم أشهده، ومن المحتمل أن تكون الشهرة نابعة من قصة عربية غير صحيحة وربما من المسلمين الذين يكرهون الكفار، وعندما سألنا العرب بدقة أكثر اعترفوا أنهم لم يشهدوا قط هذه الحقيقة ، ولكن أكدوا وجود جماجم بشرية وأطراف آدمية معلقة فى منازل الأهالى، وعندما وصلنا فى البداية إلى مرزوق سمعنا تقريراً متشابهاً لكن لم أحصل على تأكيد له.

أما نهر يووى الذى يبعد بربع ميل من كاتاجم فإنه ينبع من ناحية الجنوب بين تلال بوشى ما بين إمارة أدماوا وجاكوبا (Jacoba) وبعد أن يمر على كاتاجم يتجه مباشرة ناحية الشرق، ويصب فى النهاية فى بحيرة تشاد، ومياهه غير صافية كما لاحظنا، وفى منتصف موسم الجفاف نجد فقط بعض الفروع العارية وبعض المستنقعات وهى كل ما تبقى من النهر وعرض الممر فى المكان الذى عبرناه أخيراً حوالى ١٥٠ ياردة ، ويُعد هذا متوسط عرض النهر وهناك رأى سائد بين السكان والتجار العرب أنه فى الفصل المطير ترتفع مياه النهر وتنخفض كل سبعة أيام وهى فكرة نبعت أساسًا من فترة سقوط المطر وقد لاحظت ذلك بنفسى أثناء إقامتى فى بورنو.

٥ ينايـر:

اعتقد الدكتور نفسه أنه قد تحسن قليلاً لكن استمرت حالة الإسهال، وغادرتنا القافلة هذا الصباح متجهة إلى إمارة كانو، وزارنا الحاكم وكنت بعيداً عن المنزل، وأرسلوا فى طلبى، وعند عودتى كان الحاكم قد ذهب بعد أن ترك رسالة لى بأن يرانى مع البوصلة ومرآة التجسس وغيرها لأنه يرغب أن يرى هذه الأشياء لبعض الرجال المهمين، وتبعته ووجدته جالسًا فى صحبة اثنين أو ثلاثة من الفلاتا، وكان علىّ أن أشرح لهم استخدام هذه الأدوات مرة ومرة، ولكن كان علىّ أن أبذل جهداً وقدراً كبيراً من المشقة للحاكم نفسه والخدم من فزان وأخذنى لزيارة زوجته المفضلة التى ادعت أنها خائفة بالطبع عند رؤية رجل مسيحى، وكانت جميلة حسنة المظهر، وإلى جانبها كان لدى الحاكم عدد كبير من النساء، وكل بيوتهن نظيفة وأنيقة، وبعد ذلك أوصلونى عبر أجزاء أخرى من محل الإقامة، وعندما وصلت إلى إسطبل الخيول جلسنا فى حوش واسع، وانضم القاضى ورجل أخر مثقف من الفلاتا، وكررت نفس الشرح مرات ومرات، أما القاضى الذى كان قد أدى فريضة الحج إلى مكة وتعرف على الثقافة العربية فكان رجلاً عاقلاً وصاحب رأى وشرح استخدام الساعة لأهل وطنه بكل دقة. وهو من الفلاتا ويبلغ من العمر خمسين عامًا وملامحه سوداء كالفحم، وأنفه أعقف،

وعيونه واسعة، ولحيته كثيفة. والمعروف أن منصب القاضي وراثي، ويوجد واحد في كل مدينة لتطبيق العدالة، وأهم مؤهلاته الأساسية حفظ القرآن الكريم رغم أن الحاكم يمكن أن يعارض قراراته، وأيضًا يعارضه سلطان الدولة.

ويسكن الحاكم في مبنى مربع يحاط به سور من الطين الأحمر، وارتفاعه ثلاثين قدمًا على الأقل، وينقسم إلى أربعة أركان أساسية بالإضافة إلى عدد من المنازل ذات الأسقف المسطحة وهي مبنية من الطين وتضم عدداً من الأكواخ لأن معظمها تقع في صف واحد داخل الأسوار الكبرى. وهذه أساسًا مخصصة للعبيد والحراس، وتقع إلى جانب مسكن الحاكم. وكانت إقامتنا في المكان الذي كانت حراسته ليلاً ونهاراً . وبجوار البوابة الشرقية يوجد مجلس أو صالة استماع تؤدي إلى مساكن الرجال في الجانب الشمالي من الحي، وتشغل الإسطبلات ربع المساحة ولكل حصان كوخ خاص به ، أما الأعمدة التي تدعم حجرة البوابة الغربية فهي أرقى الأماكن التي شاهدتها في وسط أفريقيا . فهي تتكون من جذوع أشجار موضوعة على شكل أعمدة تحيط بها طبقة من الطين.

٦ ينايـر:

تحسنت صحة الدكتور أودني كثيرًا هذا اليوم. وبعد الظهر زارنا الحاكم وكان عليَّ أن أعرض عليه آلة قياس الأجرام السماوية من الطائرة أو السفينة وغيرها من الآلات الأخرى. وكان السؤال بشكل خاص عن الصواريخ التي قدمناها لشيخ بورنو، وأصر على أن لدينا بعضا منها، وعندما اقتنع بالعكس كانت لديه رغبة في أن أصنع له بعضًا منها، وأكدت له بكل أسف عدم قدرتي، بينما اعترفت بأن هذا واجب مفروض عليَّ من جانب سيده الملك في أن أعلمه هو وشعبه كل شيء مفيد وغريب، ومن الأسئلة الكثيرة التي سألها : هل أنا صليت من قبل؟ وقلت لن أكون رجلا حسنا إذا لم أصلِّ لكننا نصلي منفردين، وقد سرته هذه الإجابة.

وصل اليوم الحاج على بوكالوم (أخو القائد المرحوم الذى كان فى صحبتنا من مرزوق) ومعه قافلة من كوكا، وكانوا قد تركوا المكان بعد سبعة أيام من مغادرتنا. وتمنيت ألا أشاهد وجه هذا المتشرد الأحمر.

٧ ينايــر:

فى الصباح الباكر زارنا الحاكم، وجاء أولاً إلى خيمتى بينما كنت أكتب، وكنت مضطراً أن أعرض عليه الآلات وعندما فتحت الصندوق الخاص بى ، ويحتوى على البارود الذى أحضرته من إنجلترا ولا يزال كما هو دون أى مساس ، كنت صريحا وأنا أخبره عما فيه لكنه لفت انتباهه ، وكنت مضطراً لتلبية طلبه وإعطائه بعضا منها ، ولكى أزيد من مدحه طلبت منه أن يطلق النار على علامة معينة، وأطلقت النار مرتين من مسدس ، وقد أصبت الهدف فى المرتين من على بعد مسافة ستين أو سبعين ياردة عندما صاح : "الله يحفظنى من الشيطان" وألقى بيديه على كتفى ثوباً جميلاً.

٨ ينايــر :

لقد كانت صحتى متوعكة طوال اليوم.

٩ ينايــر:

تركنا الحاج على بوكالوم هذا الصباح متجهًا إلى كانو وبذل كل ما فى وسعه لإغرائنا لمرافقته لكن عرفنا أنه رجل مسن ، بل طلب من الحاكم أن يرسل أحد أبناء شعبه ، لكنهم سخروا منه عندما طلب ذلك.

اصطاد الخدم أنثى الفأر وطولها سبعة بوصات وقدمين من الأنف إلى طرف الذيل ، وكان لونها رمادى فاتح ، والذيل أسود ومغطى بشعر طويل ، والرأس مستديرة عن أى فأر عادى آخر .

وتوقف الإسهال عند الدكتور أودنى لكن لم يتحسن السعال ، وكان مريضًا جدًا وكان قد استدار على الجانب الأيسر بمساعدة أحد الأهالى ، وأدوا هذه العملية بمهارة.

وزارتنا زوجة القاضى ، وهى أخت دونكاوا ، وقدمت إليها خاتمًا من النحاس ، وزوج مقصات وبعض الخرز.

وبعد الظهر لم أكن مندهشا من الرسالة التى أرسلها الحاكم وحملها الوردى يخبره أن الحاج على قد أخبره أننا جواسيس وأننا شعب سىء ، وتمنى أن يعرف عما إذا كان هذا الكلام صحيحًا ، ولا أعتقد أنه من المناسب أن أزعج الدكتور أودنى بأن أحكى له هذه الأمور ، وطلبت من الوردى أن يحكى للحاكم أنه فى إمكانه أن يفعل بنا ما يشاء وفى الوقت نفسه طلبنا الرجوع إلى خطاب شيخ بورنو ، وعاد الوردى بسرعة وأكد لى أن الحاكم مسرور.

١٠ ينايــر:

غادرنا كاتاجم اليوم بعد أن زودنا الحاكم بأحد المرشدين ووضعنا قطعة خشبية على الجمل لكى نضع عليها سرير الدكتور أودنى لأنه أصبح مريضا بشكل لا يسمح له بالركوب على ظهر الحصان ، وكنت أنا أيضا بصحة غير مستقرة ، واصطحبنا الحاكم أربعة أميال خارج المدينة ، وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر اضطررنا للتوقف نتيجة ضعف الدكتور أودنى حيث كان مريضًا جداً ولا يستطيع مواصلة التقدم ، كما كان الطريق أيضًا وعراً وملتوياً ويسير على طول مستنقع واسع ناحية الجنوب ، وقد مررنا على عدد كبير من القرى .

١١ ينايــر:

تقدمنا فى رحلتنا فى الساعة الثامنة صباحًا ولكن عند الظهر توقفنا مضطرين فى مدينة ميرمور (Murmur) نتيجة الحالة السيئة للدكتور أودنى الذى صار ضعيفًا جداً

ومنهكا لدرجة أننى توقعت أنه لن يعيش يوماً آخر. لقد كان الضعف والمرض يسيطران عليـه منذ أن غـادرنا تلال أوبارى فى فـزان ؛ حـيث أصـيب بالآلام فى الصـدر نتـيجـة الجلوس في تيار من الهواء البارد بعد أن تعرض لموجة ارتفاع حاد فى درجة حرارته .

١٢ ينايـر:

عند طلوع النهار تناول الدكتور أودنى فنجاناً من القهوة، وحسب رغبته طلبت بأن تجهز الإبل بحمولتها، وساعدته على ارتداء ملابسه، وبمساعدة خادمه خرج من خيمته، ولكن قبل أن نرفعه على ظهر الإبل لاحظت إشارات الموت على ملامحه وفى الحال أعدناه إلى الخيمة، وجلست بجانبه وسط حزن صامت وشاهدت آخر أنفاسه التى خرجت دون مقاومة أو تنهد، وأرسلت إلى حاكم المدينة لطلب السماح بدفنه، وفى الحال أبدى رغبته وموافقته، وشيدت له مقبرة حوالى خمس ياردات شمال إحدى الأشجار القديمة فيما وراء البوابة الجنوبية للمدينة، وبعد أن تم غسل الجثة حسب تقاليد البلاد تم تكفينه حسب أوامرى فى الأقمشة التى يصنع منها غطاء الرأس والتى كانت معنا لنقدمها كهدايا، وتم حمل الجثة إلى المقبرة، وقرأت عليها مراسيم الجنازة حسب كنيسة إنجلترا قبل أن يهال عليها التراب ، وبعد ذلك طلبت أن تحاط المقبرة بسور من الطمى حتى تمنع الحيوانات المفترسة من الاقتراب، كما تم ذبح خروفين ووزع اللحم على الفقراء.

وهكذا مات الدكتور ولتر أودنى الذى بلغ اثنين وثلاثين عامًا، وهو رجل طيب دمث الأخلاق، واسع المعرفة، وصاحب آمال عراض، وكان عقله مليئًا بالمعرفة والفضيلة والتدين، وفى أى وقت، وفى أى مكان تجد الدكتور أودنى صديقًا مخلصًا، ورجل تحمل الصعاب ، فى كل مكان بالنسبة لى كان صديقًا وزميلاً فى الرحلة كان يعمل بإخلاص وهو يعانى من الأمراض، والآن تركنى وحيداً وسط أناس غرباء، لكى أواصل السير عبر أقطار لم يطأها أى أوروبى من قبل، وكانت الخسارة كبيرة والألم يعتصر القلوب إلى أقصى درجة .

القسم الثانى

الرحلة من ميرمور إلى كانو

مع طلوع نهار الصباح التالى واصلت رحلتى معتمداً على آثار التغير فى الجو باعتباره أحسن علاج للعقل والجسم، وكان الطريق مليئا بالمستنقعات وعبرنا مجرى ضيقًا يسمى شاشوم (Shashum) يصب فى نهر يووى بالقرب من المدينة، وتوجد قرى عديدة على كل الجوانب.

١٤ يناير:

كانت درجة الحرارة ٥٢° ، ويقع الطريق وسط مناطق مزروعة تماماً، وعند الساعة التاسعة قبل الظهر وصلنا إلى مدينة ديجو Digoo التى تضم سوراً مزدوجا وثلاثة خنادق ممتلئة تماما، وتحتوى المدينة على منازل قليلة جدا لكن تكثر أشجار التمر وخارج الأسوار تقع العديد من القرى أو أعداد كبيرة من المنازل المتلاصقة وبعد ذلك بدأت تظهر حافات تمتد شرقًا وغربًا ويمتد طريقنا بجوار إحداها وهذا ما يعطى منظراً جميلاً للقرى وقطعان الماشية التى ترعى فى الأرض المكشوفة ، وفى المساء توقفنا تحت أسوار مدينة تدعى بوجاو (Boogawa) وهى آخر المدن فى مديرية كاتاجم، ولم أدخل هذه المدينة.

١٥ يناير:

فى هذا اليوم كان الطريق يسير عبر مناطق كثيفة الأشجار، وقبل منتصف النهار عبرنا مرة ثانية نهر الشاشوم الذى يجرى هنا ناحية الشمال وأحضر قواد الإبل

كميات ضخمة من التين الذى ينمو على الأشجار بجانب الطريق وقرب النهر، وبعد ذلك دخلنا فى منطقة واسعة مليئة بالزراعة وعند المساء توقفنا عند مدينة كاتنجوا (Katungwa) التى تحاط بسور مع عدد من أشجار النخيل، وهذه أول مدينة أدخلها فى مملكة الهوسا الأصليين (Housa Proper) وزارنى أحد الفلاتا الذى زار بغداد والقسطنطينية والقدس ومكة وينتمى إلى طائفة الدراويش (أعضاء الطرق الصوفية) وكان شخصًا محدثًا لبقًا وأخبرنى أنه التقى برجال الدعوة الوهابية فى مكة، وأنهم يتحدثون بنفس اللغة التى يتحدث بها الفلاتا، وقدمت له مقصين هدية مع علبه للروائح (النشوق) وكان فخورًا بها وأرسل إلى طبقا من الطعام فى الصباح وشاهدت هنا سلسلة من التلال الصخرية التى تمتد تقريبًا ناحية الشمال الغربى، وتسمى بلغة الهوسا دوشى (Dooshee) أو الصخور والتى سميت إحدى المدن على الطريق المؤدى من كاتاجم إلى كانو باسمها، ومنذ أن غادرنا آبار بيرى كاشفرى على الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى لم نقابل أية صخور أو حتى حصى وحتى الآن تخلو مجارى الأنهار من الأحجار ، تتكون كل المنطقة من الطين اللزج ، لقد ضلت الإبل الطريق وأرسل الخدم للبحث عنها، ولم تعد حتى المساء حيث وجدناها عند عودتنا إلى بورنو.

١٦ يناير:

ما زالت المنطقة مكشوفة والمزارع كثيرة والقرى عديدة، وقابلنا مجموعات قادمة من مدينة (كانو) حاملة السلع حيث يحملها البعض على رءوسهم والآخرون يحملونها على دواب الحمل أو الثيران كل حسب مقدرته وثروته، والكل مسلح بالرماح والسهام والعديد من السيوف، والمعروف أن أهل بورنو مشهورون بحمل الحراب.

لقد تقدمت أنا ومحمد الوردى موكب الفرسان الذين كانوا فى انتظارنا تحت شجرة بالقرب من مدينة زنجيا(Zangeia) عندما ذهب رجل من كاتاجم بطريقته الخاصة وأخبر حاكم المدينة أن صديقًا لحاكم كاتاجم قريب منه وأرسل الحاكم هذا الرجل ليخبرنا أنه سيحضر ليقابلنا على ظهر جواده ويحدد لنا المكان المناسب لإقامة خيامنا، وركبنا الخيول ،أرشدنا الرجل من كاتاجم، وقابلنا الحاكم على بعد ربع ميل تقريبا من

الشجرة التى استرحنا تحتها، وكان يمتلك حصانًا أبيض اللون ومعه سبعة من الخدم يسيرون خلفه على ظهور الخيول فضلاً عن عدد من الرجال الذين يسيرون على الأقدام مسلحين بالرماح والسهام وهرول نحونا، وبعد تقديم التحيات وقف أمامنا وسار معنا وتقدمنا نحو المدينة، وعندما وصلنا إلى منزله الخاص طلب منا أن نقيم خيامنا أمام باب منزله قائلا: هنا مكان آمن جدا، ووصلت الإبل مع الأمتعة وقدمت له شفرة حلاقة وسكينا ومقصًا وبعض التوابل، وأرسل إلينا مقابل هذا بعض اللبن والعشب وأكل للخيول، ورغم أنه حاكم إلا أننى وجدته قزمًا يتبع حاكم كانو، وكان بدينا قبيح المنظر له صوت أجش، وظللت يقظًا حتى منتصف الليل ونحن نضحك ونتحدث عن شعبه.

تقع منطقة زنجيا قرب نهاية سلسلة تلال دوشى وكانت فى الماضى مدينة واسعة نظراً لاتساع أسوارها التى لا تزال باقية، وكان الفلاتا قد ذبحوا أو أسروا سكانها، وتحتل المزارع من القطن والتبغ والنيلة الأماكن التى كانت مسكونة من قبل والمدينة كانت تضم عدداً من القرى المتناثرة، وفى داخل الأسوار توجد سلسلة من الأحجار المترامية ومتصلة بسلسلة من التلال فى المناطق المجاورة، ويصل ارتفاع هذه الكتل من الصخور إلى مائتى قدم وتعطى منظراً رومانسياً للمنطقة المجاورة وتوجد مزارع القطن والنيلة والتبغ التى تفصل بينها صفوف من أشجار النخيل، وتحدها من الجنوب جبال زرقاء مرتفعة. إنه يوم السوق حيث العديد من اللحوم المجففة والبطاطا وغيرها المعروضة للبيع.

١٧ يناير:

لا تزال الأرض مزروعة وتتخللها التلال والوديان ومررنا على سلسلة من التلال كلون الجرانيت الرمادى، وهناك صخور عادية مسطحة أو دائرية عند القمة، ومررنا على العديد من المدن المسورة وهى مهجورة تمامًا حيث تم بيع السكان للغزاة من الفلاتا، وشاهدنا النساء وهن يغزلن القطن على جانب الطريق ويعرضن إنتاجهن للبيع فضلاً عن بيع اللحم المشوى والبطاطا والجوز والفول لكل القوافل المارة.

وبعد الظهر توقفنا فى سهل غرب المدينة ومجموعة من القرى تسمى نانسارينا حيث كان يوم السوق وعندما سمع الحاكم عن قدومنا أرسل إلينا اللبن والحليب والطعام وأرسلنا له مقصاً وعلبه عطور هدية.

١٨ يناير:

شاهدت سلسلة من التلال تسمى (Dulu) وارتفاعها ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ قدم وتتجه ناحية الشمال والجنوب ولا أعرف مدى امتدادها ناحية الجنوب، وعبرنا نهراً صغيراً ينساب ناحية الشمال، والمنطقة جميلة والمزارع عديدة ومسورة مثلما هو فى إنجلترا ، وكان الطريق مليئا بالمسافرين، وكانت الأشجار تظلل الطريق وتحمى النساء المارة أو الجالسة وهن يغزلن الأقطان، والتربة من الطمى الأحمر القوى وتظهر كتل ضخمة من الجرانيت على السطح.

وعند الساعة الحادية عشرة توقفنا عند مدينة مسورة تدعى جيركوا (Girkwa) ، وقد تجولت مع الوردى فيها، والمنازل متجمعة مع وجود فواصل بينها، والأسوار فى حالة جيدة بعد إصلاحها وحولها الخنادق الجافة وكان اليوم هو سوق المدينة وهو أفضل مما وجدناه فى أسواق طرابلس، ولقد أصبت بموجة من البرد وهو مرض منتشر فى هذه الأرجاء، واضطررت إلى الراحة طوال اليوم تحت ظل شجرة وقد لفت انتباهى منظر فتاة من الفلاتا ذاهبة إلى السوق حاملة اللبن والزبد، وهى أنيقة ورشيقة وقالت إننى من أهل وطنها وبعد حديث شيق قصير طلبت منها أن ترافقنى فى رحلتى لكنها طلبت موافقة أبيها وأمها، ولا أعرف كيف حدث لكن مجرد وجودها أزال منى آلام السعال، ولن أنسى هذه اللحظات وربما أضيف معلومات شيقة عن ربات البيوت فى وطنى حيث أن صناعة الزبدة مثلما هى عندنا من عمل الفلاتا وهى نظيفة وممتازة.

أرسل إلى أحد أبناء مرزوق والذى يقيم هنا بعض الطيور والكسكسى وتلقيت دعوة من أحد الأشراف الزنوج أخبرنى أننى سوف أعبر نهراً ضيقًا بين كوارا ويووى وفهمت من كوارا أنه يعنى النهر الذى يمر عبر تمبكت التى تحدث عنها الأوروبيون كثيراً تحت اسم النيجر.

وفى الحال اكتشفت كل العملية حيث أوصى محمد الوردى بتقديم هدية له أما المنطقة تجاه الجنوب والجنوب الغربى فكلها تلال كثيفة.

١٩ يناير:

عبرنا مجرى مائيًا يدعى جيركوا (Girkwa) وهو اسم لمدينة مجاورة وهو فرع من نفس النهر الذى أشار إليه الشريف الأسود، وهو مجرى ضحل ولكن لم يكن يحتوى على نقطة من الماء، وعرضه ما بين ستين وسبعين باردة وأخبرنى المرشد الذى أرسله لى حاكم كاتاجم أن النهر ينبع من الجبال فى (دال) (Dull) وينساب فى مجرى آخر سوف نصل إليه وينبع هو الآخر من نورا Nora وتنساب المياه فى نهر يووى شمال كاتاجم.

ولا تختلف المنطقة عما شاهدناه بالأمس فهى خالية من الأشجار وتنمو بها زراعات جيدة وتنقسم إلى مزارع عديدة، وعند الظهر عبرنا نهر سوكوا (Sockwa) الذى سيصل بنهر جيوكوا ولا تزيد المياه وسط المجرى فى عمقها عن الركبة.

وعلى بعد ميل من شواطئ النهر مررنا على مدينة سوكوا التى تحميها أسوار عالية من الطمى ولما كنت مريضا لم أدخل المدينة لكن ركبنا عبر منطقة مكشوفة نحو مدينة دوكوى (Duakee) حيث توقفنا تحت ظل شجرة حتى وصلت الإبل، وهذه المدينة مسورة من الطين اللبن مثل غيرها من مدن المنطقة.

وقبل الساعة الرابعة وصلت الإبل ونصبنا خيامنا تحت الشجرة التى رقدت عندها ولا زال الطريق مكتظًا بالسكان منذ شروق الشمس حتى غروبها حيث يذهب الناس إلى مدينة كانو أو يعودون منها.

٢٠ يناير:

وبناءً على نصيحة الوردى جهزت نفسى لدخول مدينة كانو التى صارت فى متناول اليد وقد انتظمنا بلباسنا الرسمى وأعددت نفسى قدر المستطاع وحسب

الظروف، وعلى بعد ثلاثة أميال شمال دواكى كانت الأرض مزروعة ومكشوفة، وبعدها أصبحت مليئة بالأشجار القصيرة حتى وصلنا إلى أرض مرتفعة شاهدنا أسوار مدينة كانو، والتربة هنا طفلية من الصلصال المخلوط بالحصى ، والأحجار المخلوطة بخام الحديد، والمنطقة خالية من الغابات فيما عدا الأشجار الطويلة التى يجلس تحتها النساء لبيع السلع، والقرى عديدة والطريق مكتظة بالناس.

وعند الساعة الحادية عشرة دخلنا مدية (كانو) وهى المركز الرئيسى لملكة الهوسا ولكن ما أن مررت على البوابات حتى أصبت بالصدمة وخيبة الأمل، ومن خلال أوصاف العرب عنها كنت أتوقع مشاهدة مدينة عظيمة لكن وجدت على العكس ميلاً بعد ميل من السور توجد منازل متفرقة تحيط بها برك. من الماء الراكد، وكنت أجد صعوبة لقضاء حاجتى، وكنت أرى الناس والكل مشغول فى عمله حتى أننى مررت دون أن يرانى أحد.

وذهبت مع الوردى مباشرة إلى منزل الحاج صلاح الذى أحمل إليه خطاب توصية من شيخ بورنو، ووجدناه يجلس على قطعة خشنة من القماش أمام منزله وسط مجموعة من العرب والطوارق وسكان المدينة، وعندما قدمنى الوردى إليه وأخبره أننا نحمل خطاب توصية من الشيخ رحب بنا، وطلب منى أن أجلس بجانبه، وبعد أن تبادلنا التحيات الكثيرة سألت عن المنزل الذى استأجره من أجلى حيث أن الوردى كان قد أرسل أحد الرجال قبل وصولنا بيوم لكى يطلب إعداد منزل لاستقبالنا، والآن أرسل الحاج صلاح أحد عبيده لإرشادنا للمنزل وكان علينا أن نشق طريقنا وخطوانا لأكثر من نصف ميل عبر السوق الذى يقع فى الشرق ويحده غرباً مستنقع مغطى بالبوص والمياه فضلا عن البط البرى والبجع ومجموعة أخرى من الطيور، ويقع المنزل فى نهاية المستنقع وقرب برك المياه الراكدة، وكنت مرهقًا ومريضًا فرقدت على حصير فرشها صاحب المنزل من أجلنا وفى الحال زارنى كل التجار العرب الذين كانوا فى صحبتنا من كوكا ولم يمنعهم المرض من الحضور لزيارتى وكانوا مثل الأشباح ويعانون من الحمى المتقطعة، ويحتوى المنزل على ست غرف وكلها مظلمة تمامًا فى الدور العلوى وخمس غرف فى الدول الأسفل مع دهليز أو مدخل سىء المنظر، ويوجد حوش خلفى وهناك فتحات صغيرة أو نوافذ تسمح بضوء واضح فى المسكن، ويعد هذا هنا منزلاً

جميلاً وكنت أدفع ثلاث دولارات إيجاراً شهرياً لكن انخفض بعد ذلك إلى دولارين وكان جارى مباشرة محمد الوردى.

وفى المساء أرسل الحاج صلاح شاة وبعض العسل وطعام غذاء جاهز ، تلقيت هدية مماثلة من الشيخ ابن طالب وهو أخو أحد التجار العرب فى سوكنا وهو يقطن فى كوكا وكان معى خطاب توصية مع طلب لدفع مائة دولار.

٢١ يناير:

كان الجو بارداً وصافياً، وبعد الظهر سلمت إلى الحاج صلاح خطاب الشيخ ومعه هدية عبارة عن عمامتين وشالين مصنوعين من الصوف والقطن أحدهما أبيض والآخر أحمر، وكلاهما صناعة فرنسية وجاكت تركى من الحرير والصوف مطرز بالذهب وكان يخص المرحوم الدكتور أودنى فضلا عن مجموعة من السكاكين والمقصات ورطل من البهارات، ولفة من الزينة النحاسية للأطفال، وكان مسروراً جداً بهذه الهدايا، ووعد بأن يقدمنى إلى الحاكم خلال يومين، وفى المساء وصلتنى كميات من الطعام من الحاج صلاح وابن طالب.

٢٢ يناير:

وعندما زارنى الحاج صلاح فى هذا اليوم قدمت إليه نصف رطل من البارود، ونظراً لأننى كنت مريضاً فقد لازمت الفراش طوال اليوم.

٢٤ يناير:

فى الساعة السابعة صباحًا بدأت زيارة الحاكم ومعى الوردى والحاج صلاح وكان يقيم فى المعسكر على بعد خمسة أميال شرق كانو، وأخذت معى خطاب الشيخ

وهدية كنت قد أعددتها في اليوم السابق وتتكون من سيف وصينية شاى ونظارة سحرية وعشرين ياردة من الحرير الأصفر وعمامة بيضاء وشال فرنسي وشفرتين للحلاقة وصندوق للعطور وأربعة سكاكين ومقص ورطلين من التوابل فضلا عن ترمومتر مكسور وبالطبع لم استطع التخلى عن الترمومترين اللذين معي .

ويسمي الأهالي الترمومتر (ساعة الحرارة) وهو في كل مكان مثار دهشة، كما أخذت هدية لرئيس وزراء الحاكم وهي عبارة عن شال فرنسي وشفرة وسكنية ومقص وعلبتين من العطور، وكان المكان الذى يجلس فيه الحاكم عبارة عن استراحة للجيش ، وكان الحاكم ينوى أن يقوم بحملة ضد دنتنكاوا (Dantanqua) حاكم كانو السابق والذى كان قد عزل والذى بعد أن ثار استولى على مدينة كبيرة ومنطقة تدعى دورا (Doura) التى تبعد مسافة يوم أو اثنين وعشرين ميلاً، وكنت مندهشا عندما وجدت أن معسكر الحاكم عبارة عن مدينة مسورة، وأخبرنى الحاج صلاح والوردى أن هذه المدينة شيدت منذ خمس سنوات، وكان حاكم كانو يقوم بحملة سنوية ضد هؤلاء الثائرين دون أن يدخل في معارك حاسمة معهم .

وتقدمنا مباشرة إلى منزل الحاكم الذى يبعد ٥٠٠ أو ٦٠٠ ياردة عن البوابة، وعند الباب الخارجى وجدت التجار العرب ومعهم الخيول للبيع، وكان الحاكم صاحب الاختيار الأول لكن إذا لم تقدم السعر المناسب فإن أى شخص أخر يكون المشترى، ودخلنا منزل النائب حتى يستعد الحاكم، وبعد فترة قصيرة أرسل لى وكان يصحبنى كل من الحاج صلاح والوردى، وحيث إنه لا يسمح للتجار العرب بالدخول فإنه سمح له هذه المرة من أجل خاطرى.

وعندما دخلنا كان علينا أن نمر عبر ثلاثة منازل للحراسة وأسوارها مغطاة بالدروع، ويحرس الأبواب أقزام سود، وتتصل هذه المنازل بستائر من الحصير تغطى الرأس، وجلس الحاكم عند مدخل المنزل الداخلى، وبعد أن سلمنا عليه طلب منا الجلوس، وقدمت إليه الهدايا شارحًا له على وجه الخصوص استخدام مرآة التجسس، وأخبرته أن هذا السيف يحمله النبلاء العظام فى إنجلترا، وكان مسروراً ورحب بى ألف مرة وبعد ذلك قدمت إليه خطاب الشيخ الكانيمى، وقرأه ثم أخبرنى أنه يتوقع أن

أعود إلى (كانو) خلال خمسة عشر يوما وبعدها سوف يرسلنى إلى سيده الذى سيكون سعيداً جداً برؤيتنا وهذا الحاكم من الفلاتا ذوى اللون النحاسى القاتم وهو رجل بدين ومثقف ، وكان الوردى والحاج صلاح باستثناء نائب الحاكم هم الذين حضروا المقابلة وصحبنا إلى منزله حيث قدمت له هديته دون احتفال، وكان النائب رجلاً نحيفًا وله عين واحدة، ويقول إنه أب لخمسين ابنًا وهى مناسبة تعد مصدراً للاحترام والشرف، وفى الحال عدت إلى كانو ، لكن ظل الحاج صلاح والوردى هناك لبيع بعض الخيول، وكان لدى الحاج صلاح حصانين تركهما المرحوم الدكتور أدونى وقد استغنى عنهما وكان قد حصل على أحدهما من شيخ بورنو والآخر أخذه فى كوكا من الحاج على بوكالوم بمبلغ ثمانين دولاراً ، أما حاكم كانو فإنه يعطى ما بين مائة أو مائة وعشرين دولاراً للحصان الجيد.

ونادراً ما تباع إناث الخيول ولها قيمة كبرى سواء للإنجاب أو لأنها لا تحدث صهيلا عند الاقتراب من الخيول الأخرى.

٢٥ و ٢٦ يناير:

ولقد حثنى بعض تجار غدامس الذين استقروا هنا أن آخذ معى أى سلع أو نقود بأى كمية وغدامس مدينة داخلية فى ولاية طرابلس ويشتهر تجارها فى كل وسط أفريقيا بالتعامل فى الصفقات التجارية الكبرى.

٢٧ و ٢٨ يناير:

وقد أرسل الحاكم إلىّ هدية من الخراف وزلعة ضخمة مليئة بالقمح وزلعتين للأرز، ووصلت قافلة من بورنو اليوم ومعها خطاب من الشيخ إلى الحاج صلاح تحذرة بعدم شراء أى عبيد لأنه لا يسمح بمرورها فى بورنو بسبب احتجاز أبناء الشيخ فى فزان والذين كانوا قد أرسلوا للحماية أثناء غزوة حديثة قام بها شعب باجرمى .

٢٩ يناير:

في هذا اليوم أحضر رسول من الميجور دنهام في كوكا رسائل وصحف من إنجلترا وبعض البارود والقهوة والشاي والسكر وثلاث زجاجات من خمور السلطان العثماني، وثلاث ساعات فضية وبعض السلع من الملابس وقبعات حمراء، وعباءات من الصوف من طرابلس، كما قدم السيد ورنجتون القنصل البريطاني في طرابلس أمراً من الباشا والذي أكده الميجور دنهام بخطاب من شيخ بورنو وكلاهما موجه إلى الحاج علي يطلب منه دفع المال المستحق لأخيه المتوفى، وكتب الشيخ أيضا إلى الحاج صلاح يطلب منه بذل كل ما في وسعه لدفع مستحقات الحاج علي للحاج بو زايد وألا يتردد في هذا الموضوع.

وفي يومي الثلاثين والحادي والثلاثين من يناير أصابني المرض وتحسنت قليلا في اليوم التالي .

الأول من فبراير ١٨٢٤ :

بعد الأمطار اصطحبت الحاج صلاح ومندوب الشيخ إلى القلعة التي صارت مدينة تحمل اسم فانوسيا (Fanisoe) وقدمت ساعة هدية للحاكم وكان سعيداً بها، وطلب مني أن أشرح للحاج صلاح كيفية استخدامها، وأعطيته خطاب الشيخ إلى سيده محمد بلو، وقرأه وأخبرني أنني سوف أذهب مباشرة إلى سوكوتو دون تأخير مع القافلة التي تجتمع حالاً.

وفي طريق العودة التقيت باثنين من الحكام ومعهما قواتهما عائدين إلى القلعة ومع كل واحد منهما حوالي خمسمائة فارس وعدد من المشاة ، وكان المشاة يتسلحون بالحراب والسهام، وكانت الحربة تحمل في اليد وملابسهم من الجلد المدبوغ وعليه أصداف، ويرتدون نوعا من الصنادل ذات الصناعة البسيطة.

أما الفرسان فكانوا يتسلحون بالدروع والسيوف والحراب وطول الحربة ستة أقدام، وكان الجزء الخشبي رفيعا والسن من الحديد، أما السيوف فهي عريضة وطويلة

ولا تحـتـاج لوصف خـاص، وهي ترسل من جـزيره مـالطـة إلى بنى غـازى فى ولاية طرابلس حيث يتم استبدالها بالثيران، وتنقل بعد ذلك عبر الصحراء إلى بورنو ومن ثم إلى بلاد الهوسا وأخيراً تنقل إلى كانو حيث تباع وسط أفريقيا تقريبا، أما الدروع فهى مغطاة بالجلود مع حافة من القماش الأزرق، وفى وسط الدرع توجد قطعة من القماش الأحمر مثبته بالصدف الذى يغلف المقبض الحديدى، ويحمل هذا الدرع الفرسان فقط لكنه يوجد بنفس الشكل بين التيبو والطوارق والفلاتا والبورنويين، ويرتدى أحد عبيد الشيخ خوذة من القماش الأحمر، وتنتهى بتاج ضخم ومطرزة بريش النعام.

٢ فبراير:

زارنى فى هذا اليـوم ابن أخى السلطان بلو الذى كـان قـد وصـل أمس من سـوكوتو، وهو صبى لونه نحاسى ونحيف مـثل كل الفلاتا وطلبت الشـاى له لكنه لم يتذوقه إلا بعد أن يقوم أخوه الوردى بالشرب حتى يقلده وصار مغرمًا بهذا الشاى، وقبل هذه الزيارة اعتبر أن المسيحى ليس أفضل من الوحش كما اعترف لى رغم درجة ما من التملق، وعرضت عليه كل أدواتى والهدايا التى أنوى أن أقدمها لعمه السلطان.

٣ فبراير:

جاء لزيارتى أحد أبناء عم السلطان وهو من ألطف وأذكى الرجال الذين شاهدتهم فى هذه الأوطان وهو يتحدث ويقرأ اللغة العربية بسهولة ولباقة وكان يرغب فى رؤية كل شىء، وأن يعرف كل شىء عن بلادى، وأكد لى أن السلطان سيكون مسروراً لرويتى، وقال إن لديه مجموعة كبيرة من الكتب التى جعلته يقرأ بصوت مرتفع، وقال لى إن هناك طريقا للإبل بين سوكوتو وتمبكتو والذى أصبح خطيراً بسبب الكفار الذين يقطنون كوبى (Cabee) وهى منطقة تقع بين المدينتين.

الخامس والسادس من فبراير:

أجريت محادثة مع عبد القادر وهو أحد أقارب السلطان بلو في منزل أحد تجار غدامس، وكان عبد القادر شغوفًا لمعرفة تعاليم ديننا وصلواتنا، وعبادة الصور وأكل لحم الخنزير، وأخبرته أن ديننا يأمرنا بالصلاة دون توقف، وحيث إنه لا يوجد شعب على الأرض يعمل كما نعمل فإننا عادة نصلي في أوقات محددة، أما عبادة الصور فإني أبغضها وبالطبع فإنني اعتبرت أكل الخنزير على أنه مجرد سياسة ثم واصل الأخ المسلم سؤاله بنوع من السخرية وماذا عن مبدأ الثالوث المقدس، وماذا عن فكرة الله في ثلاثة "الأب والابن والروح القدس" وبهذه الطريقة فإن المسلمين يحتقرون هذه المعتقدات عند المسيحيين، وبعد ذلك غادرت المجموعة وأشرت إلى التاجر من غدامس أن تكرار مثل هذه الأمور أمام الخدم سيضطرني إلى تقديم شكوى إلى باشا طرابلس.

السابع والثامن من فبراير:

كنت مريضًا اليوم ، وفي اليوم الثاني عاد الحاكم إلى القلعة مع جيشه، وكان التقرير السائد هو أنهم دخلوا عاصمة العدو، وأن شعب الدونجوا (Duntungua) قد هربوا إلى الغابة، وبدأوا يقيمون الحفلات لكن فجأة عاد الدونجو مع جيشهم وقتلوا خمسة عشر ألف رجل، وهرب الباقون في فوضى عظيمة إلى فانسوا .(Fanisoe)

٩ فبراير:

كنت مريضًا أيضًا .

١٠ فبراير:

إن كانوا عاصمة لمديرية أو مقاطعة بنفس الاسم وواحدة من أهم المدن في مملكة السودان وهي تقع عند خط عرض ٢١ شمالا وخط ٩٢ من خطوط الطول.

ويقطن كانو ما بين ٣٠,٠٠٠ إلى ٤٠,٠٠٠ نسمة منهم أكثر من النصف عبيد، وهذا التقدير للسكان مجرد تخمين، ولا يشمل هذا الرقم الغرباء الذين جاءوا جماعات إلى هنا خلال شهور الجفاف من كل أجزاء أفريقيا من البحر المتوسط وجبال القمر ومن سنار وبلاد الأشانتي.

لقد أصبحت المدينة غير صحية نتيجة المستنقعات الواسعة التى تقسمها إلى جزأين فضلا عن البرك الكثيرة من المياه الراكدة نتيجة حفر الطين لبناء المنازل، وفى الجانب الشمالى من المدينة يوجد جبلان يصل ارتفاعهما حوال مائتى قدم ويقعان شرق وغرب البلاد ويفصل بينهما مسافة قليلة، ويتكونان من الأحجار المخلوطة بالحصى وشكل المدينة غير منتظم ويصل إلى حوالى خمسة عشر ميلا فى محيطة ويحيط بها سور من الطمى يصل ارتفاعه ثلاثين قدمًا وحوله من الداخل بئر جاف ويوجد فى السور خمس عشرة بوابة آخرها واحدة بنيت أخيراً، والبوابات مصنوعة من الخشب مغطاة بطبقة من الحديد، وهى تفتح بانتظام عند شروق الشمس وتغلق عند غروبها، وفى الداخل يوجد رصيف مرتفع وتحته بيتين للحراسة يستخدم للدفاع عن كل مدخل، ويشغل السكان حوالى ربع المساحة داخل المدينة، وأما المستنقعات الواسعة تقسم المدينة من الشرق إلى الغرب ويقطعها لسان من الأرض يستخدم كأرض للسوق وتطمرها المياه فى فصل المطر، والمياه هنا صحية، وتعمل النساء دائما فى البحث عن الماء فى الشوارع من كل الينابيع العذبه فى المناطق المجاورة، والبيوت مبنية من الطين ، وهى مربعة الشكل تقريبا حسب الطراز المغربى، والأسقف مثبتة بأشجار النخيل وحيث يتم استقبال الزوار والضيوف، أما حجرات الدور الأرضى فهى مفتوحة على الصالة المخصصة للاستماع، وتستخدم أحيانا كمخازن، وبداخل المنزل توجد عدة أكواخ من الطمى مغطاة بعيدان القمح الهندى، وهى أنيقة ونظيفة جداً، وهى أكبر حجماً من تلك التى وجدناها فى بورنو.

ويغطى مسكن الحاكم مسافة كبيرة ويشبه قرية مسورة، ويحتوى على مسجد وعدة أبراج على ارتفاع ثلاثة أو أربعة أدوار ونوافذ على النمط الأوروبى لكن دون زجاج أو إطار عام، ومن الضرورى أن تمر على اثنين من هذه الأبراج لكى تصل إلى الجناح الداخلى الذى يشغله الحاكم.

أما السوق فهو مزود بكل أنواع السلع الضرورية التى يحتاجها سكان الداخل، ويعقد السوق على لسان من الأرض ما بين مستنقعين ، وحيث إن هذا الموقع مغطى بالمياه أثناء فصل المطر فإن عقده فى المكان مقتصر على شهور الجفاف حيث يزوره الغرباء والسكان ولا يوجد أى سوق فى أفريقيا أكثر تنظيما من هذا السوق، ويقوم شيخ السوق بتأجير أكشاك البيع لمدة شهر على الأكثر، ويقوم أيضاً بتحديد أسعار كل السلع، وله حق الحصول على عمولة صغيرة بنسبة خمسين صدفة (العملة الموجودة) على كل كمية وتصل إلى أربع دولارات أو ٨٠٠ صدفة (الودع) حسب مستوى التبادل من هذه العملة الفضية أو الأصداف، وهناك عادة أخرى تمارس بشكل عام وهى أن يعيد البائع إلى المشترى جزءاً من السعر كنوع من البركة كما يسمونها بمصطلحنا، وهى نسبة خصم اثنان فى المائة (٢٪) من المشتريات النقدية لكن إذا كانت الصفقة فى إيجار منزل مثلا فإن صاحب المنزل هو الذى يتسلم هذه البركة (luck Penny) ، وهنا ألاحظ الرواج للأصداف التى لا يمكن تقليدها والتى يحصل السكان على كميات ضخمة منها وهذا ما يسهل استخدامها كوسيلة للتبادل فى كل الصفقات الصغرى والكبرى .

ويتم تخصيص أحياء معينة للسلع المتميزة كما تقام أكشاك لبيع السلع العادية فى الوسط وأما الماشية والسلع الضخمة المعروضة للبيع فإنها تعرض فى ضواحى السوق ، كما يخصص مجتمعين للأخشاب والحشائش الجافة والخيول والقش وقمح غينيا والقمح الهندى والقمح العادى، ويوجد جناح آخر للماعز والأغنام ودواب الحمل والثيران والخيول والإبل وهناك مكان خاص للنيلة والخضراوات والفاكهة بكل أشكالها مثل البطاطا والشمام والموالح والمانجو والتمور، ويخبز دقيق القمح بأشكال ثلاثة مختلفة أحدها مثل الفطيرة المستديرة والآخر مثل الفطيرة الملفوفة والثالث مثل الكعك الخفيف الممزوج بالعسل ويصب عليه الزبد المذاب، ويتم ذبح الضأن والأبقار يوميًا، ومن حين لآخر يأكلون لحم الإبل إذا كان ضعيفًا حيث يقتل الحيوان لإنقاذ حياته، ويفضله العرب باعتباره لذيذ الطعم عندما يكون السنام مليئا بالدهون.

وعندما يحضر الجزار ثوراً بديناً للذبح فى السوق فإن قرونه تصبغ باللون الأحمر مع الحنة ويحضر قارع الطبول مع بعض الجمهور، وتنتشر أخبار حجم الثور وبدانته

ويسرع الجميع للشراء، وبجوار السوق يوجد عدد من محلات الطبخ فى الهواء الطلق، ويزود كل واحد منها بقطع من الخشب للإشعال وتوضع عليها قطع اللحم مع الدهن وتشوى على نيران الخشب، وكل شىء مريح ونظيف ، وتقوم إحدى النساء بالإشراف على المائدة وتضع طبقا على ركبتها فوق نوع من الحصير حيث يتجمع الضيوف حولها ويتناول الناس مشروباً من الجوز كل حسب طلبه، ولا يزيد السعر للوجبة عن عشرين صدفة أى ما يساوى نصف البنس (الدولار يساوى خمسة شلنات) وأما الذين يمتلكون منازل فإنهم يتناولون الطعام بها، ولا يلجأ النساء إطلاقا إلى المطاعم (أماكن الأكل) وحتى فى بيوتهن فإنهن يأكلن بعيداً عن الرجال.

وفى داخل السوق نجد الكثير من المقاعد المصنوعة من البامبو والتى توضع فى صفوف منتظمة فى الشوارع حيث تباع السلع العالمية مثل أدوات الزينة والملابس وتتجول فرق الموسيقى ذهاباً وإياباً فى السوق لجذب المشترين لسلع معينة، وهنا يعرض ورق الكتابة المصنوع فى فرنسا، والمقصات والسكاكين من الإنتاج المحلى، فضلا عن القصدير والأنتمون ، والحرير الخام بلونه الأحمر وتصنع منه الأحزمة أو ينسج فى شرائح توضع على القماش القطنى الممتاز، وتوجد أيضا العقود من النحاس، والودع والمرجان كما توجد الخواتم أيضا بأشكال مختلفة وهى من الفضة لكن لا توجد مشغولات ذهبية، ونجد فى السوق أيضا الأثواب والعمامة والشال والقماش الصوف بكل ألوانه، والملابس المغربية فضلا عن القماش المصرى من الصوف المطرز بالذهب، وأيضا السيوف من جزيرة مالطة وغيرها من السلع.

والسوق مكتظة بالباعة منذ شروق الشمس حتى غروبها يومياً عدا يوم الجمعة، ولقد فهم التجار فوائد الاحتكار مثل أى شعب فى العالم وهم يحرصون على عدم وضع كميات كبيرة من بضاعة ما فى السوق وإذا حدث انخفاض فى سعر سلعة ما فإنها تسحب فوراً لعدة أيام، ويتم تنظيم السوق بعناية فائقة حيث تطبق القوانين بدقة تامة وإذا حدث أن تم شراء ثوب من السوق وانتقل إلى بورنو أو أى مكان فى العالم ولم يفتح وتم اكتشاف عيب فيه، فإنه يعاد مرة ثانية فوراً حيث يكتب اسم كل بائع داخل الطرد، وفى هذه الحالة يمكن الوصول إلى البائع الذى حسب القانون كان يجبر على إعادة الثمن نقداً.

أما سوق الرقيق فإنه يعقد في مكانين منفصلين أحدهما للذكور والآخر للإناث حيث يجلسون فى صفوف، ويتم عرضهم بشكل منتظم ويجلس صاحب الرقيق أو أحد عبيده أمامهم ويتم بيع الصغار أو الكبار ، الضعيف النحيف أو الممتلئ الجسم ، الجميل أو القبيح، والكل يباع دون تمييز لكن المشترى من جهة أخرى يقوم بفحصهم بكل دقة وبطريقة تشبه فحص المتطوع الذى يدخل الخدمة فى سلاح البحرية، ويقوم المشترى بفحص اللسان والأسنان والعيون والأطراف ويحاول فحص قوة أعضائه، وشدة قوته بأن يجبره على الكح إجبارياً، وإذا ثبت بعد كل هذا أن به عيوبا أو أنه غير سليم أو حتى بدون مواصفات خاصة فإنه يمكن إعادته خلال ثلاثة أيام لصاحبه.

الرق شائع فى هذه الأنحاء لكن وضع العبيد قد تغير بطريقة قد تجعلهم أكثر سعادة من أسيادهم خاصة النساء اللاتى تغنين بأعلى صوت أثناء العمل، ويصبح الناس عبيداً بالمولد أو بالأسر فى الحروب، ومن الشائع أن الفلاتا يحررون العبيد عند موت أسيادهم أو فى بعض المناسبات الدينية، ويجب أن يختم خطاب تحرير العبد من القاضى، ويقره اثنان من الشهود، والعبيد من الذكور يعملون فى حرف كثيرة فى أعمال البناء والنسيج والغزل أو صناعة الأحذية أما الجوارى فيعملن فى إعداد الطعام والغزل وبيع المياه فى الشوارع وفى كانو تشتهر النساء بغزل النسيج وعلى هذا فإن الطلب كثير على الجوارى، وعندما يتم الحصول عليهن فلا يبعن مرة ثانية.

اشتريت مظلة إنجليزية من القطن الأخضر بثلاثة دولارات، وهى سلعة غير عادية، وكان الخدم من المراكشيين يطلقون عليها حسب لغتهم (السحابة) ووجدت بعد استفسار دقيق أن هذه المظلات تأتى من شواطئ البحر المتوسط عن طريق غدامس.

ولقد وصلت من بلما قافلة من الطوارق محملة بالملح فقط، وأخبرنى العرب أنها تتكون من ثلاثة آلاف جمل، وفى كل الأحوال كان عدد القافلة كبيراً.

١١ فبراير:

وصل من قبل السلطان رجل من الفلاتا ومعه طلب بتسهيل كل وسائل الراحة لرحلتى، وزرت الحاكم لأهنئه على عودته، ولأسأل عن موعد سفرى إلى سوكوتو.

استقبلني بكل حفاوة، وتحدث إلى مثل أى صديق قديم واستخدم اسمى المستعار للرحلة وقال يا عبد الله سوف ترحل خلال ستة أيام .

١٢ فبراير:

كان الطقس بارداً وأشعلنا النار طوال اليوم، وعادة إشعال النيران موجودة طوال العام سواء فى فترة الموسم البارد أو الجاف رغم أننى لا أجد ضرورة لذلك.

١٣ و ١٤ فبراير:

زارنى أكبر أبناء الحاكم وهو شخص غبى رفض أن يتذوق فنجان الشاى الذى قدمته إليه، وقال بصراحة إننى أمتلك قرارات تحول الناس إلى فئران وقطط وكلاب وقرود، وأعطيت الشاى للخادم ثم قلت أشكر الله أنه لا أنا ولا أى شخص آخر يستطيع أن يصنع المعجزات وإلا كل واحد منا كان قد تحول منذ زمن إلى شكل الحمار أو يجبر على وضع أحمال على ظهره، وأخذ يلوم سكان المدينة على هذه الأخبار، وأخبرنى أنهم اقتنعوا أنه بقراءة كتابى أستطيع أن أحول حفنة من التراب إلى ذهب، وأنكرت هذه الأقوال وقلت إنه إذا كنت أستطيع فعل هذا فلماذا طلبت من الحاج صلاح أموالا، وقد هدأ الآن وشرب الشاى لكن كان يرتعش خوفًا وطلب منى قلم رصاص أسود لكن لم أعطه إياه.

وجاء لزيارتى أيضًا أحد أبناء السلطان بلو ويدعى عبد القادر ، وعاد صباح الغد إلى سوكوتو.

١٥ فبراير:

بعد ظهر هذا اليوم صعدت على الجبل الشرقى (وهو أحد الجبلين السابق وصفهما) لألقى نظرة على مخطط المدينة، ولزيادة الحرص رافقنى الابن الأكبر للحاج

صلاح وذلك لكي يمنع الناس من تخيل أنني أقوم ببعض الأعمال السحرية، ومن هذا الجانب الشرقي أشار الشاب لي إلى وضع قدم الناقة التي ركبها الرسول وهو يتجه إلى السماء، وهي فعلا تشبه وقع قدم ناقة ولكنها أكبر قليلا، ويبدو أنها تجويف داخل حجرين كان قد التقطهما وسألته هل ناقة الرسول _صلى الله عليه وسلم – برجل واحدة وقال : آه .. الله قادر على ذلك، وهذا نقاش لا جدال فيه وهو ما ينهي أية مسألة دينية، وأضاف قائلا "إن كل المسلمين في السودان يؤمنون بهذه القصة" ويتكون الجبل الذي نقف عليه من طبقة من حجر حديدي وتحته قاعدة من الطمي الخفيف الناعم المختلط ببقايا نباتية.

١٦ فبراير:

في هذا الصباح المبكر وصل إلى بيتي اثنان من المشعوذين، وأخرجا ثعبانين من حقيبة، وبعدها عزف أحدهما على طبلة، وعندها بدأت الثعابين في الرقص، وقام الرجلان ببعض الخدع بلف الثعبانين حول رقبتيهما أو إلقاء أحدهما بين الناس، وعندما يشير بإصبعية على الفم فإنهما يقفزان إلى أعلى، وقمت بقياس أحدهما ووجدت طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، والرأس كبيرة وعريضة والرقبة طويلة، ولون الظهر والبطن أبيض غامق، وأما الجوانب فلونها رصاصي قاتم، أما الشخص الذي يقوم بهذه الحيل فقد لف قطعة ضخمة من القماش حوله ذراعه الأيمن حيث أن لدغ هذه الثعابين قاتل ، بل ويقتل البقرة أو الحصان في مدى نصف ساعة.

لقد كنت شغوفا لأن أشاهد مصارعة أهل الهوسا بعد أن سمعت الكثير عن مصارعي هذه البلاد ولهذا أرسلت أحد الخدم ومعه ٢٠٠٠ وأياه (العملة) من أجل عرض مصارعة في الصباح، وحيث إن موت أحد المصارعين حتمي قبل انتهاء المعركة فإنني منعت كل هذه الألعاب لأنه من العار على وطني أن نستأجر رجالا ليقتل بعضهم بعضا من أجل حب الاستطلاع.

وبعد نصف ساعة من رحيل السحرة، وصل المصارعون ومعهما طبلتان وجمع من الجزارين الذين يعدون المشهد، وتم تشكيل دائرة وقام الرئيس بإلقاء التراب على

المشاهدين لكي يقفوا ويبتعدون عن الحلقة، ودخل الطبالون إلى داخل الدائرة، وبدأ الطبل بشدة، وجاء أحد المصارعين غالبًا شبه عار عدا قطعة من الجلد حول الوسط، وضع نفسه في موقف وكأنه يقاوم الخصم وشد عضلاته أثناء العمل انتظاراً لقدوم الخصم المصارع، وكان يسير من حين لآخر حول الدائرة وهو يعرض ذراعه الأيمن ويقول، أنا الأسد وإنني قادر على قتل كل من يعارضني، ويقوم المتفرجون بوضع أيديهم على كتفه وهم يكررون "الله يبارك فيك" إنك الأسد، ثم يترك الحلقة للآخر الذى يقوم بنفس الحركات، ثم يبدأ المصارعان دخول الحلبة والتشابك بالأيدى وبالركلات تحت البطن والأفخاذ، وعندما يتعانقان يتم فصلهما حسب أوامرى.

وعندما سمعت البنات أصوات المصارعين أسرعن لمشاهدة هذا الموقف وألقت جموع الناس فى السوق السلال وهرولت إلى مكان الحلبة لمشاهدة المصارعة وازدحم المكان أمام منزلى، وبعد ست جولات طلبت وقف المصارعة، وقدمت المكافأة التى وعدت بها.

وكان الحاج صلاح وأحد رجال فزان موجودان أثناء وفاة المرحوم السيد هورنمان Hornman وسافرا من مرزوق إلى مدينة (نيفى) حيث مات هناك من الدوسنتاريا بعد مرض امتد ستة أيام، وكان ينتقل كتاجر إنجليزى اعتنق الدين الإسلامي واشترى جوادين من هذه المنطقة، وأرسلت رجلاً إلى نيفى لإحضار وثائق ومخطوطات السيد هورنمان وأعطيته مكافأة قدرها مائة دولار، ولكن عندما عدت من سوكوتو وجدت أن الرسول قد عاد (حاملا معلومات أن يوسف الفلاتى وهو رجل مثقف كان هورنمان يقطن فى بيته قد دفنه فى منزله ومعه كل وثائقه ومخطوطاته.

لقد عرفت أن أشجار النخيل التى تنمو بأعداد كبيرة فضلا عن أشجار التين فى كل الأراضى المحيطة بالمستنقع تخص الحاكم ، وتثمر أشجار النخيل مرتين فى السنة قبل وبعد موسم الأمطار السنوية والتى تقع ما بين وسط مايو ونهاية شهر أغسطس.

بعد أن يتم جنى القطن بحرص وعناية تقوم ربات البيوت والجوارى بوضع كمية منه على حجر ثم الطرق عليه لفصل البذور عن القطن الأبيض، ثم تقوم النساء

بعد ذلك بغزل القطن وبعد ذلك يتم نقله إلى أنوال محلية بسيطة حيث تصنع منه الأقمشة القطنية، والمعروف أن مدينة (كانو) تشتهر فى كل وسط أفريقيا بصباغة الأقمشة وتوجد مؤسسات كبيرة لهذا الغرض فى المدينة.

ويتم إعداد نبات النيلة بأشكال مختلفة عن طريقة إعداده فى الهند وأمريكا، وعندما ينضج النبات تفصل الأطراف الخضراء الطازجة وتوضع فى إناء عرضه حوالى قدم ونصف وعمقه قدم ونصف وبعد ضربها عدة مرات تترك بعض الوقت، وعندما تجف تشبه النيلة الأرض المخلوطة بالعشب الجاف ، ويتم ربط كل ثلاثة عيدان أو أربعة على عيدان القمح، ويتم عرض ذلك فى الأسواق، أما جهاز الصباغة فهو عبارة عن وعاء واسع من الفخار عمقه تسعة أقدام وعرضه ثلاثة أقدام ويحفر له فى الأرض، وتلقى النيلة المخلوطة ببقايا العيدان السابقة ويستخدم الماء البارد فقط عند الصباغة، وتظل الأقمشة المصبوغة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام فى الإناء وأحيانا يتم تقليبها إلى أعلى بعمود خشبى فضلا عن عصرها كل ليلة وتعلق جافة حتى الصباح وخلال هذه الفترة يتم تغطية إناء الصباغة بالحصير الخام، وبعد أن يتم صبغ الملابس ترسل إلى رجل الصقل الذى يضعها بين الحصير وفوقه كتل ضخمة من الخشب، ويبدأ رجلان يحمل كل منهما قطعة من الخشب، ويستمر فى ضرب القماش بعد أن يرش بعض الماء من حين لآخر على الحصير، والقطعة الخشبية عبارة عن جذع شجرة، وعندما تصل إلى أبواب المدينة وتقرع الطبول تتجمع الناس، ويتكلف ثمن صبغ الثوب الجيد باللون الأزرق القاتم حوالى ٣٠٠٠ صدفة أو ما يساوى دولاراً ونصف أما بالنسبة Qlazing لوضع طبقة ملساء فإنه يكلف ٧٠٠ صدفة ويكلف الثوب كاملا خمسة آلاف صدفة والثوب الحريمى ما بين ألفين وثلاثة آلاف صدفة.

وتصبغ النساء فى هذه البلاد شعرهن باللون الأزرق فضلا عن أيديهن وأرجلهن وحواجبهن، وتشتهر هذه البلاد بصناعة الزلع من الجلد ويشكلونها على نموذج من الصلصال من الجلد الخام بعد أن توضع فى الماء، وتستخدم هذه الزلع لحفظ الدهون والزبدة، والعسل وشمع العسل، ويعرف هذا الشعب أيضا فن التعليب.

إن الزنوج فى هذه البلاد مؤدبون ومرحون خاصة الذين تقدم بهم السن، ويحيون بعضهم بعضا بوضع اليد على الصدر مع انحناءة ويقولون كيف حالك أتمنى أن

تكون بخير وكيف قضيت حرارة هذا اليوم، ويتفق السؤال الأخير حسب رأيهم بالظروف التى يسأل عنها أهالى البلاد من الراحة بالليل.

ويرتدى الرجال والبنات الذين لم يتزوجوا بعد وكذا العبيد سراويل وأرواب طويلة من القماش الأزرق والأبيض وفى نهاية الثوب شريط أحمر من قماش الصوف، وهى مربوطة بشريحتين عريضتين وتتدلى أسفل حتى كعب الرجلين، وهذه سمة خاصة بالسودان ويشكل هذا اللبس المتميز الوحيد لسكان السودان وتختلف عن ملبس بورنو، ويلون الرجال والنساء أسنانهم وشفاههم بزهرة أشجار الجوجى Goorjee ونبات الدخن وقد شاهدت الأشجار الأولى مرة أو مرتين أما الأشجار الأخرى فتصل إلى السوق يوميًا ، ويتم دعك زهور هذه النباتات على الشفاه والأسنان، وهذا ما يجعل شكل الشفاه مثل الدم الأحمر والذى يعد نوعا من الجمال، وهذه العادة نادراً ما يمارسها شعب بورنو.

ومن العادات المفضلة فى هذه البلاد مضغ نبات الجوا الممزوج Trona والنشوق وليس هذا مقصوراً على رجال الهوسا مثلما هو الحال فى بورنو حيث لا يسمح للنساء بممارستها ونادراً ما يستخدمون النشوق فى داخل الأنف حسب عاداتنا، أما تدخين التبغ ، فهو عادة عامة سواء بين الزنوج أو المغاربة، ويمنع النساء من ممارسة هذه العادة.

وينتشر مرض فقد البصر فى هذه البلاد، وفى داخل أسوار المدينة توجد منطقة خاصة أو قرية للذين يعانون من هذا المرض والذى يحصلون على إعانات من الحكومة، وأحيانا يتسولون فى السوق طلبًا للقمة العيش، ومدنهم الصغيرة نظيفة، والأكواخ مبنية بشكل منظم، وباستثناء العبيد لا يسمح بإقامة أى شخص من العميان إلا فى حالات نادرة التى يسمح فيها للرجل ذى العين الواحدة (الأعور) أن يقيم فى هذا المجتمع، وعرفت أن المعوقين والعرج لهم أيضًا أماكن مماثلة لكنى لم أشهدها.

وعندما يتم أخذ العروسة إلى منزل العريس فإنه يرافقها عدد كبير من أصدقائها والعبيد حاملين الهدايا من اللحم المملح والعسل والقمح والفساتين والأثواب كمهر لها، وهى تنتحب طول الطريق وتقول " آه رأسى، رأسى ياه يا عزيزى" ورغم هذا النواح

فإن، الزوج يعرف زوجته فترة معينة قبل الزواج وقبل قراءة الفاتحة يظل العريس والعروسة عدة أيام بعيدين عن الناس، حيث يتم صبغ أيديهم وأرجلهم بالحناء وبشكل متصل وتزور العروسة بنفسها العريس وتضع طبقة الحناء على يديها.

وعند الوفاة يدفن الشخص تحت أرضية منزله دون نصب أو إحياء ذكرى . ومن الأمور الشائعة أن يظل المنزل بكل محتوياته ويشغله السكان لكن عند الأغنياء فإن البيت يهجر، وتغسل الجثة ، ويتم قراءة الجزء الأول من القرآن الكريم على رأس الميت ويحدث الدفن فى نفس اليوم أما جثث العبيد فإنها تسحب خارج المدينة وتترك فريسة للحيوانات المتوحشة، وفى إمارة كانو لا يكلفون أنفسهم مشقة إلقاء الجثة خارج أسوار المدينة ولكن يلقون بالجثة فى المستنقعات أو بحيرة مياه راكدة.

٢٢ فبراير:

فى الساعة السابعة صباحًا قمت بزيارة الحاكم وأخبرنى أن السلطان قد أرسل رسولا عاجلا ومعه أوامر من السلطان بالتوجه إلى عاصمته، وأن أحصل على كل شىء يلزم للرحلة، وطلب منى أن أحدد ما أحتاج إليه وأكدت له أن ملك إنجلترا قد زودنى بكل ما أحتاج إليه، لكننى أشعر بالامتنان العظيم والحفاوة التى لقيتها، وأطلب منه فقط أن يرافقنى أحد أبناء شعبه كمرشد.

وفى الحال استدعى أحد الفلاتا من ذوى الملامح الشقراء وسألنى إن كنت أفضله وقبلته مع الشكر الخالص وغادرت وبعد ذلك حصلت على دعوة لزيارة حاكم هاديجيا، والذى كان فى طريق عودته من سوكوتو ويسكن فى منزل نائب الحاكم ووجدت حاكم هذه الإمارة رجلاً أسود اللون يبلغ خمسين عامًا من العمر، ويجلس بين شعبه فى الدور العلوى المرتفع قليلا، ويخصص هذا الدور لسيد المنزل أو الزائرين من ذوى المناصب الكبرى، وكان قد تعرف على اسمى الشائع فى الرحلة فى اللحظة التى دخلت فيها وقال ضاحكا "كيف حالك يا عبد الله، نعم وماذا جئت لتشاهد هنا فى هذه البلاد ؟ ما رأيك فيها إنها بلاد لطيفة لكنها كثيرة الأمراض، وهل سيسمح المسيحيون

لنا بمشاهدة بلادكم ؟ وقلت بالتأكيد ، وهل ستجبرنا على اعتناق الدين المسيحى ؟ على أى حال إننا لا نتدخل في ديانة أى إنسان، وقال "ماذا وهل ستصلون" قلت يطلب منا ديننا الصلاة لكننا نصلى سرا وليس أمام الجمهور عدا يوم الأحد" وعندئذ سأل أحد رجاله بشكل مفاجئ " ما هو المسيحى" وقال الحاكم " عينى كافر" ومرة ثانية سأل الحاكم "أين خادمك اليهودى" دعنى أراه معذرة إنه مختلف عنا ولن أسمح لخادمى أن يتدخل فى المسائل الدينية، حسنا يا عبد الله إننى رجل واسع المعرفة ويجب أن تحضر لأراك فى إمارة هادى Hodyia ، وانسحبت بعد ذلك، وأخبرنى العرب بعد ذلك أنه رجل قاس تماماً وأحياناً يعدم تاجراً بسبب بضاعته لكن إذا كان الاتهام صحيحًا فلا غرابة فى ذلك نتيجة الأعمال الشريرة لبعضهم، وبعد الظهر ذهبت إلى منزل الحاج صالح، وسويت معه ترتيبات أن يكون وكيلى سواء لاسترداد المبلغ المستحق على الحاج على بوكالوم أو فى الرد على أية أسئلة توجه إليه، وفى حالة وفاتى وافقت أيضا أن يحتفظ بخادمى اليهودى يعقوب وأن يرسله إلى شيخ بورنو وبعد ذلك إلى قنصل إنجلترا فى طرابلس، وتركت يعقوب فى هذه المنطقة بسبب مزاجه المضطرب، ورتبت هذه الأمور بناءًا على تعليمات الحاج صلاح وتوصياته الخاصة مؤكداً على خطورة الرحلة التى بدأت فيها، وحسب عادة اتبعها من قبل الدكتور أودنى حيث أقمنا فترة قصيرة وقمت بذبح ثورين وتوزيعهما على الفقراء .

القسم الثالث

من كانو إلى سوكوتو والإقامة هناك

٢٣ فبراير :

عند شروق الشمس زارني كل التجار العرب من معارفي وتمنوا لي رحلة سعيدة ، ولقد صحبني الحاج صلاح وابن حميد لمسافة أربعة أميال فيما وراء البوابة الكبرى ، وقبل أن يغادروني أصبت بحمي مرة ثانية ورقدت تحت ظل شجرة انتظاراً لمحمد جولي الذي سيكون مرشدي . وكان الجملان معي محملان تماماً وكان خادمي إبراهيم غير قادر على المشي بسبب المرض ، وطلبت من الحاج صلاح شراء جمل آخر وإرساله لي .

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر انضم لي محمد جولي مع جملين محملين ، وحصان لطيف من أصل الطوارق أرسل كهدية أسبوعية من كانو إلى السلطان ، وأحضر معه أيضاً فتاة جميلة من الفلاتا لتكون في صحبتنا كعادة أهل البلاد . وبعد أن خفت موجة الحمي ، تقدمنا في رحلتنا ، ومع غروب الشمس وصلنا إلى قرية يارومبا Yaromba حيث حصلت على منزل لي وآخر للخدم فضلاً عن الطعام بكميات كبيرة ولا يختلف شكل المنطقة عن تلك التي مررنا عليها من كانو لكنها لم تكن مزورعة بشكل جيد .

٢٤ فبراير :

وعبرنا منطقة غابية ومررنا على مجاري مائية عديدة جافة وتتجه في مجاريها ناحية الشرق ، وبعد الظهر مررنا على مدينة مسورة تدعى توفا Toffaحيث صارت

المنطقة مليئة بالغابات الكثيفة ، وشاهدنا العديد من القرى وهى مدمرة تماماً بسبب الثائر دونانجوا Duntungua فضلاً عن بيع السكان كأسرى.

وبعد منتصف اليوم توقفنا فى مدينة روما Roma و سوب Soup حيث وجدنا السكان أكثر تحضراً ولديهم منازل وكميات من الطعام . وهنا انضمت إلينا الناقة التى أرسلها الحاج صلاح مع أحد أهالى كانو ويدعى نوزاما Nouzama والذى صار أحد الخدم معى .

٢٥ فبراير :

وكانت المنطقة كثيفة الغابات والطريق ملتوية وعبرنا مناطق من الصخور البيضاء تتجه شمالاً وجنوباً وأحياناً تتخللها روافد للأنهار ، وشاهدنا الكثير من قرى الفلاتا فضلاً عن قطعان عديدة من الماشية ذات القرون الطويلة وقطعاناً أخرى من الماعز والخراف ، وكانت الماشية لطيفة جداً ، والقرون كبيرة الحجم ولونها أبيض أو بنى فاتح ، وهى تختلف عن الماشية فى بورنو . والثور وديع وفى إنجلترا يعتبر ملك القطيع ، بينما نجده فى بورنو وديعاً ومستأنساً وعادة أضعف من البقرة ، وعادة يتقدم الراعى القطيع ، ويقودها نحو مراعى جديدة وذلك من خلال صوت منخفض ، ولقد حصلت على اللبن الطازج من بقرة عندما عرف الأهالى أننى رجل غريب قادم لزيارة السلطان لأنهم يؤمنون بأنه من غير المناسب أن تشرب أو تبيع اللبن قبل أن يخض ويحرك بعنف .

وتوقفنا فى مدينة جادنيا أو كادنيا التى يحيط بها سور ضخم وخندق جاف ، وكان الحاكم قد خرج فى معركة ضد دونتاجوا Duntungua الذى قام بهجمات مخيفة فى الإقليم المجاور ، وحصلت على منزل ممتاز ، وأيضاً حصل الوردى والشريف حسن على منازل جيدة ، إلى جانب منزل لأحد أهالى هون Houn التابعة لإمارة طرابلس والذى كان قد انضم إلينا لطلب النجدة أو إعانة من السلطان ، وهذه عادة شائعة بين الأشراف الذين يحققون ثروة معقولة بزيارة كل الحكام والسلاطين الذين يستطيعون الوصول إليهم . وكان الشيخ حسن كفيفاً لكنه كان موهوباً وذكياً ، وكان

يسلينا طوال الطريق بقصص لطيفة مسلية عن أيام شبابه عندما كان مبصراً . وفي هذه اليوم أصبت بنوبة من الحمى ولم أستطع المشي ثلاث خطوات دون مساعدة .

٢٦ فبراير :

وتوقفنا هذا اليوم نتيجة اختفاء إبل الوردى والشريف حسن ، ولم نعرف عما إذا كانت هذه الإبل قد سرقت أم أنها تسربت بعيداً أثناء الليل ، وانتهزت هذه الفرصة للحصول على كمية كبيرة من دواء الإسهال لى وكمية كبيرة أخرى للخادم .

٢٧ فبراير :

ما زالت الإبل مفقودة فى هذا اليوم وإذا لم تصل فإننى لا أستطيع مواصلة الرحلة لأننى وجدت نفسى ضعيفًا جداً ، وفى المساء عرض الوردى دولارين كمكافأة لأحد الطوارق لإحضار الإبل ، وأضفت أنا دولارين آخرين . ومدينة كادنيا Kadania قليلة السكان مثل غيرها من المدن الأخرى بسبب بيع الفلاتا للسكان كأسرى وعبيد . والمنازل متناثرة هنا وهناك لكن يوجد سوق يومى يتواجد فيه الناس من المناطق المجاورة ، والتربة فى هذه المنطقة من الطمى الأحمر القوى والأشجار أيضًا أعلى من مثيلتها فى بورنو ، والحقول مليئة بالقمح الهندى والكاسافا والقطن والنيلة ، وهذه الحقول محاطة بأسوار وخالية من الحشائش تمامًا ، وصممت على مواصلة الرحلة وأن تحمل إبلى مؤن الوردى والشريف حسن ، وكان الوردى قد تخلف لانتظار عودة الطوارق . وكان الإقليم لا يزال كثيف الغابات مع بعض مساحات من الأراضى المزروعة . والتربة أيضًا من الطمى الأحمر والأبيض الذى تحيط به الصخور المغطاة بالأشجار الضخمة ، ووسط هذه الحقول توجد مزارع البصل والتبغ التى يقوم الأهالى بريها من فجوات محفورة فى مجارى الأنهار الجافة عن طريق الشادوف . وعند الظهر توقفنا عند مدينة مسورة تدعى فانورس Faniroce أو المياه البيضاء ورغم أن الأسوار ممتدة لمسافات إلا أن المنازل كانت قليلة ومتواضعة .

وقد شاهدت هذه المنازل لكن وجد الخادم مشقة فى الحصول على بيت صالح للسكن . وبعد ذلك وصل الوردى دون الإبل ، وفى المساء زارنى الحاكم وهو رجل لطيف أسرع لإحضار الـ Trona عندما علم أننى مريض ، وأوصى بأخذ القليل منها كل مساء وعندما سألته عن مجرى هذه الروافد الجافة التى مررنا عليها أخبرنى أن كل هذه المجارى بين هذا المكان كانت تجرى ناحية الشرق ، ولكن فى اليوم التالى سوف تعبر أول الروافد التى تجرى ناحية الغرب وتفصل بين إمارة كانو وكاشنا (كاتسينا) وفى الساعة الثامنة مساءً أحضر الطوارقى إبل الوردى والشريف حسن .

٢٩ فبراير :

اصطحبنى الحاكم وبعض أصدقائه مسافة قصيرة خارج المدينة ، وما زالت الغابات تكسو الأرض وكان الطريق ملتوياً جداً ، وفى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر عبرنا قاع مجرى مائى يفصل بين كانو وكاشنا ، وعرض الرافد هنا حوالى عشرين قدماً وهو جاف تماماً . وعند الظهر توقفنا عند مدينة دونكامى Duncamee ويحمل المجرى بالقرب من المدية نفس الاسم ، وبعد أن مررنا على زرمى Zermie عاصمة زمفرا ينحنى شمالاً ، ويمر على إمارة جوبر Goober، وبعدئذ يتجه مرة ثانية ناحية الغرب ويقال إنه يبعد عن سوكوتو مسافة أربعة أيام ويدخل فى إمارة كوارا عند كوبى Kubby.

الأول من مارس :

فى السادسة صباحاً غادرنا مدينة دنكامى Duncamee وسافرنا عبر غابة كثيفة، وعند الظهر مررنا على مدينة مسورة ذات حجم معقول تدعى جيوزا Geoza وبعدها وصلنا إلى منطقة جرانيتية تجرى فى اتجاه شمالى شرقى . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر توقفنا عند مدينة راتاه Ratah وهى ذات موقع ممتاز جداً ، حيث بنيت وسط كتلة جرانيتية ضخمة ترتفع عن الأرض مثل البرج، وتشكل موقع الدفاع

عنها من الجانب الشمالى ، كما أن منازلها مثل أقفاص الطيور على قمة الصخور . أما الناحية الجنوبية فهى محاطة بسور ارتفاعه عشرين قدمًا لكن فى حاجة إلى الإصلاح الشديد . والمدينة مكتظة بالسكان ولم أشهد من قبل نساء أطول وأسمن من نساء هذه المدينة.

٢ مارس :

عبرنا خلال أرض مزروعة وجميلة تحيط بها مناطق صخرية خلابة فضلاً عن أشجار ضخمة ، ومررنا على عدد من القرى معظم سكانها من الفلاتا الذين عندما عرفوا أننى قادم لزيارة السلطان قدموا لى اللبن الطازج . وعند الظهر توقفنا عند مدينة تسمى بيرش Bershee وهى تقع وسط كتلة من صخور الجرانيت ، وهى أول مدينة لها ضواحى أشاهدها فى بلاد الهوسا ، رغم أنها فى حالة من الدمار وليس هذا شيئًا مميزًا . وكان حاكم مدينة أنجورو Ongooroo فى طريقه من سوكوتو إلى إمارته ولكن بفضل رعاية خادمى محمد جولى حصلت على أحسن منزل فى المدينة فضلاً عن الحصول على كميات ضخمة من الطعام لى وللخدم معى .

٣ مارس :

كان الجو لطيفًا وصافيًا وعبرنا عدة أودية خضراء اللون تقع بين حواف عالية من صخور الجرانيت ، وإضافة إلى جمال هذه المناطق توجد عدة ينابيع صافية تتفجر من بين الصخور حيث تعمل النساء فى جمع المياه . وكانت النساء تنحنى بخفة وتبتسم وهى تبرز أسنانها البيضاء وتقدم الماء لى وأنا على ظهر الخيل وشكرتهن على هذا الكرم . وتقول كل واحدة للأخرى "هل سمعت الرجل الأبيض وهو يشكرنى" .

وبعد أن غادرت هذا المكان اللطيف تحولت الأرض إلى تلال وصخور وكان علينا أن نعبر هذا الوادى الجاف خلال ثلاث ساعات ، وصارت المنطقة مليئة بالأشجار مع

زراعات سيئة ، وكانت التربة فى معظم المناطق من الطمى الأحمر والأزرق ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر توقفنا عند قرية كاجاريا Kagaria التى تقع على حافة تل منحدر ويقطنها الفلاتا أيضًا . وفى هذا المكان وجدت لأول مرة صعوبة فى الحصول على مسكن حيث أخبر رئيس القرية وهو من الفلاتا المحترمين مرشدى أنهم عندما ذهبوا إلى إمارة كانو رفع الحاكم أنفه استعلاءً ضدهم وإنه إذا حدث أن جاءوا إلى هناك فلن يسمح باستقباله وبعد ذلك وجه الحديث لى وقال "أنت رجل غريب من بلاد بعيدة ، وسوف تحصل أنت والخدم على منزل لكن لن يسكن الآخرون" وبعدها توجهت إلى منزل أنيق وأخذت معى الرحالة زملائى ، وفى الوقت نفسه أرسل إلينا الطعام وأحاطنا بكل اهتمام .

٤ مارس :

فى الساعة السادسة صباحًا غادرت مدينة كاجاريا دون أن أقدم أى هدية للرجل المسن من الفلاتا ، وكان طريقنا يشق أرضًا جميلة مزروعة بأحسن المحاصيل ، وفى الساعة التاسعة مررنا على عدد كبير من القرى التى تقع بين حوافى الصخور الجرانيتية ونظرًا لخصوبة وجمال الإقليم كان يشبه المتنزهات العظيمة فى لندن والتى تظلها الأشجار الكثيفة ، ودخلنا غابة حيث صار الطريق صعبًا وشاقًا . وهنا طلب المرشد من الخدم ألا يبتعدوا عن القافلة لأن الطريق ملىء بقطاع الطرق الذين يأسرون أى رجل لبيعه فى سوق الرقيق ، وتتكون التربة من الطمى والحصى فضلاً عن صخور الجرانيت وكانت الأشجار على الأرض المرتفعة وشاهدت أشجار المانجو البرية ، وتوقفنا عند قرية تابعة للفلاتا تسمى بوباجن Bobaginn حيث الأرض مكشوفة تمامًا وكان السكان على خلق طيب ويسعون للحصول على منزل لى فضلاً عن إمدادات الطعام .

٥ مارس :

لا تزال الأرض مزروعة بشكل كبير وكان الطريق مزدحمًا بالمسافرين والثيران المحملة بالبضائع وهم يتجهون نحو سوق زرمي Zirmie وهي المدينة التي مررنا عليها ناحية الجنوب قليلاً عند الظهر عندما أصبحت المنطقة كثيفة الأشجار ، وعند الساعة الثانية بعد الظهر دخلنا فتحة في سلسلة من التلال المنخفضة ، وثبت أن هذا هو قاع النهر الجاف الذي عبرناه عند مدينة دونكامي والتي تتصل هنا بمجرى مائي من ناحية الجنوب ، وترتفع الأرض حتى تصل إلى تلال على الجانبين وكان طريقنا يقع ناحية الغرب ، وهنا شاهدنا منظراً جميلاً للنهر ، وعلى الجانب الشرقي للنهر تقع مدينة تدعى كوترى Kutrmi وهي مدينة واسعة ومكتظة بالسكان .

في الساعة الرابعة بعد الظهر عبرنا مجرى نهر آخر صغير ينبع من ناحية الجنوب الغربي ويصب في النهر السابق الذكر على بعد ميل ونصف من مدينة تسمى كوري على الناحية الشمالية حيث توقفنا هناك وزرت الحاكم وكان رجلاً مسنًا من الفلاتا ، وبعد تقديم التحية سأل على الدكتور أودني ، وقد أصيب بخيبة الأمل والحزن عندما علم بوفاته واشتكي من أنه يعاني من آلام روماتيزمية وقال إنه قد عاش أكثر من سكان هذا الإقليم حيث وصل سن الثانية والسبعين . وظللت عنده حتى تم إعداد منازل لنا ، وأخبرني أن نهرًا ينبع من ناحية الشرق وهو الذي يفصل بين إمارات كانو وكاتسنا بعد الاتصال بعدد من المجاري المائية ويسمى كوراما Quarrama

السادس والسابع من مارس :

كان الجو لطيفًا ودافئًا وقد استبدلت إحدى السلع معي وقيمتها دولارين ونصف مقابل شاة قمت بذبحها وأقمت وليمة للوردي والشريف حسن والخدم وحضر مائة من الطوارق لزيارتي بعد أن عرفوا أنني زرت جرات Ghraat وتعرفت على وطنهم هناك وكانت النساء والأطفال ينظرون إليَّ خلسة من خلال الحصير في منازلهم وهم مشهورون بحب استطلاع شديد رغم أن بعض الطوارق كان لونهم أبيض مثلي ولدى

الطوارق سلالة من الخيول القوية لكنها ليست مثل الخيول فى طرابلس ، وفى المساء أرسلت رسالة إلى السلطان محمد بلو حيث أوصانى أمير كانو بالبقاء هنا حتى يصل حارس من سوكوتو ليتولى إرشادى عبر إمارات جوبير وزمفرا اللتين كانتا فى حالة من المناوشات ووجدت أن مدينة كورو تقع على خط عرض ٧/ ٣١ شمالاً .

وفى مساء هذا اليوم زارنى ثلاث من زوجات الحاكم وقد تألمن كثيراً لأننى لم أكن أسود اللون لأننى حسن المنظر . وسألت واحدة منهن إن كانت ترغب فى أن تكون زوجة لى إذا حصلت على إذن من الحاكم ، وفى الحال بدأ الهمس ، عندما طلبت منها أن تعرض قضيتها ، قالت بصراحة إنها لا تستطيع ذلك ، وبعد ذلك أعطيت كل واحدة بعض الخرز الأبيض وعادت النساء بعد هذه الساعات المرحة إلى منزل الزوج العجوز .

٨ و ٩ مارس :

كانت درجة الحرارة فى الظل ١٩٥ ، وفى هذا اليوم زارنى مجموعة من النساء وكانت أحداهن من مدينة زرمى عاصمة إمارة زمفرا .

١٠ مارس :

وأثناء الليل هبت أمطار خفيفة ، ووصل رسولان من سوكوتو وقاما بجولة ومعهم أوامر بأن يذهب كل الفلاتا إلى العاصمة ، حيث إن السلطان يعتزم القيام بحملة، لكن لايعرفون وجهتها . وقد أصبت أنا والخدم بالحمى التى سبق أن أصابتنا فى كوكا، وحاولت دون جدوى أن أقنع المرشد أن يتقدم دون انتظار للمجموعة لكن الوردى والشريف منعونى من ذلك . وكنت مسروراً عند سماع محادثة بين الشريف الأعمى وخادمه بخصوص رحلتى القادمة . وقال الخادم : إن عبد الله رجل سىء وإنه عديم الإحساس مثل الحمار وأنه سوف يقودنا إلى الشيطان إذا اصطحبناه، وأتمنى يا سيدى ألا تكون أسوداً عندما التحقت بهذا الكافر . ولكن لن أذهب معه ولن أشاهد

السلطان ، وعندما أعود إلى كانو دون أى شيء فسوف يضحك الناس على ، لتحملى هذه المشقة ، وقال الخادم "ولماذا لم تتحدث معه عن مخاطر الطريق" وقال الشريف لعن الله والده لقد تحدثت معه لكن ليس لديهم أى احتمال وناديت بأعلى صوتى "الله يبارك فيك" آه .. الريس عبد الله أنت رجل لطيف، سوف أذهب معك إلى أى مكان ، وكنت أتحدث همساً إلى هذا الكلب".

"سيدى الشريف لقد كنت أعرف ذلك منذ البداية ولا فائدة من ذلك ، ولكن إذا لم تصل الحامية غداً فإننى أقول لك إننى سوف أتقدم دون تأخير إلى كاشنا (كاتسينا)" وقد قلت ذلك كنوع لتخويف الشريف الذى أحب هذه المناطق خاصة أن النساء يحاولن الحصول على بركات من رجل ينتسب إلى الرسول الكريم، فضلاً عن أن خبر هذه الزيارات سوف تنقل إلى ذريتهم شرف اللقاء مع هذا الرجل ذى الأصل الشريف .

١١ مارس :

إن مرض الجدرى منتشر فى الوقت الحاضر ويتم علاج المرض بالشكل التالى ، عندما يظهر المرض فإنهم يدهنون كل الجسم بالعسل ، ويرقد المريض على الأرض ، ويتم رش الرمل على جسده وإذا كان المرض شديداً فإنه يستحم بماء بارد مبكراً كل صباح ، وبعد ذلك يدهن بالعسل ، ويستبدل بالرمل الدافئ ، وهذه هى طريقتهم الوحيدة للعلاج ، لكن يموت الكثيرون كل يوم من هذا المرض الذى انتشر بشكل كبير فى الستة أشهر الماضية .

لقد حزمت حقائبى للرحلة إلى (كاتسينا) وبسبب خوف الوردى والشريف وكل خدمى الذين طلبوا منى بإلحاح أن نظل يوماً آخر قبل السفر ، وقد وصلت جماعة من الفرسان والمشاة من زرمى الليلة الماضية ، إنها حاشية لسيد فولاتى كان يعيد زوجة شابة من منزل والدها حيث هربت ، وكانت هذه اللاجئة الجميلة تركب حصاناً لطيفاً وسط مجموعة من الخدم النساء اللاتى يسرن على الأقدام ، وتعرفت عليها هذا الصباح عندما التحقت بزوجها وطلبت منى أن أؤخر سفرى يوماً آخر ، وفى هذه

الحالة سوف نسافر سوياً ، وبالطبع كان من المستحيل رفض هذه الدعوة الكريمة والتى تقبلتها بكل تواضع ، وفى الحقيقة لم تكن عندى نية صادقة للرحيل ذلك اليوم .

وكانت السيدة ضعيفة ولكنها قوية البنيان ولونها نحاسى وحسنة الأخلاق . وكان زوجها الذى هجرته رجلاً لطيفاً ، كما أنه نال شهرة أحد الشجعان فى هذه البلاد .

وكان أحد الصبية الذين يعملون فى خدمة وزير الخليفة محمد بلو قد جرحه شعب إمارة جوبير وكان معتاداً أن يحضر إلى خدمى لتضميد الجرح وأخبرنى الليلة الماضية أنه كان فى حملة تحت قيادة رئيس فولاتى يدعى عبد كاشمان Abde cach-man ، وقد بدأوا من مدينة لابوجى فى إمارة نيفى وعبروا نهر كوارا واتجهوا جنوباً لمدة أربعين يوماً على طول شواطئ النهر وصاروا على مسيرة أربعة أيام من البحر، ولكن لا توجد فكرة محددة عند أى نقطة بالضبط يصب النهر حقاً فى البحر .

١٢ مارس :

كان الطقس دافئاً وصافياً، وفى هذا اليوم قام القائد الفولاتى بخدمتنا ، وطلب أن يصحبنى بنفسه إلى سوكوتو إذا لم تصل حاميتى فى الوقت المناسب . ويحيط سور من الطين مدينة كوارا ارتفاعه حوالى عشرين قدماً ، وتضم هذه المدينة ما بين خمسة آلاف وستة آلاف نسمة، وهم أساساً من الفلاتا (الفولاتى) ، وهى تقع فى وادى تحيط به تلال منخفضة ، ويجرى نهر كوراما إلى الجنوب قليلاً من المدينة ، وبعد ثلاثة أميال يتصل بالنهر السالف ذكره والذى يمر عبر مدينة كوترى (Kutri) ،وفى خلال فصل الجفاف يسكن عدد من الطوارق الذين يحملون الملح من (بلما) فى أكواخ خارج الأسوار .

١٣ مارس :

بدأت رحلتى فى الساعة السادسة والنصف بصحبة الرئيس الفولاتى ، وكان الوردى والشريف فى حالة شديدة من الخوف لأنهم لا يرون أن قوتنا الحالية كافية بشكل لمواجهة أى هجوم يقع علينا .

ويقع طريقنا عبر أرض مستوية خالية من الأشجار مع وجود مزارع ضخمة من النيلة والقطن والقمح . وفى الساعة التاسعة صباحًا فوجئنا بمقابلة الحامية التى كنت أتوقعها ، وكانت تتكون من ١٥٠ فارسًا ومعهم الطبول والموسيقى . وتقدم قائدهم نحوى مهرولاً ، ورحب بى فى الوطن باسم سيده السلطان والذى قال إنه مسرور جدًا عندما علم بقرب وصولنا وأرسله ليتولى إرشادنا إلى عاصمته ، ولا يوجد أى شىء يساوى الفرحة التى ملأت وجه الوردى والشريف اللذين كان يلعنان تهورى طوال الصباح ، وقد مر بعض المصارعين الذين عرضوا اللعب أمامنا ولكنى رفضت ، وعندئذ تقدمنا نحو قرية تسمى بوردروا Burderawa حيث طلب قائد الحامية أن يتوقف يومًا لأن الفرسان ورجاله فى حالة بالغة من التعب نتيجة الرحلة الطويلة من سوكوتو ، وحصلت على أحسن منزل فى القرية وكان الإيجار معقولاً . وحصلنا على كل المؤن المطلوبة مع الوردى والشريف ، وفى الشمال الشرقى تقع سلسلة من التلال المنخفضة .

١٤ مارس :

فى السادسة صباحًا غادرنا مدينة (بورديوا) وعبرنا منطقة كثيفة الغابات حتى وصلنا إلى قاع نهر فولشى Fulche وهو جاف تمامًا فى أماكن كثيرة ، وتوقفنا على الجانب الآخر من النهر وأرسلنا الإبل للرعى ، وملأ الخدم قرب الماء ، ويتصل هذا النهر مع نهر زرمى وكان عدد كبير من الناس يصطادون الأسماك من المستنقعات التى خلفها النهر ، وقدمت الشاى لرئيس الحامية الذى سمع قصصًا خيالية مبالغة عنه من سكان كانو .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر غادرنا شواطئ نهر فولشى بأقصى سرعة ، وقد انضم إلينا عدد كبير من الناس الذين يحملون أحمالاً على رؤوسهم أو على ظهور الحمير والثيران ، والكل يبذل كل ما فى وسعه لأنهم يخشون من نهاية مؤلمة وحزينة على أيدى سكان إمارة جوبير . لقد أصبحنا الآن على حدود إمارة جوبير وزمفرا ، وحتى غروب الشمس كنا نواصل السير فى غابة كثيفة وكان الطريق مليئًا

بالحشائش الطويلة ، وكان واضحًا أنه مغطى بالماء أثناء فصل الأمطار ، وكنت مختنقًا تمامًا من التراب الذى يغطى الأرض الجافة لأن الخيول كانت تسير على جانبى الطريق ، وأثناء النهار كانت الطبول تقرع كل عشر دقائق وذلك فى مؤخرة المسيرة .

وفى الساعة الثانية والنصف توقفنا عند بحيرة جوندامى Gundamee لكى نقدم الماء للحيوانات ولكى يملأ المشاة قرب المياه ، وهذا المكان من أخطر نقاط الطريق ، وهو على مسيرة رحلة يوم شمال (الكالاوا) عاصمة إمارة جوبير والتى كانت لبعض الوقت فى حالة تمرد مكشوف .

وفى الساعة الرابعة صباحًا وصلنا إلى منطقة غابات حيث توقفنا مرة ثانية لمدة ساعة ، وكنت قد واصلت المسيرة بأقصى سرعة ، وبدأت المرأة الفولاتية التى تسير بجانبنا تشعر بالتعب . وعند الظهر توقفنا إلى جانب منطقة مجوفة كانت مليئة بالماء لكنها أصبحت جافة .

وفى الساعة الثانية مساءًا توقفنا عند آبار كامون Kamoon وكنا جميعًا متحابين ، وطلبت بعض الكسكسى للعشاء لكن رحت فى نوم عميق قبل أن يعد الطعام ، وعندما استيقظت فى منتصف الليل وجدت الأكل اللذيذ بجانبى .

١٦ مارس :

اكتشفت فى الصباح أن الإبل قد شردت بعيداً بحثًا عن الطعام ، وأرسلت بعض الفرسان للبحث عنها ، وقد أعطيت دولارًا أسبانيًا للرجل الذى عثر عليها .

وغادرت آبار كامون وسط الطبول والنفير من جانب كل الحامية ، وكانت هذه الحفاوة لى باعتبارى أحد رجال ملك إنجلترا كما هو محدد فى خطاب شيخ بورنو .

وبالقرب من كامون صار الإقليم مرتفعًا ويدر الكثير من المحاصيل حيث التربة طينية حمراء مختلطة بالحصى الناعم ، وعبرنا على عدد من الينابيع .

واتسع الوادى بين التلال كلما اقتربنا من سوكوتو العاصمة التى بدأت تظهر من قمة التل الثانى بعد أن غادرنا كانوم . وهنا فى هذا المكان التقينا برسول السلطان لكى يرحب بنا ، ولإحاطتنا أن سيده فى المدينة المجاورة بعد عودته من حملة عسكرية ، ومن المتوقع أن نصل إلى سوكوتو فى المساء ، وقد شاهدت جماعات كثيرة من الناس تتجه إلى السوق حاملة الأخشاب والقش والبصل والنيلة وعند الظهر وصلنا إلى (سوكوتو) حيث تجمع عدد كبير من الناس لرؤيتى ، ودخلت المدينة وسط ترحيب ودى من الكبار والصغار ، وتوجهت إلى منزل الوزير حيث تم إعداد مساكن لى ولخدمى .

وبعد أن زودونا باللبن تركونى للراحة ، وكان الوزير (الجيدادو) رجلاً مسنًا يدعى (سيمنو بونا ليما) والذى وصل فى منتصف الليل لرؤيتى ، وكان رجلاً مؤدباً وشرب الشاى معى قائلاً بأننى رجل غريب فى بلاده ، وأخبرنى أن السلطان يرغب فى مقابلتى فى الصباح وأكد لى أننى سوف ألقى كل ترحاب وتقدير ، وكان يتحدث اللغة العربية بطلاقة ويقول إنه تعلمها من "القرآن الكريم" .

١٧ مارس :

بعد الإفطار أرسل السلطان لمقابلتى ولم يكن مسكنه بعيداً ، وأمام المسكن ساحة واسعة تؤدى إلى الشوارع الرئيسية فى المدينة ، ومررنا على ثلاثة منازل للحراسة ، وفى الحال وصلنا إلى حضرة السلطان محمد بلو ثانى سلاطين الفولاتى (السلطان الأول هو والده الشيخ عثمان بن فودى مؤسس دولة سوكوتو الذى توفى عام ١٨١٧ وجاء بعده السلطان (بلو) وكان السلطان يجلس على سجادة صغيرة بين عمودين يسندان سقفًا لمنزل لطيف يختلف عن أكواخنا وكانت الأعمدة والحيطان مطلية باللونين الأزرق والأبيض على النمط المراكشى ، وفى خلف الحائط توجد لوحة مزينة بدهان خشن لزهرية جميلة وبجانبها كرسى له مساند حديدية وعليها لبة من المعدن على كل جانب من السجادة ، ورحب السلطان بى عدة مرات وسألنى عما إذا

كنت متعبًا من الرحلة من (بوردروا) وقلت له إنها كانت أقسى رحلة قمت بها ما بين طرابلس وسوكوتو ، وشكرته على رعايته التامة لى .

وسألنى عدداً كبيراً من الأسئلة عن أوروبا وعن مميزات ديننا ، وكان على دراية بالكثير من العقائد القديمة وسألنى عما إذا كنت من النسطوريين أو السوسنيين ولكى أعفى نفسى من هذا السؤال المحير أجبت بصراحة أننا من البروتستانت ، وقال من هم البروتستانت ؟ وحاولت أن أشرح له بقدر ما أستطيع أنه بعد أن احتججنا ضد الخرافات التى لحقت بالعقيدة المسيحية منذ قرنين ونصف، وبعدها اعترفنا بأن نتبع ما هو مكتوب فعلاً فى كتاب "سيدنا المسيح عليه السلام" ، والذى يسمونه العهد الجديد، ومن ثم أصبحنا نحمل اسم البروتستانت أو المحتجين، وواصل تساؤلاته العديدة عن الكثير من القضايا الدينية إلى أن اضطررت إلى الاعتراف بأننى لست متعمقًا فى هذه القضايا الدينية حتى أستطيع الرد على هذه الأسئلة المعقدة والتى أترك الرد عليها لآخرين أكثر منى تفقهًا فيها ، وطلب بعض الكتب التى تخص الميجور دنهام ، وبدأ يتحدث بكل مرارة عن (يوكالوم) الذى تدخل فى مناطق نفوذه ، وأضاف بكلماته الخاصة : إننى متأكد أن باشا طرابلس لا يعنى أن يضربنى بيد واحدة بينما يقدم هدية باليد الأخرى . وعلى الأقل فإنها طريقة غريبة يتصرف من خلالها مع الأصدقاء ، وسأل فجأة : "وماذا يفعل صديقكم هناك ؟"

وأكدت للسلطان أن الميجور دنهام ليس لديه أى هدف أكثر من أن يقوم برحلة قصيرة فى وطنكم ، وتم إحضار الكتب وثبت أنها عبارة عن نيوتيك المناخ Nautical Almanack ومجلتين علميتين ومقالات اللورد بيكون وجورنال الميجور دنهام وكلها أعادها السلطان لى وعلى أحسن حال ، ومع ذلك فإننى قبل أن أودعه كان على أن أشرح محتويات كل واحد منها ، وبدأت فى قراءتها حتى أعطيه الفرصة ليسمع أصوات لغتنا والتى أعتقد أنها جميلة جداً ، والسلطان رجل نبيل يبلغ من العمر أربعة وأربعين عامًا رغم أن مظهره يوحى أنه أصغر من ذلك ، وطوله خمسة أقدام وعشرة بوصات ، وله لحية سوداء مجعدة ، وتقاطيع فمه صغيرة وله جبهة لطيفة وأنف إغريقى وعيون سوداء واسعة ، ويرتدى ثوبًا قطنيًا أزرق اللون وعمامة بيضاء من الحرير ، وشالاً يرتديه حسب طريقة شعب الطوارق .

وكررت الزيارة بعد الظهر بصحبة محمد الوردى ومحمد جومسو أبرز رجال العرب فى العاصمة والذى أحمل إليه خطاب تعارف من الحاج صلاح فى كانو، وكان السلطان يجلس فى نفس الساحة التى استقبلنا فيها فى الصباح ، ووضعت أمامه هدية باسم جلالة ملك إنجلترا وتتكون من مسدس بماسورتين وبوصلة للجيب ، وجاكت مزركش يخص المرحوم الدكتور أودنى ، وبورنس أحمر ، وثلاثين ياردة من الحرير الأحمر ، وشال للعمامة من مصر وهذا الأخير مطرز بالذهب ، وثلاث علب من البارود ، وثلاث شفرات حلاقة ، وثلاث سكاكين ، وثلاث مرايات ، وست علب من النشوق ثلاث من الورق وثلاث من المعدن ، ونظارة تجسس ، وصينية شاى إنجليزية كبيرة حيث وضع عليها كل الأشياء الصغيرة ، وأخذها واحدة بعد الأخرى ، وقد أثارت البوصلة ونظارة التجسس اهتمامه بشدة ، وكان مقتنعًا عندما أشرت إليه بالنظارة أنه استطاع أن يكتشف الشرق حيث يقوم بالصلاة كل يوم وقال "كل شىء مدهش ولكنك أنت أعظم حبًا للاستطلاع" ، ثم أضاف "ماذا أستطيع أن أقدم وأعتبره مناسبًا للملك فى إنجلترا ؟" . وكانت إجابتى "إن أعظم خدمة يمكن أن تقدمها لجلالة الملك فى إنجلترا هى أن تتعاون مع جلالته لوضع حد لتجارة الرقيق على الساحل لأن ملك إنجلترا يرسل سنويًا سفنًا كثيرة لمراقبة هذه التجارة هناك ، وذلك بهدف واحد هو القبض على كل القوارب التى تعمل بهذه التجارة ، حيث القبض على البحارة وإلقائهم فى السجن ، مع تحرير الأرقاء البؤساء وتقديم منازل وأراض لهم فى إحدى مستعمراتنا فى إنجلترا وقال "ماذا" "أليس عندكم رقيق فى إنجلترا ؟" قلت لا، عندما تطأ قدم العبد أرض إنجلترا فإنه يصبح منذ هذه اللحظة حرًا "قال" ماذا تفعلون معهم بعد ذلك ؟" "إننا نستأجرهم لفترة محددة ثم نقدم لهم أجورًا منتظمة ، ولا يسمح لأى شخص فى إنجلترا بأن يضرب أو يؤذى أى واحد منهم ، وتقوم الحكومة بإطعام الجنود وكسوتهم ودفع أجورهم ، وصاح "الله أكبر" "أنتم شعب طيب وعظيم" وبعد ذلك قدمت إليه خطاب شيخ بورنو وبعد تتبع سطوره أكد لى أنه سوف يبذل ما فى وسعه لرؤية كل شىء فى مناطق نفوذه وأيضًا فى يورى ونيفى ، وتمنى على وجه الخصوص أن يشاهد طبيبًا بريطانيًا يعلم شعبه فن العلاج .

وفى المساء قدمت هدية إلى الجلاديما (الوزير) وهى عبارة عن بورنس أحمر وجاكت تركى أحمر وشالين أحدهما أبيض والآخر أحمر ، وثلاث شفرات وثلاث سكاكين والجلاديما رجل لطيف ولديه تأثير عظيم على السلطان الذى تزوج أخته .

١٨ مارس :

الطقس صاف ودافئ ، ورغم مرضى هذا اليوم فقد ازدحم فناء منزلى بالناس منذ شروق الشمس حتى غروبها ، وكنت مضطراً لمشاهدة الجميع بكل قلق والرد على أسئلتهم العديدة ومن هذه الأسئلة : "هل توجد أمطار في وطنكم ؟" "هل عندكم قمح ؟" "هل عندكم ماعز وأغنام وخيول ؟" ولكن السؤال المفضل "ما سبب حضوركم إلى هنا ؟" وحاولت دائمًا الإجابة حسب رضاهم وأخبرتهم "جئت لرؤية هذه البلاد ، وأنهارها وجبالها وسكانها وأزهارها وفواكهها ومعادنها وحيواناتها ، ولرؤية ما إذا كانت تختلف عن أجزاء أخرى من العالم" .

١٩ مارس :

أرسل السلطان يطلبنى ورغب فى أن أحضر معى المرآة الشمسية ، وقد أرشدونى بشكل أعمق داخل السكن عن الزيارتين السابقتين . وعرضت أولاً شرحًا للأجرام السماوية ، وكان السلطان يعرف تماماً الكثير عن النجوم والمجموعة الشمسية باسمها العربى ، وقد أثارت المرآة الشمسية دهشة عظيمة وكان على أن أشرح كل مزاياها ، وكان التلسكوب المتغير مجال دهشة أكثر ، وكان على أن أعرض على السلطان كيف يقوم بإجراء ملاحظات عن الشمس ، وقد اصطحبت حقيبة الأفق الصناعى وكان من الصعب فتحها ، وطلبت من أقرب الرجال لى أن يحضر سكينًا للضغط على الغطاء ، وناولنى سكينة لكنها كانت صغيرة جداً ، ولذا طلبت خنجراً لنفس الغرض ، وقد اندهش السلطان وارتمى مرتعداً وأمسك بسيفه واستله من غمده

ووضعه أمامي وهو يرتعد ، لكن لم أهتم إطلاقًا بهذا الخوف رغم أنني كنت السبب في هذا الخوف . وبعد أن تسلمت الخنجر فتحت العلبة وأعدت السيف لصاحبه دون اكتراث .

وعندما رتبت الأفق الصناعي نظر السلطان ورجاله خلسة إلى الشمس ، وبعد أن أشبع كل واحد فضوله عدت إلى منزلي حيث كنت أعاني من صداع حاد، كما أصبت بنوبة قيء حادة . وفي المساء أرسل السلطان لي خروفين وجملاً محملاً بالقمح والأرز وبعض الفواكه من التين التي لم أتذوق مثلها في أفريقيا .

٢٠ مارس :

قمت بالرد على زيارة محمد جومسو رئيس العرب وأخذت له هدية تتكون من جاكت وبورنس أحمر وشالين للعمامة وشفرتين وسكينين وعلبتين من النشوق وعلبتين من البارود .

وكان سعيداً بهذه الهدية وحاولت بكل الوسائل أن أحافظ على مرحه بسبب نفوذه القوي ، وبعد أن تسلم جومسو الهدايا وعد بأن يعطيني خطاب توصية إلى سلطان يوري صديقه الخاص والذي عاش معه سنوات طويلة ، وأخبرني أيضًا أن سلطان يوري من أهالي سوكنا في إيالة طرابلس ، وأشاد كثيراً بأصله الطيب لكنه صار سكيراً ، وعندما يزوره أي شخص فإنه لا يطلب شيئًا سوى زجاجة من الخمر .

لقد علمت من جومسو أنه كان قد حجز كأسير لمدة ثلاث سنوات في منطقة تدعى يوريبا (Yoriba) على الجانب الغربي من نهر كوارا والتي تدخل البحر عند مدينة فوندا (Fundah) أسفل مدينة ركل (Rakah) ، والأخيرة تقع في مواجهة نيفي وهي مركز تجاري هام بين الداخل والساحل لكل أنواع السلع الأوروبية مثل الودع والمنسوجات القطنية والصوفية والأطباق النحاسية ، والبارود والكحول ، ويتم تبادل هذه السلع بالرقيق ، ووصف سكان يوريبا بأنهم ذوو أخلاق صعبة .

وعند عودتي إلى سكني بعد زيارة جومسو وجدت دعوة لزيارة السلطان وقد قمت بها بعد الإفطار حيث استقبلني في الجناح الداخلي يحيط به عدد من العبيد فقط ، وبعد أن سألني عن حالي وبعض الأسئلة العامة ، لم أكن مندهشًا عندما تحفظ بدون أي تساؤل مني عما إذا كنت أرغب في الذهاب إلى نيفي Nyffee وهناك طريقان يوصلان إليها ، أحدهما مباشر لكنه محاط بالأعداء والآخر أكثر أمنًا لكنه دائري ، وأنني سوف أتوقف في الطريقين أثناء فصل الأمطار خاصة في بلد تعيش حالة حرب مكشوفة ، وأنني يجب أن أفكر بجدية في هذه المصاعب ، وأكدت له أنني وضعت كل هذا في الاعتبار وأنني لا أخشى المخاطر في الطريق أو الأمطار . وأجاب : "فكر في هذه الأمور بكل حرص ودقة" وافترقنا ، ومن طريقة ونغمة المحادثة أحسست بعدم الرغبة في إتمام الزيارة التي أنوي القيام بها إلى يوري ونيفي .

لم أستطع الشك في مؤامرات العرب وأنها السبب لأنهم يعرفون جيدًا أنه لو تعرف السكان الأفارقة على التجارة الإنجليزية القادمة من البحر فإن تجارتهم الداخلية الخاصة سوف تتوقف منذ هذه اللحظة . وكنت مضطربًا ومرتبكًا طوال اليوم ولا أدري كيف أتصرف ، وذهبت بعد غروب الشمس لاستشارة محمد جومسو ، وقابلته على باب منزله في الطريق إلى السلطان ، وأوقفته لأحكي له ما حدث ، وكيف أن السلطان أكد مرارًا بأنني حر في زيارة أي جزء من مناطق نفوذه ولكنه الآن ولأول مرة يرغب في سحب هذا التصريح ، وأضفت قائلاً : "إنني قبل أن أحضر إلى سوكوتو لم أسمع عن ملك يعد يومًا ثم يخلف الوعد في اليوم التالي" . وأنا أعلم أن كل هذا سوف يجد طريقه لدى السلطان وأخبرني جومسو أنني على خطأ تمامًا لأن السلطان والوزير وكل رجال الشعب الرئيسيين يكنون لي كل تقدير واحترام ، ولا يطلبون شيئًا سوى غرس ثمار الصداقة مع الأمة الإنجليزية وقلت "ولكن من الضروري لي أن أزور هذه الأماكن" "وقد قلت ذلك عندما غادرته ، وكما توقعت فقد كرر للسلطان كل كلمة قلتها لأنه ما أن وصلت إلى البيت حتى أرسل السلطان في طلبي حيث وجدته جالسًا مع محمد جومسو واثنين آخرين . واستقبلني بحفاوة بالغة وقال محمد جومسو إنه أخبر السلطان بكل محادثاتنا ، وشكرته وعبرت عن أملي الكبير ألا أكون قد قلت شيئًا يسيء له " . وأكد لي السلطان أن سلوكي لقي استحسانًا

عنده ، ورغم أنه يرغب فى أن أشاهد كل وطنه ؛ إلا أنه يرغب فى أن أفعل ذلك مع ضمان سلامتى ، وأضاف أن جيشًا فى هذه اللحظة يشن حربًا فى المناطق التى من المفروض أن أعبرها ، وأنها غير آمنة ، لكنه توقع الحصول على معلومات خلال ثلاثة أو أربعة أيام . ورسم على الرمل مجرى نهر كوارا (Quarra) والذى يدخل البحر عند فونداه (Fundah) وحسب تقريره فإن النهر يجرى موازيًا للبحر لمدة رحلة سبعة أيام ، وفى بعض الأماكن مسافة أربع ساعات ، وفى أماكن أخرى مسيرة يوم بعيداً عن البحر . وقال "إن البحر منذ ثلاث سنوات أغلق مصب النهر والآن أصبح المصب على مسيرة يوم أو يومين ناحية الجنوب ، لكن فى أثناء الأمطار وعندما ترتفع المياه فى البحر فإنه يصب فى النهر من نفس الفرع القديم ، وسألنى عما إذا كان ملك إنجلترا يرسل قنصلاً وطبيبًا ليعيشا فى السودان مع التجار ؛ لإقامة علاقات تجارية مع الأهالى وما هى الأشياء التى يمكن أن يشتريها الإنجليز ؟ .

لقد كررت مرة ثانية التأكيد على عدم الاستمرار فى تجارة الرقيق على الساحل ، وهى الوسيلة الوحيدة التى تقنع ملك إنجلترا لكى يرسل قنصلاً وطبيبًا للإقامة فى سوكوتو ، وأن السلطان يستطيع بسهولة منع مرور كل الرقيق شرقًا عبر بلاد الهوسا ونيفى ، وفى هذه الحالة تكون مهمة القنصل قد تمت بنجاح ، وأما بخصوص ما يقدمه التجار الإنجليز للشراء فقد حددت له الصمغ العربى وشمع عسل النحل والجلود الخام والنيلة والعاج ، وحاولت أن أؤكد له أن السودان فى كل أجزاء وسط أفريقيا المكان المناسب لمثل هذه التجارة . والتى لن تكون الوسيلة الوحيدة لثرائه وحده بل ولكل رعاياه ، فضلاً عن أن كل التجارة من الشرق ومن الغرب سوف تنتقل عبر مناطقه إلى البحر . وقال "إننى سوف أوفر مكانًا لملك إنجلترا على البحر لكى يبنى مدينة وأرغب فقط فى شق طريق إلى مدينة راكاه (Rakah) إذا لم تستطع السفن الإبحار فى النهر ، وسألته عما إذا كانت المنطقة التى وعد بها تابعة له ؟ وقال "نعم لقد أعطانى الله كل أرض الوثنيين" وكانت هذه إجابة دون أى اعتراض .

وتحدث بعد ذلك عن الرحالة منجوبارك وقال إنه إذا جاء فى فصل الأمطار فسوف يمر عبر الصخور ، ولكن نظراً لأن النهر ينخفض لدرجة كبيرة فى فصل

الجفاف فإن القوارب تعبر فقط لنقطة معينة . وأخبرنى أنه كانت توجد بندقية ذات ماسورتين على القارب لكنها انفجرت أخيراً .

وإن عمه عبد الرحمن كان معه كتاب مطبوع أخذه من القارب لكنه الآن غائب فى حملة إلى نيفى ، أما بقية الكتب فكانت فى حوزة سلطان يورى الذى كان تابعًا له ، وأخبرت السلطان إذا كان يستطيع تقديم هذه الأشياء لملك إنجلترا فإنها ستكون هدية قيمة ومقبولة ، ووعد بأنه سوف يبذل ما فى وسعه.

٢١ مارس :

لازمت الفراش بسبب الصداع والقيء وبعد الظهر زارنى محمد جومسو الذى كان يتجه فى رحلة إلى إمارة (كانو) ، وذكر أنها كانت فرصة سعيدة أننا لم نصطحب الحاج على بوكالوم عندما أحضر هدية الباشا فى العام الماضى لأن الأحمق فتح خطاب الباشا قبل أن يقدمه للسلطان (بلو) وحذف الكثير من الهدايا المذكورة فيه والتى استبدلها بهدايا أقل منها فى النوعية ، وأن السلطان أعاد الحاج على بدون أى هدايا ولم يسمح له بالحضور أمامه ، وأكد لى أن سلوكه قد أثار غضب السلطان من كل العرب فى مناطق نفوذ الباشا . ولقد انخدع كل من السلطان بلو ووالده كما يبدو من العرب فى كل معاملاتهم ويحضرون مرات فى حملات للتسول ، ويرددون القصص بأنهم من الأشراف الفقراء وإذا لم تقدم لهم ثلاثين أو أربعين عبداً فضلاً عن الطعام والإبل فإنهم يتملقون الفلاتا مدعين أنهم ليسوا مسلمين وأنهم لن يروا الجنة نتيجة عدد المؤمنين الذين قتلوهم عند غزوهم للسودان .

٢٢ مارس :

الطقس دافئ وصاف وانخفضت حدة الحمى ، وبعد الظهر طلبنى السلطان مرة ثانية ليناقش أفضل السبل لإقامة اتصالات دائمة مع الإنجليز ، وعبرت بنفسى عن

الشروط التى قلتها من قبل وتجنبت أى شىء يثير حقد العرب . إن الطريق المباشر إلى يورى يستغرق مسيرة خمسة أيام ولكن بسبب حالة التمرد والثورات فى البلاد كان من الضرورى أن نسلك طريقًا دائريًا يستغرق اثنى عشر يومًا ، وجاء لى عدد كبير من الرجال البارزين ليقدموا النصائح بالتخلى عن فكرة الذهاب ، وأكد الجميع أن الأمطار قد بدأت فى يورى وأن الطريق تحت قبضة الأعداء ، وكرروا نفس القصص للخدم الذين معى خوفًا من الوقوع فى مخاطر بسبب هذه الرحلة الخطيرة .

٢٣ مارس :

كنت مريضًا جدًا هذا اليوم ، واكتشفت أن العرب يمزحون مع خدمى ، وكان أحدهم يدعى عبد السلام يسير فى السوق وقال له أحد التجار إنه إذا وصل إلى يورى دون مواجهة أى كوارث فى الطريق فإن السلطان هناك سوف يبيعه ولن يسمح بعودته .

٢٤ مارس :

تحسنت صحتى كثيرًا وأرسل السلطان بعد الظهر المرشد الذى سيرافقنى إلى يورى (Youri) ورفض أحد الرجال وحاولت إغراء رجل آخر ووعدته بأربعين ألف صدفة (ودعة) دون علم السلطان الذى أكد لى ضرورة عودتى خلال ستة وعشرين يومًا بسبب طبيعة هذه الشعوب السيئة ، وحتى الوردى كان ضد فكرة الذهاب إلى يورى أو نيفى ، بل إنه استخدم نفوذه على الوزير والخدم لمنع الذهاب إلى يورى وأخيرًا جاء الوردى محمد سيدى الشيخ وهو من أهالى واحة (توات) وفقيه السلطان ليقول إنه لا يوجد من يرافقنى فى الطريق إلى يورى لأنه مكتظ بالوثنيين ، وإنه من المستحيل السفر بأمان دون جيش ولزمت الصمت وأخذت أطلق العنان لمشاعرى ، وشكرت "الله" لأننى لم أفقد صوابى وسط هذه المضايقات ، ورغم هذه الضربة القاضية لكل آمالى فى الوصول إلى يورى ، ومع ذلك اعتقدت أن كل هذه القصص من نسج الخيال لأن العرب بعد أن

عرفوا ما قاله السلطان بخصوص فتح طريق التجارة مع شعبه عبر البحر ، فضلاً عن معرفة خطورة هذا المشروع في التجارة مع الداخل حاولوا الآن إغراء السلطان والوزير بأن الإنجليز سوف يحضرون ويستولون على الدولة منهم .

٢٥ مارس :

كان الجو دافئًا وصافيًا ، وأرسل السلطان لي ورغم المعاناة من الحمى ذهبت في الحال وكان يجلس في فناء المنزل الداخلي ومعه أحد الأقزام فقط ، وبدأت المحادثة حول التجارة المقترحة مع الإنجليز حيث تكررت نفس المناقشة ، وسأل عما إذا كان ملك إنجلترا سيعطيه بندقيتين مع الذخيرة وبعض الصواريخ ، وأكدت له موافقة ملك إنجلترا على كل مطالبه إذا وافق على إلغاء تجارة الرقيق ، بل و أشرت أيضًا إلى أن سوكوتو أفضل مدينة من حيث الموقع في كل الشمال الأفريقي للقيام بالتجارة ، وبدونها تصبح الدولة عديمة القيمة ، وأنه في وسع ملك إنجلترا أن يجعله من أعظم الأمراء في أفريقيا عندما تتركز كل التجارة من الشرق والغرب في مناطق نفوذه ، وفي نفس الوقت نصحته بشدة بأن يبني ميناء على ساحل البحر حيث توجد السفن ، وحيث يتعلم من الإنجليز فن بناء السفن إلا إذا كان يفضل إرسالهم إلى مستعمراتنا على الساحل ليتعلموا أعمال النجارة والحدادة وحيث يتم احترام دينهم ، وعندما يتعلمون هذه الحرف يستطيعون تدريب بني وطنهم عليها . وعندما يدرس هذه الأمور يدرك مدى الصداقة مع الإنجليز لأنه عندما يمتلك السفن يستطيع شعبه الاتجار مع كل العالم ، ويستطيعون الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج بطريق أكثر أمنًا من الطرق البرية ، كما يستطيعون الذهاب والعودة في ستة أشهر ، ويستطيعون في الوقت نفسه إحضار كل منتجات الشرق .

٢٦ مارس :

تحسنت صحتي كثيراً وحيث إن اليوم الجمعة أجازة عند المسلمين فقد تجمع عدد كبير من الناس من المناطق المجاورة لرؤيتي ، وكان المسجد والمناطق المجاورة

لمنزلى مليئة تمامًا بالناس ، وكنت أجلس فى الظل على حصير مفروش على الأرض ، وكان معى محمد الوردى ، وكان الخدم فى حالة من الرعب بسبب ازدياد عدد الناس ، وطلب منى الوردى أن تكون بنادقى مملوءة بالذخيرة وأن أهدد بإطلاق النار بين هذه الجموع إذا لم ينصرفوا بعيدًا ، أو أرسل رسالة إلى الجيدادو لتفريقهم ، وقلت له "دعهم ينظرون إلى ومرحبًا بهم ، إنهم يشبهون كل سكان الدول الأخرى ولن يقدموا أى أذى لى" وقال بعض الصبية بصوت مرتفع "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله" وهذا كافر وبسرعة هرولوا بعيدًا ، وأخيرًا تسلل أحد خدمى عبر الجموع وأخبر الوزير الذى جاء وفرقهم حيث استمتعت ببقية اليوم .

٢٧ مارس :

كنت مريضًا بالحمى ، وفى الساعة الحادية عشرة طلبنى السلطان مع الوردى وطلب أن أحضر السرج الإنجليزى ، ودخلنا فى داخل المنزل حيث كان السلطان جالسًا يقرأ فى أحد أركان برج مربع ، وبعد أن فحص السرج قال إنه يشبه السرج العربى القديم الذى وصف فى أحد كتبه وأن ما نشتريه من جزيرة مالطة من الدرجة الثانية .

كرر السلطان ثانية موضوع إقامة قنصل إنجليزى وطبيب فى سوكوتو فضلاً عن طلب البنادق والصواريخ من إنجلترا ، والتى طلب إرسالها عن طريق طرابلس وبورنو تحت حراسة الوردى . وأخيرًا أخبرت السلطان أنه يمكن فقط إقامة علاقات مع إنجلترا من خلال البحر ، ووعدنى إذا انتظرت بعد موسم المطر فسوف يرسلنى إلى حاكم زجزج Zeg – Zeg (زاريا) ومعه أوامر لنقلى إلى الساحل .

وبعد أن سمع عن صحفنا طلب منى أن أرسل بعضًا منها إليه أو أخبار العالم ، وحيث إننى أقرأ فقرات منها فقد ذكرت له أن آلاف منها يطبع يوميًا وعندئذ صاح متعجبًا "الله أكبر" أنتم شعب مدهش ، وسألنى عن اليونانيين هل انضموا إلى المسيحيين الآخرين وهى مناقشة حاولت تجنبها وقال : "أنتم الآن فى حرب مع الجزائر

وقلت إنهم شعب شرس ، ويصرون على استرقاق الأوروبيين حتى أجبرناهم على التخلى عن ذلك" .

وكرر نفس الحوار وقال : "أنتم شعب غريب وأقوى الشعوب المسيحية وأنتم أخضعتم كل الهند ، وقلت إننا فقط قدمنا إليها الحماية وأعطيناها القوانين العادلة، وذكرت أيضًا أن كثيرًا من الأقطار الإسلامية وضعت نفسها تحت حمايتنا، وهم يعرفون أننا شعب لا يتدخل فى حقوق الآخرين سواء أكانت مدنية أو دينية ولكن نطالب بتطبيق القوانين على كل الطوائف والملل . وقلت له إن ملك إنجلترا مثل كل الرعايا المسلمين يحبذ إرسال العديد من السفن إلى مكة حاملة سكان الهند سنويًا للحج .

ومرة ثانية رسم السلطان على الرمل مجرى نهر كوارا مع حدود الدول المجاورة ، وطلبت منه أن يكلف أحد الرجال المثقفين بأن يرسم خريطة للنهر على الورق ، وقد وعد بذلك ، وكرر السلطان إن (فوندا) هى اسم المكان الذى يدخل فيه نهر كوارا البحر أثناء موسم الأمطار ، وأن (تاجرا) هى مدينة على ساحل البحر يقطنها الكثير من الفلاتا ، ويحكمها أحد رعاياه وهو من أهالى كاشنا واسمه محمد ميشنى .

وشاهدت السلطان مرة ثانية فى المساء عندما أخبرنى بأنه سوف يقوم بحملة ضد بعض أعدائه ، ولكنه لن يكون بعيدًا أكثر من خمسة أيام وتمنى ألا أكون متضايقًا لغيابه ، وأكد لى أننى لن أحتاج شيئًا .

ولكي يحيط الناس علمًا بالحملة الحالية ، يدور المنادى حول المدينة ويعلن "أنها رغبة السلطان" ويرد الشعب "إن كل ما يقوم به السلطان حسن وسوف نقوم به" ويبدأ المنادى من أمام باب السلطان حيث يتقدم نحو مكان السوق ، وبهذه الطريقة يتم الإعلان عن الحملة ، وعلى كل من يرافق الحملة أن يحصل على مؤن لمدة ثمانية أيام ، وفى الساعة الثامنة مساء غادر السلطان العاصمة مع جيشه.

٢٨ مارس :

زارنى فى هذا اليوم بعد الظهر أحد المرابطين المشهورين ، وكان بصحبة مجموعة ضخمة ، وكان يكرر قراءة الفاتحة عند الوصول لأول مرة فى هذا الاحتفال ، وطلب منى على الفور أن أدخل فى الدين الإسلامى وقلت "إن شاء الله" ربما أدخل فى الإسلام لكن أتطلب معرفة أمور سابقة عن الديانات قبل أن أفكر فى تغيير عقيدتى" وعند هذه الإجابة انفجر الحاضرون ضحكًا لكننى لم أكتشف أى ذكاء فيما قلت رغم أنها أعفتنى من سيل الأسئلة الذى كان يقدم لى ، وتركنى غير مقتنع بالفشل فى مهمته . وبعد غروب الشمس زارنى (عتيق) أخو السلطان والذى سبق أن أرسلت إليه هدايا من البورنوس والجاكت الأحمر ، وبعد تقديم التحية اعتذرت بسبب حالتى الصحية السيئة وبُعد سكنه وهذا ما عطل القيام بزيارة له. وأخبرنى أن لديه بعض الأشياء التى تخص الرجل البريطانى الذى كان فى (موسفيا) مع المرحوم بوكالوم لكن لم يعرف أحد محتويات هذه الأشياء ، وطلب من خادمه إحضار اللفة التى كان يحملها أسفل ذراعه ، وأخرج الخدم قميصًا وبنطلونين وقطعتين من لفافة الورق كان الميجور دنهام يستخدمها فى الرسم ، وقال عتيق إن الأشياء الأخرى عبارة عن ساعة وبوصلة ، وأن الساعة قد تعطلت بسبب عدم معرفة استخدامها ، وبعدئذ دعانى لزيارته صباح اليوم التالى وذلك لتحديد الأسعار ، ولكن وجدت من الأفضل استشارة الوزير لأن السلطان غائب فى حملته ، ونظرًا لأن عتيق دخل بيت السلطان فى غيابه وسط الطبل والموسيقى وهو ما أغضب السلطان بلو ، ورغم اعتذار عتيق عن تصرفاته إلا أن السلطان كان غاضبًا وظل عتيق فى حالة من الإهمال والغموض التام .

٢٩ مارس :

زرت الوزير (الجيدادو) فى الصباح الباكر وأخبرته عما حدث فى الليلة الماضية وأخبرنى ألا أذهب أثناء غيبة السلطان إذ يمكن أن ينظر الناس لى بعين الحقد ولن يترددوا فى إتهامى بتدبير مؤامرة لوضع الأمير عتيق على العرش بمساعدة إنجلترا

وأظهر الوزير امتعاضه واحتقاره لسلوك عتيق ، وأكد لى أنها بدون موافقة السلطان وبعد الظهر أصبت بموجة من القىء .

٣٠ مارس :

اليوم عاصف ودافئ ، وجاء الوردى باسم الوزير يطلب منى أن أبيع له ثوبًا من الحرير وبعض الأشياء الأخرى رغم أنه يعلم أننى لا أملك شيئًا من هذه الأشياء ، وشككت بأنه يناور بطريقة ما لنفسه ، وما أن خرج حتى ذهبت إلى الوزير وسألته عما إذا كان قد بعث أى رسول لى ووجدت ما خمنته ، وكان الوزير الطيب خجولاً من أن يطلب شيئًا باسمه ، وهز يديه وخشى أن يكون الوردى قد طلب منى ألا أبالى بهذه الأمور .

٣١ مارس :

رقدت فى المنزل طوال اليوم بسبب الحمى ، وكنت أتجول فى المدينة يوميًا من أجل استرداد صحتى بناء على رغبة السلطان والوزير .

١ أبريل :

كان الصباح باردًا وصافيًا واكتشفت أن إحدى حقائبى التى تحتوى على الودع (الصدف) قد فتحت ، وكان الشك فى أن خادمى عبد السلام الذى قام بالسرقة حيث اتضح أنه قدم عددًا من الهدايا القيمة لجوارى الوزير واللاتى كان مغرمًا بهن ، واضطررت إلى طرده من الخدمة رغم أنه كان شابًا أنيقًا وشجاعًا فضلاً عن أنه كان جزارًا وحلاقًا .

٤ أبريل :

كان الجو بارداً وصافياً وتحسنت آلامي ، وفى المساء عاد السلطان إلى المدينة .

٥ أبريل :

وصل الحاج على بوكالوم من كانو ورغم أنه غادر مدينة كوارا مع قافلة ضخمة تضم ألف رجل ويحميه جمع من خمسين فارسًا إلا أنهم تعرضوا لهجوم بين بحيرة جوندامي . وآبار كامون ، وكان الهجوم من إمارة جوبير وزمفرا والتى قامت بقتل أحد الأشراف واثنين من عرب طرابلس وسبعة عشر من الفلاتا بل والقبض على أسر الزنوج وأخذ كل حقائبهم عدا أمتعة الحاج على ، ومن حسن حظه أنه هرب مع إبله . وقد ترك الشريف المقتول طفلين أرسلت إليهما عشر دولارات حتى أشجع الآخرين على المشاركة لتخفيف الآلام ، وبعد الظهر ، قدمت فروض الاحترام للسلطان بعد عودته مع الجيش ، وصاحبنى الحاج على بوكالوم ، لكن السلطان لم يرغب النظر إلى المكان الذى أجلس فيه ، وسألنى عن حالى وهل حدث شىء أثناء غيابه .

٧ أبريل :

كان اليوم السادس صافياً وبارداً وفى اليوم السابع بعد أن حصلت على إذن من الوزير أن أشترى متعلقات حقائب الميجور دنهام ، ذهبت مبكراً إلى منزل الأمير مع الوردى ، وكان المنزل فى الطرف الغربى من المدينة ، وبعد الانتظار فترة ظهر عتيق وبعد التحية دخلنا فى الصفقة مباشرة وأحضر كل الأشياء مثل الساعة المكسورة والقمصان والبنطلونات ولفة الأوراق ، وأعطيت إليه خمسة آلاف صدفة ، وبعد انتهاء عملية الشراء طلبت عبداً ليوصلها إلى منزلى ، وكان مسكن الأمير مثل بقية المنازل محاطًا بسور من الطين مع برج مرتفع عند المدخل ، حيث يوجد عدد من العبيد والحراس طوال اليوم . وأخبرنى أنه يمتلك عدداً كبيراً من الرقيق وشاهدت عدداً من

الجوارى ، وعتيق رجل متوسط القامة ووجهه ممتلئ وملامحه مثل القرد ، ويتحدث بصوت منخفض ويعتبره الفلاتا من أشجع الرجال ، لكنه قاس ويقولون إنه لو أصبح سلطانا فإن الرؤوس سوف تتطاير عبر السودان .

وبعد أن أخذت الإذن من الأمير ركبنا لمشاهدة مسجد جديد بناه الوزير على حسابه فى مكان قريب من منزل عتيق . وكان الوزير يسألنى عن رأيى كل دقيقتين أو ثلاثة فى البناء .

٨ أبريل :

كان الجو صافيًا وباردًا ومرة ثانية لازمت الفراش بسبب الحمى وزارنى الحاج على بوكالوم مرتين أو ثلاثة وأرسل إلى نصف شاة وغيرها من الأشياء الأخرى التى طلبت أن توزع على الفقراء ، وكنت أعامل هذا الرجل بكل أدب لكن لم أتبع أيًا من نصائحه واقتراحاته أو حتى مجرد الحديث أمامه .

لقد جاءت أعداد من الأطفال الفقراء يطلبون الإحسان كل صباح ، وأصبحت متعودا على إعطاء صدقتين أو ثلاثة يوميًا وكانوا يصيحون "الله يدخلك الجنة" وهو أسلوب لا أتحمله ، وكان من بين الشحاذين كبار السن رجل من بورنو ، وكان حاكما من قبل لمدينة سوكوا Socua بالقرب من كاتاجم ، وقد جاء إلى سوكوتو ليقدم شكوى ضد دانكواه، ولكن بعد التحرى اتضح أن شكواه غير حقيقية ، ويقال إنه غنى ولكن حتى يوفر ثروته ادعى الجنون، وفى كل ليلة بعد غروب الشمس أعتاد الغناء أمام منزل الوزير (الجيدادو) وكنت أنا موضوع أغانية خاصة إذا أعطيته شيئا فى اليوم السابق، وفى العادة كان مثار ضحك كل الناس المحيطين به.

٩ أبريل :

زرت الوزير فى هذا اليوم وكان وحيداً يقرأ كتابا باللغة العربية ، وهو أحد المجموعات الصغيرة التى يمتلكها ، وقال "يا عبد الله" لقد رأيت فى المنام حلمًا الليلة

الماضية ، وأنا أقرأ هذا الكتاب لتفسيره ، وهل تعتقد في مثل هذه الأشياء ؟ "لا يا سيدى الوزير" إننى أعتبر كتب الأحلام مليئة بالخرافات ، إن الله قد منح الإنسان الحكمة ليوجه سلوكه بينما الأحلام تحددها ظروف عرضية مثل النوم والرأس منخفضة أو الإفراط فى الطعام أو قلق البال" وأجاب" يا عبد الله" وهو يبتسم "إن هذا الكتاب يخبرنى بشكل مختلف" ، وبعدها ذكر أنه خلال أيام قلائل سوف يذهب السلطان إلى حملة أخرى وأنه يرغب فى اصطحابه فيها ، ولكنه يفضل البقاء لكى ينهى بناء المسجد قبل شهر رمضان خشية أن يعطل العمال البناء فى فترة غيابه.

واليوم فقد محمد مودى أخو الوزير أحد أبنائه الذين تبناهم والذى مات بسبب الجدرى ، وزرته وواسيته وكان ممنونًا جداً، وهنا يدفن الفلاتا من ذوى الشخصيات البارزة فى السودان موتاهم فى المنزل الذى يموتون فيه كما ذكرت من قبل ، أما حزن محمد مودى فكان عميقا، وبعد انتهاء مراسم الدفن حضر وجلس وحيداً فى الظل أمام باب منزله ، وألقى بثوبه على ركبتة وكان يقرأ كتابا وهو يكرر بنغمة حزينة بعض آيات القرآن الكريم وكانت عيونه تذرف الدمع طول الوقت، وظل فى هذه الحالة الحزينة مدة ساعتين ، ولم أتمالك الإعجاب بدفء مشاعره التى تدل على قلب طيب، وبكل إخلاص واسيته فى مصيبته وكان الطفل ابن أخيه الوزير (الجيدابو) ، وعملية التبنى شائعة بين الفولاتى ورغم أن عندهم الأبناء والبنات فإن الطفل المتبنى يصبح وريثًا لكل الثروة.

١٠ أبريل :

زرت السلطان فى الساعة الثالثة بعد الظهر لكى أعبر عن أمنياتى بالنجاح فى حملته الحالية وعودته منتصراً وتناقشنا فى أمور كثيرة لكن انتهى النقاش كالعادة حول التجارة مع إنجلترا، وحاولت مرة ثانية أن أؤكد له أننا نستطيع أن نزود رعاياه بكل أنواع السلع بأرخص الأسعار، وأن بلاده مناسبة لتجارة القمح من أى دولة أخرى فى أفريقيا، وأنه يمكن جلب سلع أخرى قيمة من تمبكت وبورنو ووادای ،

وأن ينقلها الفولاتي بسهولة إلى ساحل البحر حيث يتم نقلها إلى إنجلترا، ويعيش على أمل أن يستقبل مقابل هذا ؛ الملابس والأقمشة والبارود، وسألني عما إذا كنت سأعود ثانية، وعما إذا كان ملك إنجلترا سيرسل قنصلاً وطبيبا إذا أرسل خطابا إلى جلالته بخصوص هذا الموضوع، وسألني عن وقت حضورهم، وأخبرته أنهم يمكن أن يصلوا إلى الساحل خلال شهرين إذا عرفت إنجلترا بمطالبه، وواصل حديثه قائلا :

"دعني أعرف الوقت المحدد، وسوف تكون رسلي موجودة في أي جزء من الساحل تحدده ، لكي تقدم رسائل لي من البعثة وعندما أتسلمها سوف أرسل لك حملة لتقودك إلى السودان، وأكد لي أنه قادر على وضع حد لتجارة الرقيق وأن الخريطة التي طلبتها ستكون جاهزة ، وفي نهاية هذا اللقاء طلب السلطان برفق ألا أكون متضايقا أثناء غيابه، وفي الساعة الخامسة مساء انضم السلطان والوزير إلى الجيش عند مدينة سان سان.

١١ ، ١٢ ، ١٣ أبريل :

كان النسيم عليلاً في الأيام الثلاثة الماضية وتلقيت هدايا عبارة عن سلال من القمح أمر السلطان بإرسالها قبل رحيله ، وكنت أجلس في الظل أمام باب منزلي ومعي سيدي الشيخ فقيه السلطان عندما جاء رجل بائس ووضع نفسه أمامي مباشرة، وسألت سيدي الشيخ عن هذا الشخص وقال إنه "منفذ الأحكام" وفي الحال أمرت خدمي بإبعاده وقال سيدي الشيخ "كن صبوراً ووضع يده على يدي" إنه يزور أول أناس يأتون إلى سوكوتو، ولن يسمحوا له بالذهاب دون إعطائه المال أو الجوز، وبناءً على ذلك أمرت بإعطائه أربعين صدفة على ألا يحضر ثانية إلى منزلي وقد حكى سيدي الشيخ قصة عن هذا الزائر حيث إنه أخ للجلاد يعقوب وكان من الأهالي فقد طلب من الحاكم أن يحل محل أخيه، وقال الحاكم بكل برود "سوف نحاول ، اذهب واحضر رأس أخيك" وفي الحال ذهب بسرعة يبحث عن أخيه حتى وجده جالسا على باب منزله ، وبدون ضوضاء أو إنذار قام بفصل رقبته بالسيف بضربة واحدة

وحمل رأسه والدماء تنساب منها إلى الحاكم وطلب المكافأة على هذه الفظائع" ومن ثم صار هو الجلاد فى الوظيفة الخالية، وكان السلطان فى حاجة إلى جلاد خبير، وطلب حضوره إلى سوكوتو، وبعد وصوله بقليل قام بقطع رقاب ألفين من الطوارق الذين حاولوا سلب البلاد وقد وقعوا جميعا فى الأسر، وكانت عقوبة الخيانة العظمى هى الإعدام وهى تطبق فى السودان على المسلمين ، أما عقوبتا القتل عن طريق الشد على الخازوق والصلب فتطبقان على الوثنيين.

١٤ أبريل :

كان اليوم دافئًا والجو صافيًا ، وقامت نساء الوزير بزيارتى عدة مرات ، وكنت مندهشا لجمال بعض الجوارى منهن ، واليوم هرب أحد العرب من قافلة متجهة إلى كوارا وجاء إلينا حيث إن شعب جوبير وزمفرا قد قبض على كل زملائه من الرحالة.

١٥ أبريل :

رغم إصابتى بالحمى فقد زارنى نساء الوزير وكانت زيارتهن لى قد أزالت الرهبة وشعرن بالأمان.

١٦ أبريل :

تحسنت صحتى وعاد السلطان من حملته مع شروق نهار يوم السابع عشر بعد أن استولى على عدد كبير من الأغنام والثيران والحمير وغيرها من المناطق المجاورة للعاصمة الجديدة فى زمفرا.

١٩ أبريل :

مات ابن الوزير من أخت السلطان محمد بلو بسبب الجدرى، وتم دفن الصبى فى المنزل كالعادة بعد وفاته بعدة ساعات وسط مشاعر الحزن من العبيد والنساء فى الأسرة.

٢٠ أبريل :

ذهبت لمواساة الوزير لوفاة ابنه ، وكان يجلس فى جناح داخلى وابتسم وهو حزين عند دخولى وقال "إنها خطوة طيبة منك يا عبد الله" لقد مررت بمأس كبيرة ، لكنها مشيئة الله، وتمنيت أن يهبه الله ابنًا محل هذا الذى فقده ، وهز رأسه وقال إنها إرادة الله لكنى رجل مسن" ثم غطى وجهه بيديه وجلسنا لمدة ساعة صامتين، وبعدها أخذته من يده وغادرنا وهو فى حالة من الحزن الشديد.

٢١ أبريل :

وصلت أخبار هذا الصباح بأن الطوارق من قبيلة كلجرس Kilgris قامت بسلب ونهب مدينة أديا (Adia) التى تقع بعد مسيرة ستة أيام إلى ناحية الشمال من سوكوتو، وبناءً عليه صدر إعلان، بأن كل الطوارق من هذه القبيلة يجب أن يرحلوا من مناطق نفوذ محمد بلو خلال ثلاثة أيام وإلا سوف يتعرضون لعقوبة الإعدام، وأخبرنى الوزير اليوم أنه لن يستطيع مصاحبتى إلى كانو قبل موسم الأمطار لأن الخيول عانت كثيراً من نقص المياه أثناء الحملة السابقة، وبعد الظهر أصبت بحمى شديدة مع قىء مستمر. واستمر الرعد والبرق طوال يوم اثنين وعشرين أبريل وفى اليوم التالى سمعنا عن قيام سكان جوبير بالقبض على قافلة أخرى وكانت ست نساء من بين الأسلاب فضلا عن ثلاثمائة عبد.

٢٧ أبريل:

أفادت حملة أغارت على كولى (Kulee) أنها حصلت على كمية كبيرة من الثيران والعبيد، وفى اليوم الثلاثين من أبريل استمر مرضى وأرسل السلطان لى وأخذنى إلى جزء من مقر إقامته لم أشهده من قبل، ويضم هذا الجزء برجًا مربعًا وسقفًا مطرزًا بشرائح من النحاس فى المنتصف، وتحدثنا كثيرًا عن أوروبا، وأشار إلى المملكة المراكشية فى أسبانيا وكان مسرورًا جدًا عندما أخبرته أن الإنجليز لا يزالون يمتلكون جبل طارق، وطلب منى أن أرسل إليه من أوروبا بعض الكتب العربية وخريطة عن العالم وفى مقابل ذلك وعد بحماية كل العلماء الذين يزورون مناطق نفوذه ، وتحدث عن الذهب والفضة التى يمكن الحصول عليها من تلال جاكوبا jacoba وأدماوا Admawa ، ولكننى أكدت له أننا لسنا حريصين على مناجم الذهب قدر حرصنا على إقامة علاقات تجارية وتوسيع دائرة العلم ، وأعطانى خريطة عن بلاده وبعد أن شرحها لى واصل الفكرة القديمة بإعداد خطاب لملك إنجلترا من أجل إقامة قنصل وطبيب فى العاصمة سوكوتو، ومرة ثانية عبرّ عن أمانيه فى أن أزور مناطق نفوذه مرة ثانية.

وسأل عن أى مكان على الساحل سيصل مندوب وملك الإنجليز حتى يرسل جماعة للحصول على أسلحة حسبما وعدناه وقال إنه سيكتب إلى جلالته عن هذا الموضوع من كوكا، واقترح أن ينتظر رسولان فى المكان الذى أختاره، وعند عودته سوف يرسل بعثة إلى ساحل البحر.

١ مايو:

بدأت الاستعدادات للعودة إلى بورنو لأسباب عديدة ليس من الضرورى سرد تفاصيلها ، واليوم بدأ شهر رمضان، ويحافظ الفولاتى على شهر الصوم بكل دقة ولا يغادر الناس البارزون منازلهم إلا فى المساء من أجل الصلاة وتقوم النساء بصب الماء البارد على ظهورهن اعتقاداً بأنه كلما اشتد العطش اقترب دخولهن الجنة.

٢ مايو:

كنت مريضا طوال هذا اليوم، وأرسلت إلى المشرف على بيت الوزير ، والجوارى كن يفضلن إعداد وإحضار الطعام منذ يوم وصولى وكانت هذه الكميات عبارة عن جالون من اللبن الطازج كل صباح داخل إناء واسع لى، وجالونين من اللبن الرائب للخدم عند الظهر، وفى مقابل كل ذلك كنت أعطيهن خمسين صدفة، وفى الساعة الثالثة أرسلوا إلى ثلاث دجاجات محمرة مقابل خمسين صدفة أيضاً ، ومرة ثانية بعد غروب الشمس حصلت على كمية أخرى من اللبن الطازج مقابل خمسين صدفة، واعترافا باهتمامهن بى خلال إقامتى قدمت للمشرف على المنزل هدية عبارة عن عشرة آلاف صدفة، وقدمت لكل عبد ألفين من الأصداف، وقد شكرنى هؤلاء على هذا الكرم بل وذرف بعضهن الدمع.

زرت السلطان بعد الظهر والذى أخبرنى أنه قد خصص نفس الحملة التى كانت معى من قبل لكى تتولى إرشادى فى مناطق إمارات جوبير وزمفرا وأن مسئولا سوف يرافقنى إلى زرمى وكاتسينا وكانو، وكاتاجم، وسوف يتسلم كل حاكم أوامر لتزويدى بحراسة قوية عبر منطقة البيدت، وأن أصل بسلام إلى أراضى شيخ بورنو، وذكر أيضا أن الخطاب الموجه إلى ملك إنجلترا سيكون جاهزاً فى اليوم التالى.

٣ مايو:

مع طلوع النهار عادت الإبل من المراعى، وبعد الظهر اتجهت إلى المناطق المجاورة لآبار كامون (Kamoon) ، واليوم زارنى كل الرجال المهمين فى سوكوتو للوداع، وفى الساعة السابعة مساء ذهبت للحصول على إذن السفر من السلطان الذى كان فى المسجد، وكان علىَّ الانتظار لمدة ساعتين قبل أن يخرج، وقد تعقبته لمسافة معينة حتى باب منزله حيث أخذتنى إحدى الجوارى من يدى وقادتنى عبر عدد من الممرات المظلمة وكنت مضطراً للانحناء حتى وصلنا إلى عدد من السلالم حيث كان ينبعث نور خافت من حجرة بعيدة، ولم أعرف أو أتخيل إلى أين تقودنى السيدة

العجوز، وبعد اللف والدوران وصلت إلى حيث يوجد السلطان بلو الذى كان يجلس وحيداً ، وفى الحال سلمنى خطاباً إلى ملك إنجلترا مع تأكيد مشاعره الودية نحو الأمة الإنجليزية، وكان قد أرسل من قبل يسأل عن اسم جلالة الملك وعنوانه، وعبر مرة ثانية بكل احترام عن شوقه للدخول فى علاقات تجارية دائمة وصداقة مع إنجلترا، وطلب منى أن أذكره بخطاب عن موعد وصول البعثة البريطانية إلى الساحل، وبعد أن كرر قراءة الفاتحة والدعاء لى بسلامة الوصول إلى إنجلترا، وسرعة العودة إلى سوكوتو ودعته بكل حرارة، وذهبت بعد ذلك لزيارة صديقى العزيز الوزير الذى أكد له كل مشاعر الود والاحترام مثل أى صديق قديم فى إنجلترا، وقد دعا الشيخ لى أيضاً بسلامة وصولى وكان الوزير مريضًا بسبب التزامه التام بالصيام فضلا عن حزنه الشديد لفقدان ابنه.

سوف أضيف هنا وصفًا قصيراً لمدينة سوكوتو، فهى تقع على خط عرض ٤ ، ١٣ شمالا وخط طول ١٢ ، ٩ْ شرقًا، وتقع بالقرب من التقاء مجرى مهم من نفس النهر الذى ينساب عبر زرمى Zirme والذى ينبع فى المنطقة ما بين كاتسينا وكانو، ويقال إنه يصب فى نهر كورا مسيرة أربعة أيام ناحية الغرب والاسم فى لغتهم الخاصة يعنى "مكان التوقف" وقد بنى الفولاتى المدينة بعد غزوهم لجوبير وزمفرا فى حوالى عام ١٨٠٥ حسب معلوماتى، وتشكل المدينة حافة طويلة تنساب بلطف نحو الشمال، ويبدو أنها أكثر المدن سكانًا وأكثر المدن ازدحامًا فى وسط أفريقيا ولأنها تختلف عن بقية مدن الهوسا حيث أن معظم المنازل متفرقة ، فإنها تضم شوارع منتظمة، والمنازل تقترب من الأسوار التى بناها حديثًا السلطان الحالى عام ١٨١٨ بعد موت والده، والأسوار القديمة كانت محددة ولا تتناسب مع الزيادة السكانية، ويبلغ ارتفاع السور الحالى ما بين عشرين وثلاثين قدماً، ويضم السور اثنتى عشرة بوابة تغلق بانتظام عند غروب الشمس، ويوجد مسجدان كبيران بالمدينة بما فى ذلك المسجد الحالى الذى بناه الوزير فضلاً عن أماكن أخرى كثيرة للعبادة، ويوجد بالمدينة أيضاً سوق واسع وسط المدينة، وميدان واسع آخر فى مواجهة مقر السلطان وتحيط بمنازل الرجال البارزين فى المدينة أسوار عالية والتى تضم أكواخا عديدة ومنازل ذات أسقف مسطحة حسب النظام المغربى، وسكان المدينة أساساً من الفولاتى الذين يمتلكون العديد من العبيد

الذين يعملون فى الشئون المنزلية وآخرون يقيمون فى منازل خاصة بهم ويعملون بالتجارة والحرف المختلفة ، ويحصل رئيسهم على الأرباح الرئيسية.

وأما الحرف الرئيسية فهى أعمال النسيج، وبناء المنازل وصناعة الأحذية والأعمال المعدنية، وجلب الأخشاب لبيعها فى الأسواق، ويعمل آخرون فى زراعة المحاصيل وتربية الماشية التى يمتلك الفولاتى منها أعداداً ضخمة، وهؤلاء يقيمون فى قرى خارج المدينة، ومن عادة بعض الأفراد تحرير العديد من العبيد سنويا بطريقتهم الخاصة خلال الأعياد الكبرى بعد رمضان، ومن النادر أن يعود المحررون إلى أوطانهم ولكن يواصلون الإقامة إلى جانب أسيادهم، ويقدمون لهم هدايا سنوية من أرباحهم، والتجارة فى سوكوتو فى الوقت الحاضر عديمة الأهمية بسبب الأحوال المضطربة فى المناطق المجاورة، وأما ضروريات الحياة فهى رخيصة ، واللحوم متوفرة جداً وجيدة المستوى، والصادرات الرئيسية هى الزباد ودهونه (طيب يخرج من حيوان الزباد) والأقمشة الخام الزرقاء التى يقوم بصناعتها العديد من نيفى والتى يعد رجالها من أشهر الصناع فى السودان، كما أن النساء من أشهر من يقمن بالغزل، أما الواردات العامة فهى الجوز الذى يصل من حدود بلاد الأشانتى فضلاً عن الأقمشة الصوفية مع كميات صغيرة من النحاس والأطباق الفخارية، ويقوم العرب من طرابلس وغدامس بإحضار الحرير الخام والعطور والورود والخرز، كما يتم استيراد وتصدير العبيد[1].

ويقوم الطوارق سنويًا بأخذ كميات كبيرة من قمح غينيا مقابل الملح، والسوق مكتظ بالسلع، وينعقد يوميًا من الصباح حتى غروب الشمس، وفى الناحية الشمالية من مدينة سوكوتو يوجد مستنقع منخفض مع وجود بعض البرك والمستنقعات الراكدة ما بين المدينة والنهر، وربما يكون هذا هو السبب فى انتشار الأمراض والحمى لأن المدينة تقع فى مكان مرتفع لطيف الجو.

(١) رغم إلغاء تجارة الرقيق حسب قرار البرلمان الإنجليزى عام ١٨٠٣ إلا أن هذه التجارة استمرت بشكل خفى خاصة التجارة المحلية حيث يعمل الرقيق فى المنازل ، وفى الحرف الصغيرة لكن ليس للتصدير خارج أوطانهم إلى أن تم القضاء على التجارة نهائيًا بعد مؤتمر بروكسل عام ١٨٩٠ (المترجم) .

٤ مايـو:

غادرت سوكوتو بصحبة أحد ضباط دومبوجي Dumbogee وسافرنا طوال الليل قبل أن نصل إلى الخدم الذين نصبوا خيامنا بالقرب من كامون، ومع طلوع النهار تحركنا إلى آبار كامون حيث توقفنا لملء القرب ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر وصلت الحامية وواصلنا الرحلة حيث انضم إلينا أربعة تجار مع عبيدهم، وسلكنا طريقًا جديدًا لا توجد بها مياه حتى نتجنب الثوار من جوبير وزمفرا كما يسمون أو "الحرب – الحرب" وهى الصيحة القومية .

٥ مايـو:

تابعنا ممرًا ضيقا عبر غابات كثيفة مليئة بالأشواك التى مزقت ثيابنا، وحيث إننى أهملت ارتداء حذائى فقد أصيبت أرجلى بشدة، وعند منتصف الليل مررنا بالقرب من قافلة من الثوار والتى تسافر ما بين زمفرا وجوبير، وقد أغرى هذا قائد الحامية ويدعى مودى Moodie على مواصلة رحلتنا طوال الليل رغم رغبتى فى التوقف حتى الصباح.

وكان رده الوحيد "لا ، لا ، الثوار قريبون منا" وفعلاً كنا نسمع أصواتهم، وعند الفجر وجدنا أننا قد ضللنا الطريق طوال الليل، وكنا على بعد مسافة قصيرة من الكالاوا Alkalawa عاصمة جوبير، ولم يعرف أحد الطريق الآمن للعودة، ولدهشتى فقد لاحظت أثناء الليل "أننا سافرنا في اتجاه شمالى لكن لم أفكر فى التدخل، واستشارنى مودى عما يمكن عمله وأوصيته بالسفر ناحية الجنوب الشرقى، وعلى هذا بدأنا نسير بأسرع ما يمكن للإبل عبر أشجار كثيفة صغيرة مزقت كل بنطلونى، بل ونزفت من الركبة حتى الكعب.

وبعد الظهر بدا التعب على السائرين على الأقدام ، وسمح لاثنين منهم بركوب الإبل لكن تخلينا عن الفكرة بسبب كثرة الراغبين فى الراحة وتطوع عدد من الأهالى

للسير فى هذا الجزء سيراً على الأقدام لكن تغلب عليهم التعب والعطش وجلسوا غير قادرين على النهوض مرة ثانية، وقد سقط أحد خدمي وهو من كانو شبه ميت بعد أن شرب جرعة من الماء حيث شرب الزنوج كميات كبيرة ، وحقا أقول إنهم يشربون ستة أضعاف المياه التى يشربها الأوروبيون ولقد وضعته على ظهر الإبل وأعدته إلى الحياة مرة ثانية بعد أن أخرج كمية كبيرة من الماء فى نصف ساعة واستطاع المشى وعاد إلى حيويته، وقبل غروب الشمس شاهدنا الأراضى المرتفعة المطلة على بحيرة جوندامى، ثم انحنى طريقنا ناحية الشرق، وعند غروب الشمس صاحت إحدى جوارى الحاج على بوكالوم قائلة إنها شاهدت اثنين من المتمردين (القتلة)، وجاء مودى إلى بأقصى سرعة، وأوصانى بتبديل الجمل الذى أركبه بحصان، وأن تكون أسلحتى على أهبة الاستعداد.

ورغم أننى لم أتمالك نفسى من شدة الألم فى أطرافى وضعت نفسى على رأس الحامية، وأخيراً وصلنا إلى ممر أوصلنا ناحية الشرق، وانتظرنا حتى قدوم الإبل ومن حسن حظى أننى لم أشهد الأعداء لكن كل قرب المياه كانت فارغة ولم يعرف أحد مكاننا بالضبط ولذا كان كل واحد يسرع الخطى بكل ما لديه من قوة، واعتبر الوردى مع اثنين من تجار العرب أنه من الأفضل ألا يتركونى وحدى ، ومات حصان عربى ممتاز يخص الحاج على بوكالوم نتيجة الإرهاق والتعب.

٦ مايو:

فى الساعة الرابعة من صباح يوم الثلاثاء رقد الوردى مريضًا وأعلن أنه غير قادر على السفر أبعد من ذلك، وبسبب ذلك أمرت بالتوقف ولكنى تركت الإبل بحمولتها، وحيث إننى انفصلت عن كل القافلة عدا تاجر عربى واحد، فقد رقدت إلى جانب حصانى وأعطانى الخدم بعض الثمار التى التقطوها حتى أخفف من الجوع والعطش، ونمت نومًا عميقًا على الأرض حتى طلوع النهار وبعدها واصلنا الرحلة شرقًا دون أن نسير فى طريق منتظم، والتقينا مع مجموعة أخرى من القافلة التى

أضناها الإرهاق ونامت بالليل، وبدأت تواصل الرحلة، ومعظمهم غير قادر على الكلام نتيجة العطش الشديد.

وفى الساعة العاشرة وجدنا صدفة الطريق إلى جوندامى وعند الظهر توقفنا على الشاطئ الجنوبى لنهر فوتش Futche ، ووجدنا أن الذى وصل قبلنا مجموعة صغيرة واستراحت تحت ظل بعض الأشجار ، وأرسلنا بعض الأهالى ومعهم مياه إلى زملائنا الرحالة فى المؤخرة.

وفى البداية أكلنا وشربنا بشراهة وكنا حريصين على منع الماشية من الشرب كثيراً حتى لا تضر بنفسها فى ذلك الوقت، ورغم حالتنا السيئة فإن الفولاتى واصلوا صوم رمضان بكل دقة، ولم ينوقوا الماء حتى بعد غروب الشمس.

٧ مايو:

وجدنا أن تسعة رجال وستة فرسان قد ضلوا فى الطريق عندما احتشدت القافلة عند طلوع النهار وكان من بينهم اثنان من الفولاتى ذاهبين إلى مكة وقادمين من مدينة (جنى) الواقعة غرب تمبكت، والثالث زوجًا لامرأة صارت الآن أرمله وعدت بحمايتها حتى كانو، وعند الظهر تخلصت من مودى وحمايته وكان يرغب فى توصيلى إلى زرمى ولكن نظراً لزوال الخطر رفضت هذا العرض الطيب وقدمت لهم هدية عبارة عن خروف و ٤٠,٠٠٠ صدفة وافترقنا، ووصلت إلى كوارى فى الساعة الواحدة بعد الظهر وعسكرت خارج المدينة، وذهبت لتقديم فروض الطاعة للحاكم الذى اشتكى من الحرمان نتيجة صوم رمضان رغم أن هذا كان اليوم السابع.

٨ مايو:

وعند طلوع النهار غادرت كوارى وعبرت واديًا مليئًا بالأخاديد، وتوقفت تحت ظل شجرة كبيرة أثناء حرارة اليوم، وعند غروب الشمس وصلت إلى زرمى حيث حصلت

على مكان مريح لى وللخدم، وكان الحاكم قد ذهب للمبيت فى مدينة صغيرة فى مناطق نفوذه أثناء شهر رمضان، ولكن زارنى أخوه والإمام الذى أرسل لى شاة وكمية من الطعام من الناس البارزين فى هذا المكان.

٩ مايو:

كان الجو دافئا، واستقبلت فى هذا اليوم عدداً كبيراً من الزوار من كلا الجنسين.

١٠ مايو:

تعتبر زرمى عاصمة إمارة زمفرا وتحتل شبه جزيرة داخل النهر ولها شواطئ منحدرة ومرتفعة جداً حيث يوجد ممر ضيق ملتوى يوصل إلى بوابات المدينة، ويحيط بها سور وخندق جاف والسور مصنوع من اللبن (الطين) وارتفاعه من عشرين إلى ثلاثين قدما، والحاكم رجل شجاع ويدعى تورنى دمباجى Turnee Dumbojee لكن السكان مشهورين على أنهم أكثر الناس بغاءً فى بلاد الهوسا.

ولقد حذر خدمى بعدم ترك المنزل بعد غروب الشمس لأن كل زنجى دون لحية (حسب تعبير دمباجى Dumbogee) معرض للسلب والسطو والنقل إلى بعض المناطق أو القرى المجاورة للبيع، وأن الهاربين العبيد من كل أجزاء بلاد الهوسا يهربون إلى زرمى حيث الملاذ الذى يلقون فيه الترحيب، كما أن السكان لهم نظرة مستقلة، وقد مرت سراً ثلاث من نساء العبيد التابعين للحاج على بوكالوم، وهن يفضلن الحرية والزوج بدلا من العبودية والسيد السيء.

١١ مايو:

غادرنا زرمى مع شروق الشمس وعبرنا أرضًا مزروعة تمامًا، وأثناء حرارة اليوم توقفنا ثانية تحت ظل شجرة وعسكرنا عند المساء عند قرية ياكو Yakua حيث تمنى

دوبوجو أن أسكن فى أحد المنازل خوفا من السرقة أو القتل، ولكن نظراً لأن عدداً كبيراً توقف خارج القرية فإننى أشرت إليهم بسخرية من اقتراحاته المخزية.

١٢ مايو:

غادرنا ياكو Yakua بدون أدنى إزعاج وكان طريقنا فى أوائل النهار عبر غابة من الأشجار لاحظت بينها عدداً ضخماً من المانجو البرى، وكانت التربة طينية مختلطة بحصى مستدير وكبير من الكوارتز الأصفر، وفى الأخدود توجد طبقة من الميكا، وبعد السفر بعض الوقت على ارتفاعات مختلفة توقفت عند روما Roma حيث التربة من الخليط الأسود من الطمى القوى، وهناك وفرة من المياه العذبة الصافية، وعلى الجوانب تنتشر أشجار الفاكهة المزروعة فى الحقول فضلاً عن العديد من المدن والقرى، وكان الطريق مزدحمًا بالناس لأنه يوم السوق حيث يدفعون أمامهم الثيران الجميلة التى لم أشهد مثلها فى أى إقليم آخر.

وبعد الظهر واصلنا رحلتنا وكانت المنطقة مكشوفة ومزروعة جيداً لكن ما زال الطريق ملتوياً ومليئًا بالأشواك، وعند غروب الشمس توقفنا عند قرية كبيرة تدعى ياندوكا، وبعد أن علم حاكمها أننى قادم من طرف السلطان بلو لم يقبل أن أنام خارج القرية ، ولكن أصر على أن أشغل منزلاً أعده لى حيث زودنى بكمية ضخمة من الطعام.

١٣ مايو:

بعد الظهر واصلنا طريقنا وصعدنا أرضا مرتفعة، وشاهدنا مآذن مسجد كاشنا (كاتسينا) وكانت المنطقة خالية من الأشجار وبعد أن أرسلت الوردى ودومتوجى فى المقدمة لإعداد المسكن ، فإننى لم أصل المدينة إلا بعد غروب الشمس حيث كانت البوابات مغلقة ولكن وجدت باباً صغيراً مفتوحاً وذهبت إلى منزل أُعد خصيصاً من

أجلى حيث وجدت الطعام لكن كان المنزل فى حالة سيئة ويحتاج إلى إصلاح وكان مليئا بالنمل والفئران وأعتقد أنه لم يسكن منذ غزو الفولاتى.

١٤ مايــو:

بعد ليلة من القلق وعدم النوم أرسلت إلى دوميوجي وطلبت من أحد الخدم أن يشاهد المنزل وسألته عما إذا كان منزل الوزير (الجيدادو) وأخبرنى أنه كان مخصصا لسكن فيوكن سيركيس Voikin Serkis صديق السلطان لكن الوردى أخبره أنه يفضل البقاء مع العرب ويخبره أننى قادم، وعندما سمع الحاج أحمد والوردى هذه الرسالة جاءوا بى وهم فى حالة فزع شديد، وطلبوا منى أن أذهب معهم وأختار أى منزل يروق لى، وحتى لا أكون مثيراً للقلق رافقتهم بعد طعام الإفطار وشاهدت عدة منازل، وركزت على أحد المنازل المريحة، وكنت مريضًا طوال اليوم رغم أن هذا لم يمنعنى من زيارة الناس المهمين من السكان، ومن حسن الحظ أن الحاكم كان خارج المدينة لكنه كان مؤدبًا جداً وأرسل إلى لزيارة منزله الريفى حيث يعزل نفسه طوال شهر رمضان، ونظراً لأننى لا أمتلك هديه له فقد قررت الاعتذار عن الزيارة رغم إلحاح الحاج أحمد على رؤيته، وكان الحاج أحمد وهو رئيس كل العرب قد سكن هناك لمدة ثلاثين عاما ورغم أننا كنا فى شهر رمضان فإنه كان يجرى بسرعة وسط حرارة الشمس ليحضر لى الملح وغذاء الإبل وغيرها من الضرورات اللازمة.

وقد سمح لى أن أختار لنفسى على الأقل خمسين جارية من البنات السود، ولاحظت أنه سيقع فى غلطة إذا تخلى عن نساء مسلمات إلى رجل كافر، "لا ، لا يجب أن تأخذ واحدة" حسنًا وحيث إننى مريض وأحتاج إلى ممرضة فسوف آخذ امرأة واحدة ، وأشرت إلى امرأة عجوز ، وقال الحاج "لقد فعلت خيراً" إنها امرأة ذات خبرة وطباخة ماهرة، لقد رأت الدنيا وكانت فى فزان ، وكان هذا أول عرض أتقبله من رجل مسلم ، وجاء معها بنتان صغيرتان لتساعدانها ، وأثناء مرضى لم أستفد من مزايا التمريض النسائى ، ولقد شفيت بسرعة بفضل الرعاية والاهتمام واسترجعت صحتى وقوتى.

١٥ مايــو:

كان الجو بارداً وعاصفًا وزارني الحاج أحمد بعد طلوع النهار بقليل وأخبرني بكل ثقة أنه يمتلك حجراً له قيمة عالية وطلب رأيي في هذا الموضوع" حسنا والدى الحاج أراني إياه وسوف أعد قيمته، وأحضر خادمه حقيبة جلدية أخرج منها سيده لفة من الخرق البالية وفتحها بكل رعاية الواحدة بعد الأخرى، وأخيراً ظهرت الجوهرة والتى رفعها بصرخة النشوة ، وقال انظر هناك ماذا ستدفع ثمنًا لها إنها قطعة من الصخر البلورى حوالى بوصتين طولا وثلاثة أرباع البوصة فى قطرها" وبعد فترة من الصمت أعلنت "دولارا" ولم يحاول الحاج الرد على تساؤلى عن مكان الحصول عليها، وخشيت أن أرفع السعر فيشك فى قيمتها، وأخيراً لفها مرة ثانية بكل حرص ورعاية.

١٦ مايــو:

كان الجو صافيًا ودافئًا، وبعد الظهر سقطت أمطار غزيرة يصحبها برق ورعد.

كاشنا أو كاتسنا تقع على خط عرض ٥٩ ، ١٢ شمالاً، وحسب رواية الحاج أحمد فإن اسمهما كان سنجراس Sangras منذ حوالى قرن تقريبا وبعد ذلك أطلق عليها جيشنا Geshna وهو اسم مشتق من الأشجار الصغيرة التى تنمو على الحافة التى بُنيت عليها المدينة ، وهى جزء من سلسلة الحواف التى تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، وأسوارها من الطين وهى واسعة ولكنها مثل كانو لم تشغل المنازل أكثر من عشر المساحة داخل المدينة، والبقية تتكون من حقول مغطاة بالأشجار، ويشبه مسكن الحاكم قرية كبيرة ، ويقع على بعد نصف ميل شرق كل المبانى الأخرى ، ونتيجة لشهر رمضان أعفونى من مناسبة القيام بزيارة له، واسم الحاكم عمر دلوجى Delogie ، والفواكه فى هذه المنطقة تشمل التين والبطيخ والشمام والحمضيات ، ويقال إن الأعناب كانت متوفرة وبكثرة فى الأزمان السابقة ، ولكن

بعد غزو الفولاتى تم قطع أشجار الأعناب ومعظم المبانى مدمرة، وتنقل أهم السلع التجارية إلى كانو منذ الغزو إلا أنه لا تزال هناك تجارة معقولة(١).

ويوجد سوقان يُعقدان يوميًا فى مكانين مختلفين من المدينة، أحدهما فى الجنوب والآخر في الشمال، ويحضر السوق الشمالى تجار غدامس وواحة توات شمال الطوارق، ويجلب تجار غدامس وتوات الحرير الخام والقطن والملابس الصوفية والخرز والصباغة الحمراء التى يبادلونها بالأصداف (الودع)، ويتم إرسال الوكلاء إلى كانو لشراء الأثواب الزرقاء التى ترسل عبر المنطقة إلى سوق جرات Ghraat فضلا عن كل ما يحتاج إليه الطوارق فيرسل إلى تمبكت للتبادل مع الذهب والرقيق، والمصنوعات الرئيسية فى كاتسينا من الجلود مثل قرب المياه والوسائد الصفراء أو الحمراء، وسروج الخيول من جلد الماعز وغيرها. وتُعد جلود الثيران أيضًا من السلع التى تنقل إلى فزان وطرابلس، وهم يُعدون اللحم المجفف الذى يقوم التجار العرب بتجهيزه قبل عبور الصحراء.

وتعد كاتسينا الملاذ المفضل للطوارق الذين يلجأون إليها دائما أثناء شهور الجفاف، ولا يحتفظ تجار غدامس وتواب بالإبل الخاصة بهم، بل يستأجرون من هذا الشعب الذى يحمل البضائع عبر الصحراء إلى كاتسينا بقيمة عشرة دولارات للحمولة فضلاً عن نقل العبيد مقابل خمسة وعشرين دولاراً للرأس وهذا موجود فى كل شىء ، ومن هذا الدخل ومنتجات الملح الذى يحضرونه معهم يشترى الطوارق الحبوب والأشياء الضرورية الأخرى التى تقيتهم (تضمن معيشتهم) خلال إقامتهم فى الصحراء.

(١) بدأ الغزو الفولاتى بزعامة الشيخ عثمان بن فودى فى عام ١٨٠٤ ، واستمر حتى عام ١٨٠٨ عندما دخل عاصمة إمارة جوبير وأقام دولة إسلامية اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها (المترجم) .

١٧ مايـو:

عند شروق الشمس غادرت كاتسينا من بوابة كورا koura على الجانب الشرقى من المدينة، وصاحبنى الحاج أحمد لمسافة طويلة وكان من الواجب أن أطلب منه العودة وذكرته أننا فى شهر رمضان وأن السفر فى هذا الجو الحار بدون السماح له بالشرب، عمل شاق جداً، وتقع إلى جانب كاتسينا مباشرة منطقة مليئة بالأشجار الصغيرة ولكن بسرعة دخلنا منطقة مزروعة تماماً، وكان الطريق سليماً، واسترحنا أثناء حرارة اليوم تحت شجرة قرب قرية ميوا Miwa قرب مجرى مائى ، ومررنا على آثار عدد من المدن والقرى دمرها الثائر دنتجوا Duntungua

وعند غروب الشمس أقمنا معسكراً قرب قرية إيتوا Eatowa حيث جاءت شابة صغيرة تطلب منى الاهتمام بأمتعتى حيث يوجد عشرة لصوص فى المنزل الذى أشارت إليه والذين يسلبون كل شىء حولهم.

١٨ مايـو:

عند شروق الشمس غادرنا إيتوا دون أن نخسر شيئا، والأرض عامرة بالزراعة الجيدة، وقد مررنا على مدينة مسورة تدعى سابون جرى Sabon Gree وكانت أسوارها فى حالة سيئة وسكانها قليلو العدد، وتوقفنا عند الظهر تحت ظل شجرة قرب قرية بورديوا Burdeuowa ، وانضم إلينا تاجر من سكوبا كان قد غادر كاتسينا فى اليوم السابق.

وبعد أن فقد الوردى بعض الذهب بما قيمته إحدى وثلاثين دولاراً فإنه تشكك فى خادمه الذى كان يركب على جمل سيده بسبب إصابته بالحمى ، لكنه أنكر الموضوع تماماً، وفتش الوردى فى كل أمتعته فى كاتسينا دون أن يجد أثراً للمسروقات.

وأعزى هذا إلى التاجر الذى رافقهم والذى كان خادمه يسمع الحوار وسأله عما إذا كان قد فحص سرج الجمل، وأجاب الوردى بالنفى ، لكن العربى أقسم بالرسول

أن السلع المسروقة هناك لأن خادمه كان قد أصلح السرج فى كاتسينا، وبالتالى أمكن الحصول على المسروقات لكن الذهب لم يكن موجوداً، وهنا طلبت من الوردى إخراج الذهب والا فلن يسافر فى قافلتى، واقترح كتابه اسم كل شخص فى القافلة فى ورقة مستقلة وتوضع فى قربة مياه فارغة، ويطلب من كل شخص أن ينفخ كل واحد حتى تمتلئ، وعندئذ فإن اللص لن يستطيع النفخ حتى ملئها، وعندما تم إعداد كل شيء، جاء المتهم وأعلن أنه لا داعى لهذا وفى الحال سلم الذهب وسألت الوردى عما سيفعله معه، وأجاب بأنه سوف يتركه فى كانو، وسألته عما إذا كان ينوى عقابه وقال لا، رغم أنه يستحق ذلك لن أفعل ذلك، وتحدث مع خادمه وكأن شيئا لم يحدث ، وهذه هى الطريقة الرسمية عند كل العرب، ومهما بلغت جريمة الشخص فإنه يعامل بكل أدب.

وبعد الإنتهاء من هذه الحادثة غادرنا يوردروا وسافرنا عبر أرض مزروعة ومررنا على عدد كبير من قوافل الطوارق وتجار غدامس الذين يغادرون السودان قبل موسم الأمطار، وفى الساعة الخامسة عسكرنا بين مجموعة من الصخور بالقرب من مدينة كافونجى kaffondingee وبجوارها عدد من المدن القريبة والتى تحيط بها الأشجار الوارفة والتى وصفها الرحالة منجوبارك فى رحلاته تحت عنوان نوتا Nutta والتى يسميها الأهالى باسم دورا Doura وتنمو هذه الشجرة بارتفاع يفوق شجرة التفاح وربما أضخم فى جذعها لكنها لا تمد فروعها بشكل كبير، وحالياً فإن هذا هو موسم جمع الثمار، ويتم تحميص بذور شجرة النوتا مثل تحميص البن ثم توضع فى المياه، وبعد أن تغسل وتجفف يصنع منها شيء ما يشبه الشيكولاته.

١٩ مايو:

فى هذا اليوم ثار التاجر الذى انضم إلينا بالأمس بسبب سرقة سلة من قطع الزجاج من تحت رأسه أثناء نومه، وطلب منى أن أتوقف يوماً حتى يجد الوقت لكى يتابع قافلة الطوارق المتجهة شمالاً ، لكن هذا لم يحدث وعند الساعة السادسة صباحا غادرنا مدينة كافونديجى، وظل التاجر فى صحبتنا لأنه خشى أن يتركنا، وسافرنا

عبر أرض كانت خالية من قبل لكنها صارت مزروعة بأشجار ضخمة، وكانت التربة قوية من الطمي الأسود ومررنا على بقايا بعض المدن المسورة وتوقفنا أثناء حرارة اليوم تحت ظل الأشجار التى تنمو بين هذه المبانى المحطمة والتى تدعى صوفا Sofo ، وبعد ذلك امتلأت المنطقة بالأشجار ، ويقال إنها مليئة بالثوار التابعين لدنتجوا Duntungua ، ووصلنا بعد ذلك إلى دوكامى ولكن نظراً لأن الوقت كان متأخراً فلم ندخل المدينة، وقضينا الليلة فى الهواء الطلق دون أن نقيم الخيام.

٢٠ مايو:

عند شروق الشمس اكتشفت أننى مصاب بنوبة برد شديدة نتيجة تعرضى لرياح قوية من الشمال الشرقى، وكان الطريق ملتوياً وكثيف الأشجار، وتوقفت أثناء حرارة اليوم خارج أسوار مدينة فانيورو Faniro ، وكان صديقى القديم حاكم المدينة فى حملة عسكرية واسترحت تحت ظل شجرة حيث الجو البارد والهواء النقى تحتها، وبعد ذلك قضينا الليلة فى جاداميا Gadania .

٢١ مايو:

كان الرعد والبرق الذى استمر طويلاً وقضينا الليلة خارج مدينة تافو Taffo .

٢٢ مايو:

عند طلوع النهار أرسلت أحد الفرسان بعيداً لأجل إخطار الحاج صلاح وحاكم كانو عن عودتى حيث إننى أتوقع أخباراً من يورنو وطرابلس، وفى الوقت نفسه استرحت تحت ظل شجرة حتى قابلنى رسول يحمل رسالتين، إحداهما من الميجور دنهام مختومة بالشمع الأسود يواسينى عن مصير السيد تول الذى عبر

الصحراء ومعه مرشد واحد وانضم إلى الكابتن دنهام فى كوكا، وعند غروب الشمس دخلت إمارة كانو وفى الحال تقدمت إلى منزل الحاج صلاح وكيلى الذى كان سعيداً برؤيتى كأننى ابنه الخاص، ورغم أنه كان شهر رمضان فإننا ذبحنا شاة لعمل وليمة، وأكد على ضرورة جلوسه عند وصولى، وحقًا كان عقابًا قاسيًا أن يجلس متفرجا فى هذه المناسبة ولكنه نادى بصوت مرتفع "يا عبد الله كل" لأنك جوعان كافر، واكتشفت أنه خلال غيابى وصلت قافلة واحدة من بورنو وهى نفسها التى أحضرت لى الخطابات مع ثلاث زجاجات من الخمور وبعض البارود من الميجور دنهام، وذكر الحاج صلاح أن يعقوب العجوز كان حزينا وقلقا على سلامتى أثناء غيابى، وأن إحدى جوارى الوردى فقدت صوابها عندما علمت بذهابنا إلى يورى، وفى هذه الحالة التعيسة ألقت بنفسها فى بئر وكسرت إحدى ذراعيها.

٢٣ مايو:

كان الجو بارداً وعاصفًا، وزارنى كل العرب البارزين الموجودين فى كانو ومن بينهم الحاج بو زايد صديقنا العزيز، وطلب منى بكل توسل ألا أخبر شيخ بورنو أو باشا طرابلس عن مسلك السلطان بلو مع الحاج على فى سوكوتو، ولأجل خاطر بو زايد وعدته ألا أتحدث فى هذا الموضوع إلا إذا وجهت إلىّ أسئلة عن سلوكه.

٢٥ مايو:

فى هذا اليوم دفعت أجور الخدم بواقع أربعة دولارات فى الشهر لكن قمت بتخفيضها إلى النصف فى المستقبل، إنهم مسرورون بالبقاء فى خدمتى.

٢٦ مايـو:

زرت الحاكم الذى استقبلنى بحرارة واستفسر بشكل خاص عن صحة السلطان والوزير وكيف عبرت جواندمى وهو النهر بين فتش وسوكوتو.

٣٠ مايـو:

كان الجو صافياً وطلب الناس منى أن أرجع إلى كتبى للتأكد عما إذا كان القمر سيظهر اليوم وهى مناسبة ينتظرها الجميع، وأكدت لهم أن هذا سيحدث بعد غروب الشمس إذا كانت السماء صافية، وسبب كل هذا هو صباح رمضان الذى ينتهى بالعيد العظيم بعده مباشرة، ولقد كانت السحب كثيفة وكانت روح الجميع المعنوية منخفضة ولكن فى منتصف الليل وصل أحد الفرسان سريعا ليخطر الحاكم أن القمر الجديد قد ظهر.

٣١ مايـو:

وبعد وصول الفارس لم نسمع شيئًا سوى أصوات الصواريخ والمرح والسرور، وتبادل الزيارات التى أصبحت أمرًا شائعا، وفى الصباح اصطحبنى الحاج صلاح ، ركبت جوادى لزيارة الحاكم وقبلت دعوته للركوب معه إلى مكان مكشوف داخل أسوار المدينة وسط الأصوات والأفراح والصواريخ ، ولبس العرب ورجال المدينة أحسن ما لديهم من ثياب، وركب كل واحد حصانه وحسب إمكانياته، وركب الجميع إلى الساحة حيث ألقى الحاكم خطابا يعلن عزمه على مهاجمة دونتيجا وأن يبذل كل إنسان ما فى وسعه، ويجب عدم ترك أطفالهم مثلما كان يحدث فى الماضى ولكن يجب مصاحبتهم إلى الحرب ويتعلموا كيف يخوضون المعارك فى بلادهم تحت عيون

والديهم، وبعد ذلك عدنا إلى بيوتنا بنفس الطريقة. لقد توقف العمل تماما لمدة ثلاثة أيام، وكان الرجال والنساء والأطفال يتجولون فى أزهى ملابسهم فى المدينة، وتم إطلاق عدد كبير من الأسرى حسب عادة المسلمين فى هذه الأعياد الإسلامية المقدسة، وأعتق صاحب المنزل الذى أقيم فيه خمسة عشر عبداً .

الأول من يونيه :

زرت الحاكم للاستئذان فى الرحيل وكان رجلاً عطوفًا وبعد أن استفسر عما إذا كنت سأعود ثانية طلب منى أن أنقل تحياته لصديقه الشيخ الكانمى ، وتمنى أن أقدم تقريراً عظيما عن الشعوب التى زرتها، وأكدت له أننى لن أفعل سوى ذلك لأننى وجدت كل حفاوة وترحيب فى كل مكان زرته، وقرأ الفاتحة عدة مرات وودعته.

٣ يونيه :

غارت مدينة كانو فى العاشرة صباحًا وصحبنى الحاج صلاح وكل أصدقائى عدة أميال، وقبل أن يغادرنى الحاج صلاح استدعى كل خدمى أمامه وأخبرهم أنه يثق فى إخلاصهم ومعاملتهم الحسنة لأنهم شاهدوا أننى كنت خادما لملك عظيم صديق باشا طرابلس، وقمت بخدمة سلطان بعد الآخر، وسافرنا فقط لمسافة قصيرة تحت شجرة قبل توقفنا بسبب حرارة اليوم، وبعد الظهر تقدمنا إلى الإمام وعند الغروب توقفنا خارج مدينة ديوكى **Dudkee** .

٤ يونيه :

فى هذا الصباح مررنا على مدينة سوكنا المسورة التى تقلصت إلى عدة أكواخ يقطنها العبيد ، ونصبنا الخيام عند غروب الشمس تحت أسوار مدينة

جيركوا Girkwa التى لا تبعد كثيراً عن النهر، وكان الناس يرقصون فرحاً بالعيد وكان الرجال يقومون بالرقص باستخدام العصى، وفى وسط الدائرة يوجد اثنان من الطبالين الواقفين على الأرض، وكان الناس يتجمعون لمشاهدة العرض.

٥ يونيه :

كان الصباح كثير العواصف وفى الساعة السادسة صباحًا غادرنا جيركوا Girkwa واسترحنا تحت أشجار التمر الهندى بسبب الحرارة بين قرى نانسارينا Nansarina وعند غروب الشمس أقمنا معسكراً بين الأشجار، وكان الأهالى مشغولين بزراعة المحاصيل(القمح)، وطريقة الزراعة بسيطة حيث يقوم رجل بحفر الأرض بفأس صغيرة وتسير خلفه امرأة حاملة البذور، وتضع بعضا منها فى كل حفرة ثم تهيل عليها التراب حتى تغطى البذور.

٦ يونيه :

توقفنا عند الظهر فى مدينة سانجيا Sangeia وكان حاكمها فى كانو ولذا هربت من سماع صوته الأجش، وعسكرنا الليلة وسط الغابة.

٧ يونيه :

فى الساعة الواحدة بعد الظهر توقفنا خارج مدينة كاتنجوا Katungwa وعند الغروب وصل فارسان بسرعة فائقة حاملين أخباراً بأن حاكم كانو قد استولى على مدينة تبعد مسافة قصيرة شمال الثائر دونتجوا.

٨ يونيــه :

كان الأهالي مشغولين في كل مكان بإخلاء الأرض وحرق الأعشاب استعداداً لموسم بذر الحبوب، وجلسنا تحت ظل شجر التمر هندى للوقاية من أشعة الشمس وسط النهار في مديرية شيرا Sherra وتوقفنا طوال الليل خارج مدينة بوصياBoosuea وكان ابن حاكم شيرا هناك ومعه عدد من الفرسان وفرقة للموسيقى وتناول القهوة معي، واستمتعت بالموسيقى طوال الجزء الأكبر من الليل، وكانت الآلات أساساً من الناى والربابة.

٩ يونيــه :

وصلنا عند غروب الشمس إلى مدينة دوجوا Dugwa وفى اليوم العاشر غادرناها مع طلوع النهار وسافرنا عبر منطقة غابية كثيفة واستمر هطول المطر طوال اليوم مع رعد وبرق، وفى الساعة السابعة مساء وصلنا إلى ميرمور Murmur ، وسمعت وأنا فى كاتو أن قافلة من العرب تتبع عقيلة ، دمرت سوراً من الطين حول مقبرة الدكتور أودنى وأشعلوا حريقا حولها وأخبروا الأهالى بأنه كافر، وللأسف الشديد وجدت هذا التقرير صحيحاً.

١١ يونيــه :

عند شروق الشمس أرسلت للحاكم لأستفسر عن الذى قام بهذا العمل، وقال إنهم العرب وليسوا سكان المدينة، وتضايقت لهذا العمل الوحشي ولم أتمالك نفسى فضربت الحاكم بالكرباج وهددت بأننى سوف أخبر سيده حاكم كاتاجم إذا لم يتم بناء السور فى الحال، ووعد بالقيام بذلك دون إبطاء، وأثناء توقفى عند الظهر بالقرب من كاتاجم أرسلت دوميوجي ليخبر دنكاوا الحاكم برجوعى، وبعد الظهر سمعت أنه

كان فى طريقه ليقابلنى وقبل أن أغادر مكان إقامتى ظهر ومعه ثلاثون فارسا أسرعوا نحوى مهرولين رافعين حرابهم ، وقدمت للحاكم مائة من ثمار الجوز وزعها على شعبه، وبعد أن رحب بى سأل العديد من الأسئلة عن السلطان بلو وكيفية تصرفه معى، ورغم أن الحاكم كان مريضاً منذ عدة أيام إلا أنه كان مرحاً وفى صحة جيدة، وعندما دخلت كاتاجم سكنت فى نفس الحى القديم وزارنى فى الحال صديقى حمادى التاجر من طرابلس الذى ما زال هناك ودعوته لأن يصحبنى إلى طرابلس كما أشار المرحوم الدكتور أودنى لكنه اعتذر بحجة أنه غير قادر على جمع ديونه الأساسية من مختلف الدائنين المنتشرين فى أنحاء البلاد.

١٢ يونيه:

كان الجو حاراً وظل دنكواه معى طوال اليوم وأخبرنى أنه تلقى أوامر من السلطان بمرافقتى إلى كوكا فى بورنو. ووافقت على قبول صحبته عبر منطقة بيد Bede وأكدت له عندما أكون فى بورنو فإننى أشعر بالأمان كما هو فى بيته، وإذا أصر على أن يرافقنى أحد فإنه يمكن أن يرسل أحد الرجال البارزين، وقدمت شكوى رسمية للإهانة التى لحقت بمقبرة الدكتور أودنى، وبصراحة اعترف بحجم هذا العمل ووعدنى بكل إخلاص بإعادة بناء السور بل وعرض طلب حاكم ميرمور ومعاقبته ولكنه فى الوقت نفسه طلب منى ألا أخبر السلطان بما حدث وأكدت له ذلك ثم قضيت المساء مع حميد .

١٣ يونيـه:

قضيت المساء مع حميد ودار الحديث حول عدم الثقة فى العبيد وذكر أن عبيده لم يعرفوا فى أى غرفة ينام وأنه دائما ينام والخنجر والمسدس تحت الوسادة خوفًا من أن تغتاله إحدى الجوارى، وأفاد أن كل العرب تقريبا يفعلون نفس الشيء وأنه الخوف أساسا من النساء لأن الشنق دائما يتم عن طريق نساء أهل البيت.

١٤ يونيـه :

زارنى دنكواه ثانية وقدم لى ثوبين ونعجتين وكمية كبيرة من قمح غينيا كهدية كما قـدم ثوبًا لكـل من الخـدم ، وقـدمت له سـتمـائة من ثمار الجـوز كنت قد أحضـرتهـا من كانو.

١٥ يونيـه :

جهزت كل شيء من أجل استمرار الرحلة لكن دنكواه ضغط على لأقضى يومًا آخر معه ، وانتـهزت فرصـة هذا التـأخير لأكتب للسلطان بلو والوزير، وقدمت خـالص شكرى المتـواضـع للسلطان لحـمـايته لى طوال إقـامتى فى مناطق نفـوذه، واعتـرافًـا بالعطف العظيم للوزير، ولم أتمالك سـوى إفـادته عـمـا حـدث لمقـبرة الدكتـور أودنى، وسلمت هذه الخطابات إلى دمبوجى الذى أوفى بوعده واستأذن منى بعد أن قدمت له هدية من ثوبين وأربعين دولارًا أما خادمى محمد دمبوجى فقد صار غنيا ومرحا ولديه عدد كبير من الأتباع لأنه فى كل مدينة توقفنا عندها وكان الحاكم كريمًا قدم إليه هدية احترامًا للسلطان.

وبعد أن أرسلت الإبل أمامى ذهبت لتوديع دنكواه الذى ما زال ملازما بيته بسبب المرض وتناولت طعام الإفطار معه وكان يتكون من رأس خروف ونعجة مشوية مع الخبز واللبن، وكـان يصـحـبنى عبـر نهر يووى صـديقى حمـيدا ورجـال فرسـان دنكواه الذين يرغبون فى مرافقتى حتى سان سان لكنى أعفيت نفسى من حرس الشرف لأنها مكلفة واكتفيت فقط بأحد رجال دنكواه الأساسيين ومررت على الغابة الكثيفة على شواطئ النهر وتوقفت تحت أحد أشجار التمر هندى، وفى المساء عسكرنا قرب قرية ميكا Mice وكان الأهالى مشغولين فى زرع النباتات وأحضروا لى كمية كبيرة من اللبن.

كانت الاستفسارات المتكررة عن صحة السلطان بلو ، ورغم أنهم ينتمون حاليًا إلى بورنو إلا أنهم يكنون كل الاحترام لسلطانهم السابق.

١٧ يونيــه :

بدأت الرحلة مع طلوع النهار وحيث كان الطقس باردًا وعاصفًا ولم أتوقف قبل الوصول إلى سان سان، نظرًا لأننى لم أحصل على الإقامة المريحة، وعندها هددت بالإقامة خارج المدينة واستقبلنى الخادم في منزل حسب أوامر دنكواه وقدم لى هدية عبارة عن شاة وفى الليل هبت عاصفة قوية مع برق ورعد، وكان الصبى الفقير يوسف الذى استأجره الدكتور أودنى فى كوكا للإشراف على الإبل قد خرج طوال الليل، وحيث إنه من أهالى فزان ومتهور قليلاً صار رجلا مقدسا وما زلت أحتفظ به فى خدمتى كنوع من الإحسان، وهو الذى أعطانى تقريرًا عن أهالى بيد **Bede** وحكى قصته بكل بساطة لدرجة أننى اعتمدت على صحتها.

١٨ يونيــه :

كان الجو باردًا وسمعت اليوم عن عرقلة أحد الحراس الذى تأخر فى الطريق بسبب إصابة أحد إبله وكان دنكواه أيضا يجهز هدية للشيخ الكانيمى فقد أجلت رحيلى يوما أخر.

١٩ يونيــه :

فى الساعة الحادية عشرة بعد الظهر عاد الرسول حاملاً هدية للسلطان بلو وخطابات من الميجور دنهام وقنصل طرابلس ووزير الدولة، وعلى هذا بدأت رحلة العودة فى منتصف النهار إلى كاتاجم لكى أقدم السيف إلى السلطان عن طريق دنكواه .

وفى الساعة العاشرة صباحا دخلت كاتاجم، وفى الحال زارنى دنكواه للسؤال عن سبب عودتى، وشاهد السيف وشرحت له طريقة ربط الحزام ، وسأل عما إذا كان

هذا من الذهب وأرسل إلى القاضى الذى كتب رسالة باسمى إلى السلطان، وأرسلت رسولا مع السيف، وفى المساء هبت عاصفة رعدية مع أمطار غزيرة.

٢١ يونيه :

فى الساعة الواحدة بعد الظهر وصلت مرة ثانية إلى سان سان، وكان اليوم التالى صافيا لكن توقفت لأن الهدية لم تكن قد جهزت بعد.

٢٣ يونيه :

كان الصباح عاصفًا، وفى الساعة السابعة فى الصباح غادرت سان سان مع جزء من الحامية التى سترافقنى فى مناطق بيد Bede وكنت مضطرًا للتوقف عند الظهر فى قرية جريلوا بسبب الألم الشديد والقىء ، وقبل أن نبدأ الرحلة رافقنى اثنان من تجار طرابلس كانوا فى مدينة كانو، وطلبا أن يدخلا تحت حمايتى خلال هذا الإقليم الخطير، وبعد الظهر وصل الحاج فودور Fudor حاكم سان سان مع بقية الحامية وأحضر لى شاة ، وعند منتصف الليل استمر الرعد والبرق والمطر.

٢٤ يونيه :

كان الجو باردًا وعاصفًا وفى الساعة العاشرة صباحا توقفنا عند قرية بوروم Beorum لملء قرب المياه وبعد ذلك سافرنا عبر غابة كثيفة حيث شاهدنا عدداً من الفيلة والظباء، وعند غروب الشمس نصبنا خيامنا فى الغابة، وكانت الليلة مطيرة والرعد والبرق والرياح العاتية تهب علينا، وقد دمرت خيامنا وامتلأت الأمتعة بالمياه.

٢٥ يونيــه :

واصلنا الرحلة عبر غابة كثيفة وتوقفنا عند جوبا Joba أثناء الحرارة فى اليوم حيث جففت أمتعتى فى الشمس ولازلنا نسير فى غابة كثيفة الأشجار، وفى الساعة السابعة مساء توقفنا عند قرية جوربوا Gorbua واستمرت الأمطار مع البرق والرعد طوال الليل.

٢٦ يونيــه :

مازالت السماء ملبدة بالغيوم والأمطار تنهمر وفى الساعة العاشرة صباحًا غادرنا قرية جوربوا أو المدينة الحصينة كما يسمونها فى لغة البورنو كنوع من السخرية محاطة بالحصيرة، ومازال الطريق ملتويًا وكثيف الأشجار ووصلنا إلى منطقة بيد Bede، وعند الغروب وصلنا إلى جوبا وهى مدينة صغيرة على الشاطئ الجنوبى لنهر Yeou داخل ممتلكات بورنو.

٢٧ يونيـه :

استمرت الأمطار قبل الظهر والتى أجبرتنا على البقاء فى جوبا حتى الساعة الواحدة بعد الظهر عندما صارت السماء صافية، وجهزنا الإبل وعبرنا الشاطئ الشمالى لمجرى النهر الجاف الآن ، واتجهنا شرقًا مع انحراف ناحية الجنوب حيث مدينة موزنى Muznee حيث توقفنا طوال الليل.

٢٨ يونيـه :

كانت السحب كثيفة مع استمرار هطول الأمطار ولكننا سافرنا شرقًا عبر ممر ملتـو ممتلئ بالفجوات وتنمو به أشجار صغيرة ، وقضينا الليلة فى مدينة رضوى

Redwa وكان هناك أحد مسئولى سلطان بورنو لجمع مستحقات سيده، وأرسل إلينا الحليب والبصل وست دواجن، وفى المقابل قدمت إليه خمسة عشر ثمرة من الكولا.

٢٩ يونيــه:

بعد السفر شرقًا توقفنا عند الظهر فى مدينة كوكابونى أو "الشجرة والسمك" وهى مدينة كبيرة على الشاطئ الجنوبى لنهر يووى Yeou ومررنا بعد ذلك على مدينة ماجاون وعدد من القرى الأخرى وبعض المدن على شواطئ النهر ولم نكن قد زرناها من قبل عندما رافقنا الشيخ فى العام الماضى.

٣٠ يونيــه:

كان الجو باردًا وتوقفنا فى العاشرة صباحًا عند مدينة دونجامى بسبب الأمطار الغزيرة والرعد والبرق الذى استمر دون توقف طوال اليوم .

الأول من يوليه:

كانت السماء صافية والجو حارًا وعند غروب الشمس وصلنا إلى مدينة موجبى وقمت بصيد فرس النهر الذى كان يسبح فى بحيرة حيث يوجد الكثير فى هذا الجزء من البلاد، ويبدو أننى صوبت إليه لكنه اختفى بسرعة.

٢ يوليــه:

توقفنا طوال اليوم لنمكن الإبل من الحصول على الطعام والراحة.

٣ يوليـــه :

التقينا مع المعلم فانامى حاكم مونجا ما بين مدينتى جاتينا ماران وموجابى وكان فى كوكا فى زيارة للشيخ وكان رجلاً مسنا قبيح المنظر وأمامه قارع طبلة وحوله جمع من الأتباع حاملين الرماح والسهام، وبالليل أقمنا معسكرنا فى إحدى الغابات.

٤ يوليـــه :

كان الجو بارداً والسماء صافية، وفى الساعة العاشرة صباحًا توقفنا وملأنا قرب المياه ، وقمت بصيد بعض طيور غينيا، وبعد تحركنا بساعة هبت رياح شديدة وأعقبتها أمطار ورعد، وكانت العاصفة قوية لدرجة أجبرت الإبل على إلقاء حمولتها، ولم يستطع حصانى التحرك للأمام، وفى الساعة الثامنة مساء أقمنا معسكرنا فى الغابات، لقد زالت مخاطر الطريق وحتى التاجران اللذان كانا معنا تركونا فى منتصف الليل بحثًا عن مياه.

٦ يوليـــه :

تمكنت من صيد حصان لطيف أو ظبى أحمر وأبيض جميل وهو أحد الفصائل التى سبق صيدها فى منطقة ودى Woodie وعند الظهر توقفنا عند أسوار مدينة بورجى للوقاية من الرياح القوية والرمال، وعند غروب الشمس عسكرنا بالقرب من بئر للمياه حيث تسقط أمطار غزيرة، وقمنا بحفر مكان عميق فى الرمل حتى نتمكن من شوى الظبى.

٧ يوليـــه :

عند الظهر توقفنا عند آبار بارتا **Barta** وعسكرنا ليلاً عند آبار ومدينة كالاواوا **Calawaw** .

٨ يوليــه :

فى الساعة الثامنة صباحًا عدت إلى كوكا وكان الميجور دنهام غائبًا فى رحلة حول الجانب الشرقى لبحيرة تشاد، أما هيلمان وهو النجار فى البحرية فكان مشغولاً فى الانتهاء من عربة مغطاة لكى يستخدمها كحافلة أو مكان لراحة زوجات الشيخ وتدل الصناعة على عظمة القائم بها، وكانت العجلات مغطاة بالحديد وكانت قوية جداً رغم أنها ليست خفيفة وليست لطيفة.

٩ يوليــه :

زرت الشيخ بعد الظهر وكان رقيقًا فى استفساراته عن صحتى وعبرّ عن أسفه الشديد لوفاة الدكتور أودنى.

١٠ يوليــه :

أرسل الشيخ اليوم ثلاثة أزواج من الصنادل وقمعين من السكر وكمية من البن وبعد يومين أرسل لى خروفا وكيسين من القمح وزلعة من عسل النحل.

ترجمة خطاب من الشيخ محمد الأمين الكانيمى شيخ بورنو فى وسط أفريقيا إلى جلالة ملك بريطانيا جورج الرابع الذى أحضره الميجور دنهام .

الملاحق

ترجمة من اللغة العربية لمختلف الخطابات والوثائق التى كتبها كل من دنهام وكلابرتون من بورنو والسودان بواسطة المحترم أ. سلام

الخطاب رقم (١)

خطاب من الشيخ محمد الأمين الكانيمى شيخ بورنو فى وسط أفريقيا إلى جلالة ملك بريطانيا جورج الرابع والذى أحضره الميجور دنهام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (محمد) من العبد الفقير إلى الله العظيم محمد بن محمد الكانيمى.

إلى السيد الفاضل المحترم ملك الإنجليز العظيم تحية وسلامًا منا إليه .

إننا نرحب برسلك ورسالتك عبر الأراضى من أجل الغرض الذى أعلنوه لرؤية ومعرفة الأشياء العجيبة. كما أننا نهتم بوصولهم حسب ما سمعناه من محادثاتك مع المسلمين . وأيضا لإقامة علاقات أخوية بينك وبين ملوكهم منذ زمن أجدادك وأجداد أجدادك .

إننا نقدر هذه الصداقة ونتعامل معهم حسب فضائلها حسبما يقدرنا الله العلى العظيم . لقد نقلوا تحياتك إلينا وكما أشرت فى خطاباتك والتى لا تعارضها إذا كنا فى حاجة إلى أى شىء من دولتك . كل هذا قد عرضناه ، وإننا شاكرين لك على هذا التفضل من جانبك ، إنهم يعودون إليكم الآن بعد أن حققوا كل رغباتهم لكن أحدهم انتهت حياته بالموت وكان إنسانًا طيبًا وكان رجلا ممتازا وعظيما لقد طلب الريس خليل (وهذا اسمه فى الرحلة ويدعى دنهام كلابرتون) السماح له بأن يقوم التجار بجمع سن الفيل وريش النعام وأشياء أخرى كثيرة لا توجد فى بلاد الإنجليز ، وإنهم سيحضرون إلينا . وكان ردنا أن وطننا كما عرف هو بنفسه ، وشاهد حالته لا يناسب

رحالة غنياً يمتلك ثروة ضخمة . لكن إذا حضرت مجموعة أشخاص صغيرة (صغار الرأسماليين) من حوالى أربعة أو خمسة فقط ومعهم بضائع صغيرة فلا ضرر فى ذلك .

إن هذا هو أقصى ما نستطيع أن نقدمه له وألا يزيد العدد عن هؤلاء ، وإذا أردت أن ترسل أى شخص من جانبك إلى هذه البلاد مرة ثانية فإنه من الأفضل إرسال الريس خليل لأنه يعرف الناس والبلاد بل وصار أحد السكان . أما الأشياء التى نحتاج إليها فقد سجلناها فى ورقه مستقلة والتى سنقدمها اك.

اكتب إلى القنصل فى طرابلس وإلى القنصل فى القاهرة تطلب منهم إذا رغب أحد فى الذهاب إلى هناك لأى مصلحة سواء بالبر أو البحر فإننا سنساعدهم ونقدم لهم كل ما يرغبون ، والسلام عليكم .

مؤرخ فى مساء السبت منتصف شهر ذى الحجة ١٢٣٩ هجرية ، الموافق شهر أغسطس ١٨٢٤ ،

الختم بإرادة الله ، من عبده

محمد الأمين بن محمد الكانيمى

رقم (٢)

ترجمة خطاب من رئيس أفريقى (بلو) من السودان

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على الرسول الكريم محمد
وعلى أتباعه المرسلين إلى رأس الدولة المسيحية المحبب لدى الشعب الإنجليزى
الملك جورج الرابع ملك بريطانيا العظمى.

الحمد لله والصلاة والسلام على التابعين على الصراط المستقيم:

إن خادمك الريس عبد الله (السيد كلابرتون) (اسمه فى الرحلة) قد جاء إلينا ووجدناه رجلا عاقلا وذكيا يمثل عظمتكم فى كل شىء ، الحكمة والوقار والطيبة والاحترام .

وعندما جاء وقت رحيله طلب منا أن نقيم علاقة ودية وأن نتراسل معكم وأن نحرم تجارة الرقيق وتصديرهم إلى داهومى وبلاد الأشانتى ، واتفقنا معه على هذه الأمور نتيجة المصلحة التى تعود علينا من وراء ذلك، مثلما تعود عليكم ، وأن يصل قارب منكم إلى ميناء الرقة مع قاربين آخرين وأن تطلق النيران فضلا عن عدد من الصواريخ وسوف نرسل مسئولا من طرفنا لترتيب وتسوية كل شىء مع قنصلكم ، وعندما يحضرون فسوف يتعاملون مع تجارتنا.

وبعد عودتهم سوف يقيم القنصل فى هذا الميناء (أى الرقة) كحماية مع مندوبنا هناك وإذا أراد الله.

المؤرخ فى الأول من رمضان ١٢٣٩ هجرية

١٨ أبريل ١٨٢٤ .

رقم (٣)

رسالة من يوسف باشا فى طرابلس إلى شيخ بورنو

الحمد لله والصلاة والسلام على آخر الأنبياء والمرسلين (النبى محمد)

إلى العالم المثقف وإمام المسلمين والمدافع عنهم وعن الشريعة الإسلامية صديقنا العزيز الشيخ محمد الكانيمى سيد بلاد بورنو وتوابعها .الذى يحميه الله عز وجل وأن يطيل فى حياته ويمنحه الصحة والسعادة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إلى أبد الآبدين .

وبعد السلام والتحية والسؤال عن الصحة التى يحفظها الله أحيط سيادتكم أن رسالتكم المبجلة قد وصلتنا ، وتعرفنا على كل ما فيها من محتويات . ولقد أخبرتنا أن ابننا العزيز أبا بكر بن كالوم وصل عندكم مع بعض أبناء الأمة الإنجليزية وأنك قد رحبت بهم بكل تقدير واحترام وعطف وأطلعتهم على كل الأشياء المدهشة التى توجد فى بلادكم وأطلعتهم على كل الأنهار العجيبة والبحيرات التى تحيط بها ، وأنك رحبت بهم ترحيبا حارا ، أتمنى من الله أن يمنحك على قدر ما تعطى لنا والله يحميك من كل الشرور والآثام ، ونحن نتوقع مثل هذا التقدير والاحترام ، ونحن فعلا متأكدين من هذا ومما سمعناه عن صداقتكم الحقة والمحبة التى تكنها نحونا .

إن ما نريد أن نطلعكم عليه هو استمرار الرعاية والعناية بالرحالة الإنجليز (رغم أننا لا نحتاج إلى هذه التوصية) وأن نسمح لهم بالمرور والوصول إلى بلاد السودان ، وأن يطلعوا على الأشياء المدهشة وأن يعبروا البحار والبحيرات والأنهار والصحارى هناك ، إن هذه هى الرغبة الحقيقة لملك الإنجليز نفسه ، ونطلب منك أن تبذل قصارى

جهدك حسب كل ما فى طاقتك لتأمين وصولهم إلى بلادك وبلاد السودان وأن ترسل معهم خطابات التوصية أو القوات أو الحراسة حتى نضمن وصولهم سالمين وأن كل جهد تبذله نحوهم فإننا نقدره تماما وعلى هذا فإننا نطلب منكم أن تبذل الجهد وأن تجعلهم يشاهدون كل الأماكن التى يرغبون فى زيارتها .

وفى النهاية أقدم لك هدية قيمة تناسب قدرك وأن ترسل إليك من خلالهم وهى تتكون من سلع قيمة وعظيمة ، وأن تسلم إليكم مع تحياتنا .

هذا هو كل ما نقوله فى الوقت الحاضر وإذا حدث أى شىء فى بلادكم دعنا نحاط علما .

والسلام عليكم

تحريراً فى ٢٨ شوال ١٢٣٨ من الهجرة ، الموافق شهر أغسطس ١٨٢٣ .

صديقك المخلص

توقيع يوسف باشا

رقم (٤)

خطاب من باشا طرابلس إلى أبى بكر بن كالوم فى بورنو

لقد تسلمنا خطابكم وفهمنا كل ما ذكرته لنا ونحن سعداء لسماع ذلك ، وإن أصدقاءنا الإنجليز الذين أرسلت معهم كمرشد وقائد قد وصلوا إلى بورنو فى أمان ، ، وإن سيدنا الشيخ محمد الأمين الكانيمى قد استقبلهم بكل حفاوة ، والذى سمح لهم فى الحال فى ارتياد كل الصحارى والبحار والبحيرات والأنهار فى بلادنا ، الله يبارك له على هذا العمل العظيم ، وقد أرسلنا إليه نشكره على مسلكه الكبير ، وندعو الله أن يمكننا أن نرد إليه هذا الجميل أما بخصوص الأشخاص من مختلف القبائل التى كانت عنيدة وغير مطيعة طوال الطريق فقد تم توقيع العقوبة عليها الواحدة تلو الأخرى وطالما بقى الرحالة الإنجليز فى بورنو فسوف تكون معهم فى كل مكان حتى يحققوا كل رغباتهم وإلى أن يعودوا عليك مصاحبتهم في كل مكان يذهبون إليه .

وإذا وصلك هذا الخطاب قبل أن تغادر بورنو عليك البقاء معهم كما ذكرنا من قبل ، وإذا وصلك وأنت فى الطريق إلى بلادك فعليك العودة إلى بورنو فى الحال ، وأن يرسل إليهم العبد الذى كان معهم ، وإذا وصلت إلى فزان قبل أن يصلك خطابى ، فعليك أن ترسل أخاك إلى بورنو ليبقى معهم بدلا منك لأننا أرسلناك من أجلهم لتسهيل مهمتهم وكل أمورهم . وعلى هذا فإنه من المستحيل أن تغادرهم ،

وأعتقد أنه بالنسبة لشخص مثلك فلا داعي لإضافة كلمات أخرى خصوصا وأنت تعلم أنهم فى ضيافتنا وتحت حمايتنا سواء فى الذهاب أو الإياب سالمين وهذه هى رغبتنا .

ونتمنى لك السعادة

تحريراً فى الثانى من ذى القعدة ١٢٣٨ الموافق أغسطس ١٨٢٣

التوقيع

يوسف باشا

رقم (٥)

خطاب من شيخ بورنو إلى سلطان كانو

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد.

من العبد الفقير إلى الله محمد الكانيمى إلى رأس بلاده وقائد شعبه العالم محمد دابو سيد كانو.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حيث إن حامل هذا الخطاب إليكم هو صديقنا محمد الوردى والذى كان برفقته بعض الإنجليز الذين جاءوا إلى بلاد السودان من أجل رؤية ومشاهدة العجائب والغابات والصحارى هناك ، لقد أرسلهم ملكهم لهذا الغرض .

إن هناك معاهدات صداقة ومحبة دينية بين دولتهم وبلاد المسلمين منذ أيام أجدادهم وأسلافهم وهذا خاص بهم دون غيرهم من الدول والذين يختلفون عن مبدأ الإمام أبى حنيفة ، ولم تحدث بينهم وبين المسلمين أية خلافات ، وعندما تعلن حروب من جانب دول مسيحية أخرى ضد المسلمين فإنهم على استعداد لمساعدتنا مثلما حدث أثناء المساعدة الكبرى لدولتنا عندما خلصوا مصر من أيدى الفرنسيين ، وعلى هذا فإنهم باستمرار اخترقوا أوطان المسلمين ، وسافروا إلى أى مكان يرغبون الذهاب إليه بكل ثقة وأمان دون أية أخطار أو أذى.

وهم كما يقولون من سلالة الإغريق القدماء والإمبراطور هرقل الذى أرسل إليه سيدنا محمد رسول الله ، بارك الله فيه ، والذى طلب منه اعتناق الدين الإسلامى والذى فور تسلمه هذا الخطاب المقدس حفظه فى علبة ذهبية ، رغم أنه كما يقال فى

كتب التاريخ لم يعتنق الإسـلام وعلى هذا فـإنه إذا قدر الله أن يصلوا إليك فـى أمـان فعليك الاهتمـام ، بهم وارسل الحراس لخدمتـهم وحمـايتـهم ورعايتـهم وأن توصلهم إلى أرض كـاتسـينا آمنين سـالمين لأنهم فى رعـاية الله ورسـوله وأنت تدرك تمامـا تعـاليم القرآن حول مراعاة الشرف .

والسلام عليكم

تحريراً فى يوم الأربعاء ٦ربيع الثانى ١٢٣٩ الموافق يناير ١٨٢٤

رقم (٦)

خطاب من شيخ بورنو إلى محمد بلو سلطان الهوسا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

إلى الرجل المبجل المحترم رمز الطيبة والاحترام رئيس مملكة السودان وحاكم بلاد الهوسا صديقنا العالم محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودى حما الله روحه وطيب ثراه بسحب من الرحمة والسلام.

تحياتنا الطيبة مشفوعة بالحب ورائحة المسك الدائمة عبر الكرة الأرضية ، ورحمة الله وبركاته عليكم.

حيث إن الهدف من هذا الخطاب هو أن نحيطكم أن حاملى هذا الخطاب هم رحالة إنجليز قامت دولتهم دون غيرها من الدول الأخرى بإقامة علاقات صداقة مع المسلمين وبدون انقطاع منذ أقدم العصور ، وعلى هذا الأساس فإنهم يطوفون بلاد المسلمين حسب هواهم ويعبرون كل المناطق والأراضى بكل ثقة وأمان وبدون خوف ، لقد جاءوا إلى بلادنا حيث أرسلهم لنا المحترم يوسف باشا قنصل طرابلس لكى يشاهدوا عجائب بلاد السودان ، وليتعرفوا على الأشياء النادرة بها مثل البحيرات والأنهار والغابات (أو الحدائق) التى لا مثيل لها فى أى جزء على وجه الأرض.

وبعد أن حققوا كل رغباتهم وشاهدوا كل شىء فى أرض بورنو والمناطق المحيطة بها فإنهم اشتاقوا لرؤية بلادكم خاصة ما سمعوه عن عجائب لا تحصى هناك وعلى هذا سمحت لهم بالتقدم فى رحلتهم وأرسلت معهم رسائل تفسر وتشرح هذه المهمة وعليك أن تدرك تماما مراعاة القرآن الكريم وتعاليمه بخصوص مسائل الشرف التى

فرضها الله علينا والتى يرعاها المسلمون فى عدم إراقة دم المسيحيين وأن تساعدهم وتحميهم .

رجاء الاهتمام بهؤلاء الرحالة ، وعدم وضعهم فى عالم الإهمال والنسيان ، ولا تسمح لأحد بإيذائهم سواء بالقول أو العمل ولا تحاول مضايقتهم بأى إيذاء أو سلوك عدوانى ولكن دعهم يعودون إلينا آمنين راضين ومسرورين كما يرغبون منا ، والله العلى العظيم يبارك فيكم ، وأن يضمن لنا طريق الحق لكل سلوكنا فى هذه الحياة تحياتى لكل من حولك ولكل من ينتمون لكم .

والسلام عليكم

تحريراً فى ٢٣ ربيع الثانى ١٢٣٩ هجرية الموافق يناير ١٨٢٤

توقيع

محمد الأمين بن محمد الكانيمى

رقم (٧)

خطاب من الرئيس محمد جامسو فى سوكوتو إلى أمير يورى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد .

من العبد الفقير إلى الله محمد بن الحاج عمر جامسو إلى صديقنا العزيز أمير يورى التحية بلا نهاية أو انقطاع لكم ولكل أصدقائك وأقاربك ، وإذا كنت تسأل عن صحتنا وصحة أمير المسلمين وكل أصدقائنا فإننا بخير وصحة جيدة ، لقد وصل العبد ومعه رسالة منك والتى قرأتها للأمير الذى كان مسرورا بها ، ولقد منعنا من إرسال رسول إليكم ومعه الرد ؛ إرسال الأمير يطلب منا أن نتقدم إلى الأجزاء الشرقية من الدولة للإشراف على بعض الأمور هناك ولكن إذا قدر الله لنا أن نعود سالمين فسوف تتلقى منا رسالة عاجلة .

إن الأمير يرسل إليكم الريس عبد الله الإنجليزى (اسمه المستعار كابتن كلابرتون) والذى كرمه واستقبله شيخ بورنو استقبالا حسنا، كما استقبله شيخ كانو ، وأيضا من جانب أمير المؤمنين ، وحيث إنك مثل هؤلاء العظماء والكرماء فإننا نرغب فى استقبالك له واحترامه بكل سخاء ، وعندما يعود أرسل إلينا خطابا يعبر عن كل رغباتك .

بلغ تحياتنا إلى أخينا وكل أصدقائنا وأن تلتزم بما جاء فى هذه الرسالة من أجل الصداقة التى نشأت بين كل أجدادنا ، والتى تقوم الآن بينى وبينك خصوصا أن كل تصرفك نحونا كان مقبولا .

والله يرعاك ويمنحك الإحساس الطيب الذى تتمتع به.

رقم (٨)

وثيقة تتعلق بوفاة موجوبارك

وحيث إنه من المعلوم أن بعض المسيحيين قد قدموا إلى مدينة يورى (youri) فـى مملكة ياوور ونزلوا واشتروا مواد غذائية كالبصل وأشياء أخرى كما أنهم أرسلوا هدية إلى ملك ياوور ، وطلب منهم الملك المذكور الانتظار حتى يرسل إليـهم رسـولا ، لكنهم كانوا خائفين ، وذهبوا بعيدا عن طريق البـحر (النهر) ووصلوا إلى مدينة تدعى بوصا أو بوصة وهناك ارتطمت سفينتهم بالصخر واندثر الجميع فى النهر."

وهذه الحقيقة هى كل ما لدينا من معلومات وسلام حتى النهاية.

إنها من أفكار محمد بن دنهام، وإضافة إلى سالف ذكره توجد لوحة مرفقة بالوثيقة ولكن بخط مختلف والمليئة بالأخطاء النحوية وقد وجدت صعوبة فى ترجمتها وإعطاء المعنى الصحيح .

ومـع ذلك فإن الكلمات كما أعتقد . ورغم أن معظمها قديم عن طريق التخمين " وإنهم قد وافقوا أو ارتابوا بين أنفسهم وسبحوا فى البحر (النهر) بينما نجد أن الرجال الذين كانوا يتعقبونهم قد ظهروا على ساحل البحر (شاطئ النهر) وسقطوا عليهم حتى غرقوا فى النهر " .

رقم (٩)

خطاب من شيخ بورنو إلى الكابتن كلابرتون

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله من العبد الفقير إلى الله محمد الأمين بن محمد الكانيمى إلى الريس عبد الله الإنجليزى .

والصلاة والسلام على من اتبع الهدى وحيث إننا تسلمنا خطابكم وفهمنا محتوياته فضلا عن إفادتنا عن الصداقة والمحبة التى أولاها الشعب إليكم ، ونحن لا نشك فى مسلكهم فى هذا الجانب .

أما بخصوص ما ذكرته حول موضوع الافتراء الذى قاله العرب ضدكم فيجب ألا تلفت نظرك إليه ، ولا تفكر فيه حيث لم يحدث شىء بالنسبة لكم وأنت فى هذه البلاد إلا ما كتبه العلى القدير لكم وبدون تدخل من أى بشر لقد مات الطبيب صديقك ، هذا هو حال الدنيا ، والله يبارك فى حياتك ، وقبل وفاته وعد بأن يمنح مسدسه إلينا كهدية وفى هذه المناسبة أبقاه لاستخدامه الشخصى حيث إنه استعاره منا حتى عودته إلى وطنه ، ولكن الآن حيث إنه مات فيمكنك أن تسلمه إلى صديقنا الحاج صلاح الذى يرسله إلينا ، وبارك الله فى صحتكم وسلامتكم.

التوقيع

محمد بن الأمين بن محمد الكانيمى

رقم (١٠)

وثيقة من محكمة العدل في بورنو

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على النبى محمد وأتباعه وأهل بيته .

وحيث إنه فى المحكمة (هنا لقب أطلقه الشيخ وأتباعه) فإن الشيخ محمد الكانيمى والحاج على بن الحاج موسى بن كالوم والطبيب الإنجليزى مع صديقه الريس عبد الله والريس خليل ، فقد طلب الطبيب من الحاج على إعادة مبلغ ألفى دولار بالدولار الفضى والتى أقرضها أصدقاءه إلى المرحوم أخيه أبا بكر بن كالوم من خلال القنصل الإنجليزى فى طرابلس بشرط إعادة دفعها لهم بعد وصولهم إلى بورنو حسب اعترافه من خلال إيصال فى حوزة الطبيب ، هذا الدين من الحاج على لأنه استولى على كل ممتلكات أخيه الميت ، فأجاب بأنه لا يعرف شيئا عن هذا الادعاء على المرحوم أخيه، ولكن إذا كانوا يمتلكون إيصالا فعليهم إظهاره لكشف الحقيقة . وقد أبرزوا ورقة ليست مكتوبة باللغة العربية وتحمل توقيع المرحوم أبا بكر وحيث إنه لا يستطيع أحد قراءة ما هو مكتوب فى هذه الورقة فإن القاضى أخبرهم رغم أنها توقيع (ختم) الميت المذكور إلا أن هذا ليس صحيحا ولا تفيدهم فى شيء وبعد ذلك أبرزوا أحد أصدقاء الميت أبى بكر كشاهد والذى قال إنه أثناء وجوده فى طرابلس أرسله إلى منزل القنصل حيث تسلم ألفى دولار وسلمها إلى الميت وهو يعلم أنها تدفع مرة ثانية فى بورنو حسب الادعاء القائم ، ومع ذلك فإن هذه الحجة لم يقبلها القاضى .

وأعيدت المرافعة فى نفس القضية أمام محكمة العدل وادعى أن الحاج على بعد المحاكمة الأولى اعترف وأقر أنه سوف يدفع ألفى دولار بنفسه والتى ادعوا أنها على أخيه المرحوم وأنه سيدفع كجزء من المبلغ المذكور ملابس قطنية بما قيمته ستمائة

دولار حسب عملة بورنو وأن بقية المبلغ وهى ألف وأربعمائة دولار سوف تدفع إليهم فى مدينة كانو فى السودان وعلى هذا فإنهم يرغبون فى توثيق ذلك أمام القاضى .

ومع ذلك قال الحاج على إنه أعطاهم ستمائة دولار فقط كنوع من الرحمة من جانبه ، وكسلفة منه إليهم والتى يجب أن يعيدوها فى كانوا وإنه لم يعترف قط ولا وعد بدفع دين أخيه. ولكن أخبرهم ، أنهم إذا كانوا فى حاجة إلى مبالغ أخرى فى كانو فسوف يقدم لهم كل ما يستطيع القيام به ، وعندئذ طلبوا من القاضى منعه من بيع أو إرسال ممتلكات أخيه إلى كانو (خشية فقدانها فى الطريق) حتى يثبتوا صحة ادعائهم بطريقة أفضل وأخيرا وافق الحاج على سواء بنفسه أو عن طريق وكيله أن يدفع لهم خمسمائة دولار أكثر فضلا عن الستمائة السابقة بعد شهرين من وصوله إلى كانو ، كما جدد مدة عام من تاريخ توقيع هذه الوثيقة بينهم لإثبات صحة الادعاء وأنهم إذا فشلوا فى إثبات ذلك على الأخ الميت قبل انقضاء المدة المذكورة فإن عليهم دفع مبلغ عشرة آلاف ومائة دولار له وإبطال كل الادعاء .

وبناء على هذه الشروط وافق الطرفان وأعلنا رضاهما على هذا وهما فى كامل صحتهما وأهليتهما عقليا حتى يمكن الاعتماد عليهما. صدر هذا من محكمة العدل للشيخ المحترم محمد الأمين بن محمد الكانيمى فى بورنو فى السابع والعشرين من شهر ربيع الأول الهجرى (الموافق شهر ديسمبر ١٨٢٣) فى حضور زين العابدين بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبى بكر ومحمد بن الحاج ميلاد بن طالب ، والله على ما نقول شهيد .

رقم (١١)

ترجمة خطابات ووثائق تسلمها من شيخ بورنو بخصوص موت السيد تايروت

١- خطاب من الشيخ السابق ذكره إلى القنصل البريطانى فى طرابلس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

من العبد لله العلى القدير محمد الأمين بن محمد الكانيمى إلى زعيم شعبه والذى تكن له أطفال شعبه كل تقدير واحترام إلى القنصل الإنجليزى فى طرابلس ، بعد التحية والسلام والسؤال عن الصحة ، نخبرك أننا بفضل الله نتمتع بكامل الصحة والرخاء ، لقد تسلمنا رسالتك التى أرسلتها من فزان وفهمنا كل محتوياتها لكن الخطاب الذى أرسلته مع رسلنا إبراهيم وعبد الله لم تصل إلى أيدينا بعد ، رغم أننا نتمنى وصولهم حالا.

أنت تعرف أن الله العلى القدير قد وهب كل رجل سنا معينا لا يزيد أو ينقص ، كما حدد له مقبرة لا يدخلها قبل الوقت المحدد ولا يستطيع الفرار من هذا الموعد ، وعلى هذا عندما تعرف ذلك فإن هذا يخفف آلامك وأسفك وحزنك عندما تسمع خبر موت أصدقائك أو أقاربك وعلى هذا فسوف نعلمك الآن أن ابنك تايروت قد انتهت حياته وانتهت أيامه بالموت يوم الإثنين نهاية شهر صفر ١٢٤٠ هجرية (الموافق ٢٢ أكتوبر ١٨٢٤) أثناء غيابنا فى حرب مع عدونا ، وبعد وفاته دخل القساوسة وكبار القوم إلى منزله لتسجيل الأشياء التى خلفها ، ولقد وجدوا أن الأمتعة التى تركها لا قيمة لها وقد سجلوها فى كشف سوف تتسلمه ، وقد تركنا كل شىء فى يد الوصى عليه ابن سعدا فى طرابلس والحاج على المايل اللذين كانا يقومان بخدمته.

ويعلم الله عما إذا كانت هذه كل ثروته أم أن شيئا قد أخفاه هؤلاء الذين تواجدوا في المنزل عند وفاته .

أما بالنسبة للرغبة التى عرضتها علينا لكى تعرف مصدر المياه التى تغمر النهر والتى تقسم بلادنا فإننا نخبرك أن النهر واسع ويضم بحيرة واسعة قطرها مسافة رحلة عشرين يوما وتصب فيه أنهار كثيرة من أجزاء فى أرض السودان ، وشرق بلادنا والتى تتصل بالجبال غير المأهولة وأرض الوثنيين التى لا يذهب إليها أحد ، ويعلم الله ماذا يوجد على الجانب الآخر من هذه الأماكن ، تحياتنا إلى الملك العظيم فى إنجلترا وإلى من يسأل عنا .

تحريراً فى يوم الأحد آخر شهر رجب ١٤٢٠ هجرية الموافق ٢٠ مارس ١٨٢٣

توقيع

محمد الكانيمى

رقم (١٢)

رسالة من الشيخ إلى الريس خليل أو الميجور دنهام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

من العبد الفقير إلى الله محمد بن محمد الأمين الكانيمى إلى الرجل الإنجليزى المحبوب والمبجل ، بعد التحية والسؤال عن الصحة نحيط علما أننا بفضل الله نتمتع بكامل الصحة والعافية.

لقد وصلتنا رسالتك وفهمنا كل محتوياتها ، أنت تدرك تماماً أن الله قد منح كل إنسان عمر محدد لا يحيد عنه أو يزيد ، وأنت تعرف ذلك وعليك أن تعرف أن السيد تايروت قد توفى يوم الإثنين الموافق نهاية شهر صفر ١٢٤٠ بينما كنا غائبين في حرب مع أعدائنا لقد أرسل حاكم الفور حملة ضد الأتراك الذين كانوا في كردفان ، ويقال إنهم خاضوا معركة في مكان يدعى كاجاه والتى انتهت بهزيمة جيش الفور ، ومصرع ثلاثة من قواتها فضلا عن الأسرى .

أما حاكم باجرمى الذى هرب العام الماضى إلى أرض الوثنيين ولم يعد ، فقد جمع أخوه مجموعة من القوات وتقدم نحوه . ويعلم الله ما سيحدث بينهما .

بلغ تحياتنا إلى أختك وكل عائلتك وأصدقائك والسلام عليكم.

تحريراً بنفس التاريخ السابق .

رقم (١٣)

ترجمة أغنية أهل فزان على وفاة بوكالوم

آه ، لا تثق فى البندقية والسيف حيث تنتشر حراب الوثنيين.

إن بوكالوم الرجل الشجاع الطيب قد سقط : من سيكون آمنا ! وحيث إن العمر بين النجوم الصغار هكذا يكون بوكالوم بين الرجال . أين ستبحث فزان الآن عن حاميها .

إن الرجال يعلقون رؤوسهم حزنا بينما تعقر النساء أيديهن ، ويملأن الجو بصراخهن ، ومثل الراعى للقطيع كان بوكالوم لشعب فزان.

قدموا الأغانى ، وقدموا له الموسيقى وهى الكلمات التى تعادل مدحه ، إن قلبه كان كبيرا مثل الصحراء . لقد كانت عطاياه مثل الناقة التى تغذى كل من حولها .

ومثل الزهور التى تندثر فى الحقول بدون المطر هكذا سوف يظل أهل فزان لأن بوكالوم لن يعود.

لقد رقد جسده فى أرض الوثنيين . وانتشر السهم المسمم للوثنيين .

آه ، لا تثق فى البندقية والسيف ، حيث انتصرت حربة الوثنيين.

إن بوكالوم الرجل العظيم الطيب قد سقط . من سيكون آمنًا ؟!

رقم (١٤)

ترجمة مخطوطة عربية أحضرها الكابتن كلابرتون من داخل أفريقيا تحوى تقريرًا جغرافيًا وتاريخيًا عن مملكة التكرور والتى تقع تحت سيطرة السلطان محمد بلو فى بلاد الهوسا . وهى مقتبسة من عمل ضخم قام به السلطان المذكور.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،

هذه المقطوعة مأخوذة من عمل بعنوان (إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور) ألفه محمد بلو أمير المؤمنين وحامى العقيدة ابن سلطان زمانه الشيخ عثمان بن فودى،

الجزء الأول

التقرير الجغرافي

القسم الأول

وأول هذه البلاد من جهة المشرق على تعبيرهم بلد فور ، ويليه من جهة المغرب بلد وداى وبلد باغرم :

فأما بلد فور فبلد واسع ذو أشجار وأنهار ومزارع ، قوت أهله الدخن والذرة والدجر ، وفيه رعاة كثيرون ، ويعمره عجم متعربون ، وعرب متعجمون ، وقد فشا فيه الإسلام كثيراً ، وأكثر أهل هذا القطر حجاج ، وزعموا أنهم يكرمون الحجاج ولا يتعرضون للطريق .

ويقرب من هذا الوصف أهل وداى وباغرم ، ولكن خربت باغرم ، وسبب خرابها – على ما زعموا – أن سلطانها أكثر من الفسق إكثاراً فظيعاً ، حتى تزوج بابنته من صلبه ! فسلط الله عليه أمير وداى صابور ، فخرب دياره وقتله "فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا"

وأما ما حاذى هذه البلاد من جهة الشمال ، فقفار ورمال عطشى لا يعمرها إلا الرعاة فى فصل الربيع من البرابرة والعرب المذكورين .

وأما ما والاها من جهة الجنوب ، فبلاد كثيرة يعمرها أجلاف السودان على اختلاف ألسنتهم ، لم ينتشر الإسلام كثيراً ، ولم يتفق لى من أخبار هذه البلاد ، ونوادر الأمور وأخبار ملوكها وعلمائها ورجالها ما يحق لنا ذكره وإيراده على شرطنا قبل .

القسم الثانى

فى وصف "برنو" وسكانها

ويليها من جهة المغرب بلد برنو بفتح الباء وإسكان الراء وضم النون ، بعدها واو ، وهى بلدة ذات أنهار وأشجار ورمال واسعة ، عامرة بالسكنى قبل هذا الجهاد ، ولم تكن بلدة في هذا القطر ، أوسع منها وأكثرها عمارة ، ويسكنها البربر والعرب المذكورون والفلاتيون وفيها مماليك البربر كثيراً.

وهؤلاء البربر من بقايا البرابرة الذين بين الزنج والحبوش ، وهم الذين طردهم حمير من اليمن بعد أفريقيس التبع .

وسبب مقامهم باليمن - على ما زعموا - أن أفريقيس تبع استغاث به أهل الشام حين أكثر البربر الفساد فيها ، واستنصروه عليهم ، فغزاهم وشتت جموعهم ، وسبى منهم ذراريهم ! ولما رأى نخوتهم استبقى ذراريهم عنده مماليك يستعين بهم .

فلما مات ومضى برهة قاموا على حمير ، فاقتتلوا فطردهم حمير من اليمن، واستوطنوا قريبًا من أرض الحبشة ، ثم وافوا كانم واستوطنوها ، ووجدوا فى هذا البلد عجمًا تحت حكم إخوانهم التوارك، يقال لهم أمكيتا . وغلبوهم على البلد، وأقبلت دولتهم أيام استيطان البلد ، حتى ملكوا أقاصى البلد من هذا القطر.

وكانت وداى وباغرم قبل هذا تحت سلطانهم ، وكذلك بلاد حوس ، بفتح الحاء وما والاها من بلاد بوش بفتح الباء وإسكان الواو ، ثم ضعفت شوكتهم .

وقد حج من سلاطينهم كثيرون ، وتظاهروا بالخير والإسلام وإقامة الحدود والشريعة فى أوائل أمرهم جداً ، وبقيت آثار الإسلام فيها كثيراً .

وقد انتشر الإسلام فيها انتشاراً بين سلاطينهم ووزرائهم وعامتهم . بل لا يوجد فى هذه البلاد عامة إلا معتنون بقراءة القرآن وتجويده وحفظه وكتابته . ولم تزل العامة هكذا حتى قام هذا الجهاد .

لكن حدثونا أن لسلاطينهم وأمرائهم مواطن يركبون إليها ، ويذبحون بها ، ويرشون بالدماء على أبواب قريتهم ، ولهم بيوت معظمة فيها حيات وأشياء يذبحون لها ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية ! ولهم فى ذلك أعياد يجتمعون فيها هم وقراؤهم وسلاطينهم وعامتهم ، ولا يحضرها غيرهم ، ويسمون ذلك عادة البلد ، فإذا لم تفعل تلك العادة بطلت معايشهم ، وقلت أرزاقهم ، وضعفت شوكتهم . وتوارثوا هذه العوائد كابراً عن كابر .

ولم يبلغنا عن أحد من سلاطينهم وعلمائهم - بالغًا ما بلغوا - أنهم أبطلوا تلك العوائد ، إلا ما كان من الموفقين (ممن) لا يشاركهم فى أمورهم من العرب والفلاة ، فإنهم لم يزالوا ينكرون عليهم فعلها ويكفرونهم . ولا شك فى كفرهم ، وإن كان علماؤهم يدعون أنهم لا يريدون بذلك الإشراك ، ولا يعتقدون التأثير . فهم كفار ؛ لأن هذه الأصنام من الأشجار والمياه والأماكن التى يذبحون لها كانت أصنام أجدادهم الذين لم يسلموا من قبل ، فهم فى ذلك مقلدون لهم ، وإن كانوا تظاهروا بالإسلام والخير بعد ذلك ؛ لأن الإسلام فى هذه البلاد إنما ورد به التجار والمسافرون ، فأخذه من أخذه منهم .

فمن الناس من خلص دينه كما ينبغى ، ومن الناس من خلطه بما يناقضه . وكان غالب ملوك هذه البلاد من هذا القبيل ؛ لأنهم أخذوا بالإسلام وهم يقرون بالتوحيد ، ويصلون ويصومون ، ولكنهم لم يفارقوا أحوال أجدادهم الأولين ، ولم يتركوا من عوائدهم شيئًا ، فكل من خالطهم علم بالضرورة أنهم متلبسون بما لا يصدر إلا من كافر .

القسم الثالث

فى بلاد حوس ، وأقاليمها وساكنيها

ويلى هذا البلد من جهة اليمين ، وغربى برنو بلد حوس ، وهو سبعة أقاليم ، لسانهم واحد ، وعلى كل إقليم أمير نظير للآخر ، قبل هذا الجهاد ، وأوسطها كاشنة ، وأوسعها زكزك ، وأجدبها غوبر، وأبركها كنوا .

وهى بلاد ذات أنهار وأشجار ورمال ، وجبال وأودية وغياض يعمرها السودانيون من مماليك البربر ، من أهل برنو يقال له باو ، هو الذى ولد السودانيين من أهل هذا البلد ، ولذلك قلنا : إنهم من مماليك البربر ، من أهل برنو .

وحدثنى الأخ أمير المؤمنين محمد الباقرى بن السلطان محمد العادل ، أن كاشنه وكنوا وزكزك ودورونة وبربم ، كلهم من ولد باو ، الذى هو مملوك سلطان برنو . وأما أهل غوبر فهم أحرار من أصلهم ، خرجوا من مصر ، وهم من بقايا القبط ، وتوجهوا إلى المغرب ، هكذا وجدت فى التاريخ عندهم .

وهذه الأقاليم السبعة قد كان فيها من العجائب والغرائب أمور كثيرة . وأول من استقرت له الدولة فيها - على ما زعموا - آمنة بنت أمير زكزك ، غزت هذه البلاد واستولت عليها قهراً ، حتى أدى إليها الخراج من كاشنة وكنوا ، وغزت فى بلاد باوش حتى وصلت البحر المحيط ، من (جانب) اليمن والغرب ، وتوفيت بأتاغر ، بفتح الهمزة والتاء مع التشديد وفتح الغين .

ولهذا كانت زكزك أوسع بلاد حوس ، إذ فيها أقاليم باوش كثير ، وهى أقاليم يعمرها أجلاف السودان ، فمن تلك الأقاليم إقليم غوار ، بضم الغين وفتح الواو ، وهى سبعة أقاليم ، لسانهم واحد ، وهم من أجلاف السودان ولم ينتشر فيهم الإسلام .

ومن تلك الأقاليم إقليم أتاغر ، وهو إقليم واسع ، وبجنبهم مرسى ويروى : بكسر الياء وضم الواو ، وبها معدن الرصاص ، وباس ، وكدور ، بفتح الكاف والدال وسكون الواو ، وبوم بضم الدال، ويسكوا بفتح الياء وإسكان السين وضم الكاف ، وكتوا بضم الكاف والتاء على الأشمام وأدام بفتح الهمزة والدال ، وكتوا أخر ، بها معدن الصفر والشبه ، وكرنرف بضم الكاف والراء وإسكان النون مع ضم الراء .

وهذا الإقليم يشتمل على نحو عشرين إقليمًا ، سلطانهم واحد ، وهو سلطان كرنرف وهبت له الدولة فيما مضى ، حتى ملك هذه الأقاليم التى هى نحو عشرين. وغزا كتوا ويرنو ، فخرب كثيراً .

وفى هذا البلد معدن الكحل والذهب والملح ، وفى جنبهم مرسى سفن النصارى من ملكان ، الذين يتجرون فى السودان .

ومن تلك الأقاليم إقليم أتاغر ، وهو إقليم واسع ، وبجنبهم مرسى السفن من هؤلاء النصارى المذكورين ، وهذا البلد والذى قبله على شاطئ البحر المحيط ، وهذه الأقاليم المذكورة كلها فى إقليم زكزك ، ولم ينتشر فيها الإسلام قبل هذا الجهاد .

القسم الرابع

فى الأقاليم السبعة التى تقرب من كاشنة وغوبر ، وساكنيها

وبقرب كاشنة وغوبر سبعة أقاليم كلها مندرجة فى الأقاليم السبعة المذكورة آنفًا ، التى هى حوس وهى بلد زنفر ، وكب ، وياور ، ونفى ، ويرب ، وبرغ ، وغرم . وعلى كل بلد أمير نظير للآخر .

فأما بلد زنفر بفتح الزاى وإسكان النون وفتح الفاء ، فأصل أهلها - على ما زعموا - أن أباهم كشناوى وأمهم غوبرية ، هبت له الدولة بعد ضعف شوكة أهل كب ، فقام منهم سلطان يقال له يعقوب بن بب بفتح الباء ، فخرب ديار كب ، واستولى على أكثر بلاد كب ، وقام عليهم سلطان غوبر باباري فخرب ديارهم ، وعقبها لبنيه خمسين سنة ، فقام عليهم هذا الجهاد .

وأما بلد كب بفتح الكاف فأصل أهلها- على ما زعموا- أن أمهم كشناوية ، وأبوهم من أهل سنفى ، وهى بلاد واسعة ذات أنهار وأشجار ورمال ، هبت لهم دولة أيام كنت بفتح الكاف وسكون النون وفتح التاء ، ويقال : إنه عبد للفلاتين ، قام وقهر البلاد وملك الأقاصى منها والدوانى ، ويقال : إنه ملك كاشنة ، وكنو ، وغوبر ، وزكزك وبلاد آهير وبعض سنفى ، وغزا برنو .

وسبب غزوه لأرض برنو - على ما قيل - أن أمير برنو ميعلى من برنو غازيًا ، فسلك طريق سو سوباد حتى سلك شمال دور ، وكاشنة ، ويمين غوبر ، ودخل بلاد كب حتى وصل إلى حصن سورام بضم السين ، فتلقاه سلطان كب صباح العيد ، فاقتتلا ساعة فهزم سلطان كب للغرب ، وبقى سلطان برنو هناك ليقاتل الحصن ، فاستصعب

عليه الحصن فكر راجعًا ، فسلك اليمين حتى وصل غند ، بفتح الغين وإسكان النون ، ومر راجعًا إلى بلده ثم أنشأ كنت جيشًا ، واقتفى آثاره حتى وصل إلى أنغر ، بضم الهمزة وسكون النون وضم الغين فتلقاه البراون ، وهزم من جنودهم نحو سبعة ، وغنم فيهم كثيراً ، ثم كر راجعًا حتى وصل إلى موضع يقال له دغل بضم الدال والغين وإسكان اللام من ناحية كاشنة وبها طائفة باغية عليه ، فقاتلهم أشد قتال ، حتى رموه بسهم فكر راجعًا حتى وصل إلى موضع يقال له جرو بكسر الجيم وإسكان الراء ، فتوفى بها ، وحمله قومه ودفنوه بدار سورام .

وكانت له ثلاثة أمصار ، أقدمها (بلد) غنغ ، بضم الغين وإسكان النون ، ثم سورام ، ثم ليك بكسر اللام ، وتمكنت دولتهم فيها ، بل لا يوجد بهذه البلاد دولة أعظم منها فيما مضى ، وهذه آثارهم ما رؤى مثلها فى هذه البلاد ، وقد مضى من خرابها نحو من مائة عام .

وقد بقيت دولتهم بعد كنت نحو مائة عام . ولم تضعف شوكتهم حتى قام عليهم سلطان غوبر ، محمد بن شروم ، وأغب – بفتح الهمزة والغين – ابن محمد بن المبارك ، سلطان آهير وأمير زنفر . واستولى على معظم البلد أمير البلد أمير زنفر ، واستولى كل على ما يلى بلده ، وهو الذى خرب هذه الأمصار الثلاثة ، كما ذكرنا قبل .

وأما ياور فبلدة ذات جبال وأودية على شاطئ البحر الذى يقال له النيل ، ويعمرها أجلاف السودان الذين هم ضعاف العقول ، وقد تولى عليهم السلطان العادل المعروف بسوت ، وردهم عن الكفر إلى دين الإسلام وعن العناد إلى الرشاد ، فانتشر بسببه الإسلام فيها . هكذا وجدت فى كتاب الأستاذ محمد الوالى "النصائح" الذى ألفه لأجله .

وأما بلد نوف ، فبلد ذو أنهار ، ورمال وجبال ، من جانبه الأيمن والأيسر ، يعمرها أجلاف السودان ، ويقال : إنهم من كاشنة أصلاً ، والصحيح أنهم أخلاط من كاشنة وزكزك وكنوا وغيرهم ، ولهم لسان غير لسان أهل حوس.

وكان أهل البلد محترفين جداً ، وفيهم الصنائع العجيبة ، وفى بلادهم الأمور البديعة ، ويجلب من بلدهم الطرائف الغريبة ، وكأن بلدهم إنما اقتطعت من بلاد

الريف ، وتولى عليهم فيما مضى السلطان العادل جبريل ، وانتشر الإسلام بسببه ، فأبغضوه لشدة رسوخه في أمر الدين ، فعزلوه وولوا عليهم من يناسبهم في جنونهم ومجونهم .

وأما بلد يرب فبلدة واسعة ذات أنهار وأشجار ، ورمال وجبال ، فمنها الأخبار العجيبة ، والأمور الغريبة . بجنبهم مرسى السفن للنصارى المذكورين .

وأهل هذا البلد - على ما يقال - من بقايا بني كنعان ، الذين هم عشيرة نمرود.

وسبب مقامهم بالمغرب - على ما قيل - أن يعرب بن قحطان هو الذي طردهم من العراق إلى المغرب فسلكوا بين مصر والحبشة ، حتى وصلوا إلى يرب ، وكانوا يخلفون في كل بلد طائفة منهم ، ويقال : إن أجلاف السودان الذين يعمرون جوف الجبال كلهم منهم ، وكذا أهل ياورر . وهذا البلد يقرب وصف أهله بأهل نفي .

ومن بلادهم يجلب هذا الطير الأخضر الذي هو ببغاء ناطق ، وفي هذا البلد أخبار عجيبة ذكرها محمد مسنة ، صاحب النفحة العنبرية في "أزهار الربا ، في أخبار يربى" .

وكان أهل هذا البلد يجلب لهم العبيد من بلادنا هذه ، ويبيعونهم للنصارى المذكورين . وإنما ذكرت لك هذه القضية ، لئلا تبيع عبدًا مسلمًا لمن يجلبه إليها وقد عمت البلوى بذلك .

وأما بلد برغ ، فبلدة ذات أشجار ورمال ، يعمرها أجلاف السودان ، ويقال: إنهم من عبيد الفلاتا ، الذين خلفوا وراء النهر ، حين جاوزوا البحر ، وانتشر في هذه البلاد ، وهؤلاء السودانيون عتاة مردة فيهم السحر الكثير .

ويقال : إن الأمير العادل الحاج محمد أسكيا حين استولى على هذه البلاد ، وغزاهم ولم ينجع فيهم شيء ، واستصعبوا عليه .

وأما بلد غرم ، فهي بلدة واسعة ذات أنهار وأشجار ورمال وجبال ، يقرب وصفهم من وصف أهل برغ ، بيد أنهم سراق فجار ، وبلدهم أوسع من بلد برغ .

وبجنبهم بلد يقال له - موش - بضم الميم ، بلدة واسعة ذات أنهار وأشجار، يعمرها أجلاف السودان ، وفيها معدن الذهب .

القسم الخامس

فى بلاد أهير وسكانها ، وبعض علمائها

ويلى هذا البلد من جهة الشمال بلدة أهير ، وهى بلاد واسعة ، وقيعان ممتدة يعمرها التوارك ، وبقايا صنهاجة ، وبقايا السودان .

وكان هذا الإقليم من قبل فى يد السودانيين ، من أهل - غوبر - بضم الغين وكسر الباء فاستولى عليها التوارك : قبائل خمسة أتوا من الأوجل - يقال لهم : أمكيتا - وتمكك ، وسندار ، وأكدالا ، وأجدارنين ، فتغلبوا على البلد ومكثوا فيها ، ثم اتفق رأيهم فى تأمير الأمير عليهم ، ليقيم لهم أمرهم ، ويرد قويهم عن ضعيفهم فأمروا رجلاً من أهل استفى ، ثم تنازعوا بعد ذلك وعزلوه ، ثم طلبوا آخر ، ولم يزالوا هكذا : كلما لم يوافقهم أميرهم عزلوه .

وكان هؤلاء التوارك من بقايا البربر ، الذين انتشروا أيام فتح أفريقية .

والبربر : أمة من ولد إبراهيم .

وقيل : من ولد يافث .

وقيل : من يأجوج ومأجوج الذين سدهم ذو القرنين ، وقد خرجت منهم طائفة يغيرون فسد من دونهم ، فبغوا وتناكحوا مع الترك والتتار .

وقيل : هم من ولد الجان . ذهبت رفقة إلى بيت المقدس ، فباتوا فى قاع ، فأصبحوا وقد حملت نساؤهم من جان تلك البقعة ، فولدتهم ، وهم أمة جبلوا على سفك الدماء ونهب الأموال والحرابة .

وقيل : إنهم هم الذين قتلوا النبى حنظلة ، عليه السلام .

وقيل : إنهم هم الذين قتلوا النبيين : زكريا . ويحيى عليهما السلام وهم الذين بغوا على بنى إسرائيل ، فأخرجوهم من ديارهم ، حتى قاتلهم طالوت ، فقتل داود أميرهم طالوت ، حتى كان من أمرهم ما كان . وكانوا إذ ذاك بفلسطين ، فخرجوا منها متوجهين إلى المغرب ، حتى انتهو إلى ألوبية ومراقبة ، وهما كورتان من كور مصر الغربية ، مما تشرب من ماء السماء ، ولا ينالها ماء النيل ، فتفرقوا هنالك ، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب ، وسكنوا الجبال ، وتقدمت لواته ، فسكنت أرض أنطابلس وهى برقة وتفرقت فى هذا المغرب ، وانتشروا حتى بلغوا السوس .

ونزلت هوارة مدينة البدوة ، ونزلت نفوسة مدينة صبرة ، وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك .

وأقام الأفارق ، وكانوا خدماء الروم ، على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم ، وهم فارق بن ينصر بن جارم .

ولنرجع إلى تقرير هذا الإقليم .

وزعموا أنه لما (افتتحت) أفريقية انتشر من فيها من البربر ، وساروا إلى المغرب ، واستوطنوا تونس ، وانتشر من تونس قبائلهم إلى المغرب ، وسار بعضهم إلى الغرب الجنوبى ، الضارب فى بلاد السودان ، فاستوطنوا الأوجل وفزان وغدامس وغات .

هذه القبائل الخمس المذكورة ، وافوا من الأوجل ، واستوطنوا هذا الإقليم ونفوا من بها من السودانيين .

وكان الإسلام انتشر فى هذا الإقليم كثيراً ، وظهر فى أهله البركة والخير كثيراً ، وكان منهم العلماء والأولياء ممن لا يحصيهم إلا الله ، وضاعوا لعدم تسجيل التاريخ فى هذه البلاد .

المحتويات

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار چينيت	ت محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت . محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت. عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدى أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت . مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت . ماهر جويجاتى
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت . محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	ت محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهرى
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعى
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت . عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت المهدى أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت . رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبــة	ت محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت محمود علي مكي
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادي پلانت	ت أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت نسيم مجلي
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراي	ت أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت سمحه الخولي
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحي	ت بشير السباعي
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت شوقي جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق علي	ت طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت سحر توفيق
١٣٧ - منكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف ماري مواريه	ت كاميليا صبحي
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت أمل الجبوري
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت حسن بيومي
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت عدلي السمري
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت . علي عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : علي إبراهيم علي منوفي
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت أحمد مرسي
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت مي التلمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامي الكنوجي	ت عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت إبراهيم فتحي
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومي
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوي	ت صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - في عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت شكري محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت شكري محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت شكري محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنري تروايا	ت حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت . ب . ليتش	ت محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت . ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت . دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علوى	ت علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت . بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت . محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت . محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت . جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت . جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت . على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت . محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت . محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت . يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت . على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردبا ديف بوركى	ت السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت . أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنوناً	يوربيديس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربى	روجر ألان	ت . نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت . مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوچيا الحيوية	جين ل ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريـوس	ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	چان - فرانسوا ليوتار	ت نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بابينو	ت . محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	آ . ف . ستون	ت . نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت . محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن العربى	دبليو إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت كرستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت . محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٢	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء نخبة ت البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى جيرالد برنس ت عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوى ت فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية كليرلا لويت ت فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢ محمد فؤاد كوبريلى ت عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب وانغ مينغ ت وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه أمبرتو إيكو ت على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس أندريه شديد ت حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود ميلان كونديرا ت خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين نخبة ت إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤ على أصغر حكمت ت محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر محمد إقبال ت يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة سنيل باث ت جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة جونتر جراس ت شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة ر. ل. تراسك ت رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان بهاء الدين محمد إسفنديار ت أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز محمد إقبال ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال سوزان إنجيل ت إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق محمد على بهزادراد ت يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعاً عن التاريخ الأدبى النسوى جانيت تود ت ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات چون دن ت بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى سعدى الشيرازى ت محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر نخبة ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى نخبة ت عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية مايف بينشى ت منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية فرناندو دى لاجرانخا ت عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق ندوة لويس ماسينيون ت نخبة
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون بول ديفيز ت هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش إسماعيل فصيح ت سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك تقى نجارى راد ت محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه لورانس جين ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر فيليب تودى ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى ديفيد ميروفتس ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو مشيائيل إنده ت باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات زيادون ساردر ت ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج ج. ب. ماك ايفوى ت ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس تودور شتورم ت عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى ديفيد إبرام ت ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل أندريه جيد ت حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ مانويلا مانتاناريس ت جمال أحمد عبد الرحمن

٤٠٧ - الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت طلعت شاهين
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت عنان الشهاوى
٤٠٩ - انتصار السعادة	برتراند راسل	ت إلهامى عمارة
٤١٠ - خلاصة القرن	كارل بوبر	ت الزواوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ - بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياڤلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت حمدى الجابرى
٤٣٤ - الرومانسية	دونكان هيث وچودن بورهام	ت عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت عايدة سيف الدولة
٤٣٩ - موت المرابى	صدر الدين عينى	ت محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت فخرى لبيب
٤٤٢ - حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت ماهر جويجاتى
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس نرستيغ	ت محمد الشرقاوى

٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علماني
٤٤٥ - حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ - التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود
٤٤٧ - نظرية الكم	ج . پ . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ - علم نفس التطور	ديلان ايفانز - أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ - الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيرى
٤٥٠ - ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا - ريبيكارايت	ت : جمال الجزيرى
٤٥١ - الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ - لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت	ت : محى الدين مزيد
٤٥٣ - القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليوم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ - خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ - تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ - لا تنسنى	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ - النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ - الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ - نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ - الفاشية والنازية	ستوارت هود - ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ - لكأن	داريان ليدر - جودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ - طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت : عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ - الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ - ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت : حصة منيف
٤٦٥ - قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ - حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ - التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ - روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٤٦٩ - جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ - الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد النة
٤٧١ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٥٣٨ / ٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة

رحلة لاستكشاف أفريقيا



يعالج هذا الكتاب قصة الرحلة التى قام بها ثلاثة من الرحالة البريطانيين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر إلى شمال ووسط أفريقيا من أجل الكشف والبحث عن هذه المناطق من القارة الأفريقية، وبالتالى فهو أول سجل تاريخى يحكى قصة هؤلاء المغامرين الذين تحملوا الكثير من المشاق والمتاعب فى هذه الفيافى والصحراوات ذات الحرارة العالية والأمراض الفتاكة التى أودت بحياة أحدهم، وهو الرحالة الدكتور أودنى بعد صراع طويل مع المرض والطبيعة القاسية.
لقد كان هؤلاء الرحالة من أوائل الأوروبيين الذين توغلوا فى ممالك السودان الغربى فى الكانم والبرنو، وقدموا وصفًا تفصيليًا لحياة هذه الشعوب وعاداتها وتقاليدها وخيراتها بالتفصيل الذى لا غنى عنه لأى باحث يريد الحديث عن هذه الشعوب، ولقد زاد من قيمة هذه الرحلة التى استمرت ثلاث سنوات أنهم توغلوا فى قلب دولة سوكوتو الإسلامية وأقاموا عند الخليفة محمد بلو وتعرفوا على الكثير من العادات الإسلامية مع وصف دقيق للحياة فى هذه الإمبراطورية التى كان الأوروبيون يجهلون الكثير عنها وعن الحضارة الإسلامية الزاهرة فى قلب القارة.
لقد كانت هذه الرحلة التى تقع فى جزأين بداية رحلات أخرى للرحالة هنرى بارث الألمانى الذى زار هذه المناطق، وأكمل الصورة عن هذه الشعوب، وكانت هذه الرحلات والاستكشافات هى التى مهدت الطريق للأوروبيين لاستعمار واحتلال الكثير من مناطق وسط القارة وغربها.

